إيجن

رواية

صابرين الديب

Designer ● Alsalmi budoor

إيجن

رواية

عندما يتلبس العشقَ شبحُ الانتقام



بقلم

صابرين الديب





جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

[جروب حلم-هن]



غلاف

بدور السالمي

تصميم داخلي وتنسيق

صابرين الديب



مقدمة

عندما ينعدم الضوء ويحيط بك رداء الدَيْجُور والجور..

تنزوي نسمات الحنين في ركن قَصِيّ

وتظهر القسوة كبديل رئيسي على مسرح الأحداث..

تبقى آلامك هي الرفيق

ويتوه منك شيئًا كنت يومًا تملك أفضل ما فيه..

تتأوه لفترة ثم من مخاض وجعك تولد حمم.. زرقاء.. باردة.. قاسية..

يرويها شُوَاظُ أنينك.. فتثمر في فؤادك جَهَامة وعَتْمة..

تلتقي بصخور واقعك العليل؛ فتنهال فوقها بمعول جبروتك لتتحطم..

وتبقى نيرانك أنت تسري في الهشيم، وتأتي على الأخضر واليابس..

حتى تحرق زهرة، ظننتها أنت محض عشب.. فتحترق معها بقاياك..





وتصبح أنت صاحب الرداء..

رداء الضَيْم.. الذي أُجْبِرت على الخنوع أسفله يومًا..

فإذا بك اليوم مالكه..





(١)

جلس أمامها في صمت..

تأمل ملامحها التي خطها الحزن بخبرة سنين..

عيناه قصة..

اختلط فيها الحزن بالعشق، الألم بالهوى، إحساس الذنب بالوَلَه!..

مد يدًا مترددة يمسك بها كفها فلم تمانع، اكتفت بنظرة سريعة لأصابعه الدافئة التي تحيط بأصابعها في حنان ثم رفعت عينيها إليه في سكون..

تمتم بأربعة أحرف لم تصل لأذنيها لكن وصلت لقلبها، أدارت وجهها للجهة الأخرى وهي تتأمل بضع شجيرات صغيرة في حيرة وهدوء.. وكفها لا يزال هناك..

مستكينًا في حضن يده..







في خيمة الصمت التي نحيا بها حبيبتي لم أتنازل يومًا عن قربك، عن يدك الصغيرة بين أصابعي التي طالما آلمتك، عن نظرة حيرة في عينيك توجهينها بخنوعٍ نحوي، وكأنك تتساءلين من أنت؟..

ولمحة اطمئنان بمُلكِ الدنيا عندما أكون بقربك..

لم أحظَ بمثلها منذ أن كنتِ طفلة.. قطعت على نفسي أمامك وعدًا وسأفي به مادمتُ حيًا..

سأظل إلى جوارك، سأظل جدران حمايتك، سأظل أسعى لتتذكري من أنا!.. حتى وإن تركتني بعدها..

فقط أريد تلك الابتسامة الشقية على شفتيك مجددًا، وضحكة عينيك المرحة عند رؤية ما يسعدك، سأظل أسعى صغيرتي الأثيرة ولن أمَّلَ أبدا ما دام في صدري قلبًا ينبض.

***

أتعلمُ أكثر ما يسعدني؟!..

أنكَ عدتَ من جديد.. ربما مرضي هو السبب..

أو إدعائي المرض!..





دومًا تأتيني وتبقى معي اليوم بطوله أحيانًا، تمسك بيدي في حنان افتقدته كثيرًا، تبثني حبك وأبثُك حيرتي..

كلماتك هي التي تحبسني في قمقم المرض؛ فربما لو شُفيت.. تعود لتصبح ذلك القاسي من جديد، لتدمي قلبي وروحي..

فقدتُ بسببك الكثير، لكن في قلبي مازلتَ مليكه..

ضعيفةٌ أنا ربما، غبية!.. لكنني أحبك، و قصائد العشق التي تلقيها عينيك على قلبي كل يوم هي القوت الذي أقتات عليه لأحيا..

خبيثة، تافهة!.. ممكن، لكن ذلك الإدعاء الصغير هو ما يضمن لي قربك حبيبي..

لذا فها أنا هنا.. منذ سنتين، وبعد تمام شفائي، أتظاهر وأتظاهر.. وأنت تأتي ولا تمل أو تكل، وتظل تعدني بقصور الجنة وأنا أستمع إليك راسمة على وجهي نظرة بلهاء حائرة؛ في حين يطرب قلبي فرحًا بقربك ويحلق عاليًا على بساط عشقك.

***

صغيرتي المدللة..



سمعتهن اليوم.. ملائكة الرحمة في هذا المكان القميء يتهامسن عنَّا!..

ينظرن إليّ في دهشة، يتغيرن هن ويتبدلن وأنا كما أنا، وكل جديدة تسأل من سبقتها عن قصتنا، فتحكي لها.. لتنظر إليّ وتنهيدة حارة متحسرة تخرج من صدرها، ونظرة حسد تلقيها عليك!..

كن يستكثرن حبنا ونعيم عشقنا الصامت..

آه لو يعلمن ما كنت أنا!..

أو يعلمن من أوصلك لهذا السجن ذا اللونين الأبيض والأخضر زهرتي الجورية، همساتهن انتقلت لأذني قهرًا:

"أترين؟.. هذا العاشق يأتيها يوميًا، يقضي معها ساعة يحتضن كفها ويهمس في أذنها بقصائده"

تنهيدة من أخرى ثم همسة:

"محظوظة هي.. من منا تجد حبًا كذاك أو عاشقًا كهذا؟"

وثالثة بمصمصة شفاه:

"ما الذي فَعَلَتّهُ لتستحق حبًا مثله؟"



ورابعة حكيمة:

"ربما هو من فعل شيئًا يكفرعنه أمامها يوميًا"

وآه من تلك الحكيمة..

آلمتني.. أوجعتني، ورسمت صورة عذاباتك التي تفننتُ فيها يومًا ما لأقهركِ وأقهر نفسي وقلبي قبلك أمام عيني من جديد، وهمسة أخيرة لم أدرِ من مصدرها:

"أشعر بحسرة من صمتها، فتاة ملائكية وعاشق يكللهما رداء الحزن والصمت"

وياله من وجع بعد جملتها..

ألم ممض اخترق قلبي، دموع حارقة تسللت لجفني ولم أستطع منعها، لمحتك تنظرين إليها بقلق!..

رسمت ابتسامة على شفتي وأنا أربتُ على كفك المستكين بين يدي، حتى في غياب وعيكِ وسكونكِ كنتُ مثارقلقك وخوفك..

أَوْجَعْتِنِي "شهد" حتى بعد أن ألبستك رداء الحزن وكساء الصمت.



***

"وليد"..

ما بك اليوم طفلي؟..

لأول مرة ألمح دمعة تتسلل من بين جفونك!..

كحمم تحرقني هي أرجوك لا تفعلها ثانية.. تربت على كفي لأطمئن، كيف أطمئن وبك أنين حبسته بداخلك ليخرج على شكل دمعة!..

طمئني حبيبي.. لا تتركني للوعة التساؤلات والقلق، أتراك سمعتَ همساتهن؟..

لا تهتم يا طفلي، كلهن كذلك، يتبدلن وتبقى الهمسات كما هي.. فضولية مؤلمة قاتلة..

وددتُ لو مددتُ أصابعي لأمسح دمعتك الغادرة، لكن كنت سأفضح سري الصغيروالذي يبقيك بجانبي دومًا عاشقًا حنونًا رقيقًا..

أرجوك لا تبكي.. فقط بُثِّنِي أشعارك كما تفعل كل يوم ولا تجعل الألم يصيبك بالخرس.





***

ذكريات تتداعى داخل عقلي..

أجلس هنا في مقر عملي بشركات "السيوفي" للاستيراد والتصدير.. إحدى كبرى الشركات في سوق المال والأعمال.. الشركة التي كانت مناصفة بين أبي وعمي، حتى رحل الأب وبقي العم يحكم المكان..

بعدها استولى على كل ما امتلكه أخيه يوما.. أمواله، نصيبه من الشركة الضخمة، زوجته، وحتى ابنه الخاضع الضائع..

أنا!..

وبعد ذلك المداد من سنوات كللها الظلم بتاج الزهور الذابلة عدتُ لأصبح أنا المالك والمسيطر على كامل الشركة..

ها قد حققتُ انتقامي وامتلكتُ ما ضاع مني سابقًا.. لكنني فقط أضعتُ ما كنت أمتلك بالفعل، وما كان بالنسبة لي أغلى من عروش ممالك الذهب المفقودة..

أنتِ صغيرتي..



قطرة العسل الشهية، والطفلة الشقية التي أضفتُ لعمرها بما اقترفتْ يداي عمرًا آخر ضاعف من سنها حتى أوصلها لشيخوخة قلب صغير منهك.

***

أوحشتني اليوم "وليد".. تأخرت لساعتين كاملتين عن موعد زيارتك اليومية، أقلقتني حتى كدتُ أرفع سماعة هاتفي وأسأل عنك!..

لولا أن لمحتك قادما من بعيد، تحمل وردات بين يديك وعلى شفتيك ابتسامتي الأثيرة، والتي تحتفظ بها لي وحدي..

لا تتأخر ثانية حبيبي، ففي انتظارك وجع لا تدري قدره.. دنوتَ أكثر وكعادتك جذبت الكرسي المقابل لي وقربته مني لتجلس، التقطتَ يدي بيدك الدافئة ثم ناولتني الوردات المنمقة بيدك الأخرى وصوتك الحنون يداعب أذني:

"هذه لكِ صغيرتي"..

كنت أود أن أمنحك بسمة كتلك التي ارتسمت بقلبي، لكن حيرتي ومرضي هما سبب وجودك وبابتسامة مني تضيع وتتركني..





فكان الصمت هوردي..

***

حديث الذكريات مؤلمٌ جدًا صغيرتي..

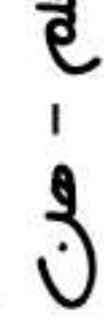
خاصة عندما تمتزج نبضات السعادة بصرخات الألم.. فلا تكاد تميز بينهما!..

أتذكريوم ولدتِ.. التوتر يغلف المكان والكل يتحرك كالنحلة.. أنا أقف إلى جوار والدي، طفلًا شقيًا في التاسعة.. لا أكاد أهدأ، حتى نهرني أبي والقلق يغزو ملامحه..

عمي يدور في المكان كأسد حبيس.. ثم فجأة تعالت صرخاتك وخرجت بك ممرضة جميلة، جرى الكل نحوها لكنها أوقفت سيل البشر المندفع بإشارة قائلة أنك ذاهبة إلى حضانة الأطفال!..

ولدتِ هشة وضعيفة معشوقتي..

احتجتِ أسبوعًا كاملًا في ذلك المكان على الرغم من ضجيجك المزعج.. بقيت أمك التي كانت هشة مثلك في غرفة العناية المركزة فقد أجهدها خروجك منها للغاية، وبعدها رَحَلتْ في صمت..



لم أفهم معنى الموت وقتها، فقط علمت أننا لن نراها مجددًا وأنك ستشبين بدونها.. يومها اتخذت قراري بأن أكون بديلًا عنها قدر استطاعتي.. يومها أعلنتك يا بريئة..

أميرتي المدللة..

***

آه يا "وليدي" عندما تخطو ذكريات الطفولة البريئة ببطء إلى عقلك!..

تحملك معها لعالم آخر.. عالم من النقاء والبساطة، عالم حيث الحب بعنف ووضوح والكره كذلك.. حيث اللونين الأبيض والأسود هما فقط الحاكمين.. لا منطقة رمادية يحيا وسطها الخبثاء والمنافقون.. وتتسلل منها أحاسيس شتى تثير حيرتك.

كنتَ من هؤلاء "وليد" بوجهك القمحي الطفولي، عينيك السوداوين وشعرك الناعم، ونظرات عينيك الحنون.. براءة لم يلوثها الزمن بريشة ألوانه الأخرى ليضيع جمالها ويمحو ملائكيتها..

في كل ذكريات طفولتي التي كانت سعيدة أجد ملامحك "وليدي".. بدلا من ملامح الأم والأب كذلك..



من يداعبني ويلاعبني ويضحكني..

من يشتري لي لعبي المفضلة ويلعب بها معي، من يهدهدني في بكائي ويربت على شعري برفق لأنام، بل ويغني لي ويحكي لي القصص..

من كنت أشعر معه بأنني أميرة حقيقية في زمن خلا من الأميرات..

***

بعد عودتك لمنزلك مع أبيك؛ قرر أن يتركك معنا لبعض الوقت، حتى يشتد عودك قليلا كما قال.. كانت أمي ترعاك كطفلتها بل وتهتم بك أكثر مني..

لا أنكر أنني شعرت بالغيرة بشدة، لكنها في يوم وبعدما لاحظت غضبي ونظراتي الحانقة التي وجهتها إليك في لفافتك، حملتك واقتربت مني مما أثار توجسي، أجلستني إلى جوارها وأمرتني:

- مُد يديك وليد..

بدت الدهشة على وجهي وأنا أتطلع إليها بلا فهم!..

حملتكِ هي بيد واحدة وبيدها الأخرى حركت يداي حتى وضعتهما مفتوحتين فوق ساقي وناولتني إياكِ برفق، قالت وقتها بحنان:

- ارعَها وليد.. لا أم لها وسنكون نحن عائلتها، هل يمكنك تحمل بعض المسئولية معي يا رجلي الصغير؟..

ولأنها والدتي، وتعرف مفاتيحي، وكلمتها دغدغت رجولتي الوليدة في أعماقي، رسمتُ الحزم على وجهي وأنا أجيبها بصوت طفولي خشن:

- نعم.. بالطبع أمي..

ومن يومها طفلتي، أصبحتُ أنا عالمك الصغير، بل والكبير أيضا..

وأصبحتِ أنت أميرتي المدللة ومليكتي..

كل ما يخصك هو شغلي الشاغل، وبكائك بمثابة أمر لي بتدليلك أكثر فأكثر.. آه يا حبيبتي، تلك ذكريات أود لو أستعيدها لساعة وأعيشها للحظات أخرى وأنت معي.

***

حبيبي.. أتذكر ذلك اليوم الذي أتممتُ فيه عامي الخامس، غريب أن أتذكر عاما بهذا البعد، وكنتُ فيه بهذا السن!..

لكن دومًا لذكرياتك معي عبق خاص لا يُمحَى من خلايا عقلي أبدا..





أكاد أتذكر ما كنت تفعله من أجلي وأنا مجرد رضيعة؛ فما بالك بعدما بدأت قصة عشقك بداخلي!..

نعم.. لا تستغرب بل وقبل الخمس سنوات!..

منذ كنت جنينًا في رحم أمي وصوتك المزعج يقلقني فأنهال عليها ركلًا وأستمع لتأوهاتها بنشوة علها تسكتك أيها الفوضوي.. لكنها كانت تسعد بركلاتي بشدة ولا أدري لم؟!..

يومها أهديتني دمية..

كنتُ أكره الدمى وتعلمُ ذلك، بدوتَ وقتها كأنك تغيظني فقط.. وأمام الجميع وبعنجهيتي المعتادة مزقتُها إربًا وأنا أنظر إليك بشماتة وأنت تبتسم بسخرية لا تليق بطفل في الرابعة عشر من عمره..

وقتها تأكدت أنك كنت فقط تعاندني بل وتأكد الجميع.. لذلك لم يطالني عقاب على فعلتي، لكن أنت نلت عقابي!..

فقد خاصمتُك أسبوعًا كاملًا، كنت أنا أتحرق فيه شوقًا للعب معك لكن عنادي يمنعني.. وأنت بكل قسوة لم تصالحني، ثم انتهى الأسبوع بهدية أخرى..



سيارة جميلة حمراء اللون ظلت معي حتى توجت بها مكتبة ألعابي في منزلك.

***

كنتِ دوما صبيانية "شهد"..

ملابسك، ألعابك، تسريحة شعرك الثائر، حتى صوتك.. دائما تحاولين جعله أكثر خشونة ليشبه صوتي وأنا فقط أضحك حتى الدمع..

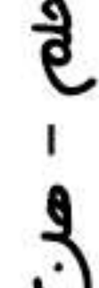
يومًا ما أغضبَكِ ضحكي فحملتِ حجرًا صغيرًا من حديقتكم وقذفتِني به..

لم أهتم، فكفكِ الصغيرة مهما فعلتْ لن تؤذيني!..

لكنني كنتُ مخطئًا، فالحجر أصاب رأسي.. بل وجرحني، وأمام عينيكِ سالت بعض دمائي مما أثار فزعك.. أقبلتِ نحوي بسرعة ولهفة وأنت تصرخين في هلع.. وقتها طمأنتكِ أنه لا شيء..

كنت أصر أنه ليس خطأك لكنه فقط قدري وغبائي لأنني لم أحاول تفاديه..

عوقبتِ أنت بالحرمان من اللعب ليومين معي.. لكنهم لم يعلموا أن هذه عقوبة لي أيضًا..



أما أنا فقررتُ معاقبتك بطريقتي الخاصة!..

في ذكرى ميلادك التالية، كانت الخامسة، أهديتك دمية!..

عروس جميلة تضحك عندما تضغطينها بألوان زاهية طفولية.. وما كان رد فعلك صغيرتي!..

بمجرد أن رأيتِها، بكفيك الصغيرتين مزقتِها إربًا قدر استطاعتك وأنت تنظرين إليّ وأنا أبتسم في سخرية.. كنت أعلم أنكِ ستعاقبين مجددًا لأنكِ مزقتِ هديتي لكن كان العقاب يومها من نصيبي..

فقد أجبرني أبي على مخاصمتك!..

وبعدها بأسبوعٍ لم أجد بدًا من المصالحة بهدية أخرى من ألعابك الخشنة التي تناسب الذكور أكثر منك طفلتي..

سعادتك التي انحفرت في ذاكرتي يومها كانت كافية لأنسى محاولاتي لمضايقتك بعدها.. فعندما تبتسمين تشرق شمسي وتغمرني بدفئها، ومن ذا الذي لا يعشق شروق الشمس.





(٢)

بعض ذكرياتنا "وليد" تحمل لنا في حناياها نبضة قلب مختلفة..

ربما نبضت لأول مرة حينها، ومنذ ذلك الوقت وهي عالقة بين أجفاننا ولا تضيع صورتها أبدًا..

عندما كنت في السادسة؛ كانت تلك الذكرى، وتلك النبضة.. متفردة هي كألماسة سوداء نادرة وغالية للغاية.. هل تذكرها معي حبيبي؟..

عندما أصر والدي على تعليمي السباحة، كنتُ أجبن من مجرد التفكير في الأمر، تعالى بكائي وبدأت في الصراخ، انهمرت دموعي بشدة؛ حتى خرجت أنت فجأة من المسبح تاركًا هوايتك الأثيرة فقط لتكون إلى جواري..

جففت نفسك ووقفت أمامي مادًا يديك لأترك أنا الجميع وأختفي بين ذراعيك، باكية.. حزينة.. قلقة وخائفة، ثم أتت همستك لتعيدني لبر الأمان وتهدئ من روعي:

- لا تخافي شهد.. أنا معك، ولن أتركك أبدًا..



وثقت بك.. ومنذ تلك اللحظة وأنا أفعل..

ومن يومها وأنا أسبح كسمكة تسكن المحيط منذ ولادتها، لأنك فقط..

رافقتني..

***

علمتك السباحة صغيرتي عندما كنتِ في السادسة.. وأنا الوحيد الذي استطاع إقناعك بالاقتراب من الماء.. هتف بي عمي وقتها:

- وليد.. شهد ترفض النزول للماء، لم لا تحاول مساعدتها؟

تركتُ ما كنت أفعله.. كنتُ أتسابق مع صديق لي، لكن عندما ذُكِر اسمك، وحاجتك إليّ: تركتُ ما بيدي وفي لحظة وقفت أمامك لأجدك باكية بين ذراعي طفلتي.. ترفضين تعلم السباحة أو حتى لمس الماء!..

وعدتك بأنني سأكون إلى جوارك ولن أترك أي شيء يؤذيك.. صدقتِني، وأتيتِ معي..

طوال الوقت أحملك على ظهري وتطوقين عنقي بذراعيك الصغيرتين في خوف، وبعد لحظات حملتك أمامي وأنت تضربين الماء بكفيك في سعادة..



نعم "شهد".. في غضون دقائق ولأنني معك، تعلمتِ، وانقلبت مشاعرك للنقيض، كم كان يبهجني ذلك ويثير في نفسي شيئًا من الغرور بأميرتي المدللة.

***

"وليد"..

أتذكر أول هدية أهديتك إياها؟..

كنتُ في السابعة حينئذ، وأنت شابًا يافعًا وسيمًا.. أشعر أمامك كأنك عملاق طويل وأنا قزم صغير.. أخجل منك بشدة..

يومها طلبتُ من والدي أن يأتيني بك في الحال، ولأنني أميرته فقد لبَّى هو ولبيت أنت طلبي في ثوان.. لعبتُ يومها ومرحتُ كثيرًا وحان وقت الهدية.. لم أدرِ كيف أقدمها لك أو أقنعك بمشاركتي العمل عليها!..

ببساطة طلبتُ منك وببساطة أكبر وبدون أن تفهم أطعتني كما تفعل دومًا، بعدما انتهيت رحلتْ وأنا خلفك راكضة ألاحق خطوات ساقيك الطويلتين بصعوبة لأهديك إياها..



تلك الابتسامة الحلوة التي ارتسمت على شفتيك عندما ناولتك أزهاري وسيارتي المفضلة أخْجَلَتْنِي أكثر.. وقبلتك الصغيرة على وجنتي أذابتني خجلًا..

يومها آذيت نفسي وأنا أركض من أمامك، يومها أحببتك أكثر وأنا أرى اللهفة في عينيك والقلق يغزو ملامحك لجرحي الصغير..

أعدتُ لك قبلتك الرقيقة في خجل أكبر ثم انطلقت هاربة وعيناك تلاحقني وعلى شفتيك ابتسامة حب..

***

عندما كنتِ في السابعة من عمرك، كنتِ فاتنة "شهد"..

بريئة، ملائكية الطلة.. بجديلتين قصيرتين في لون الكستناء وغمازتين مشهيتين، لمعة عينيك بلون العسل في ضوء الشمس، وابتسامتك تنفرج عن سِنٍّ مفقودة زادتكِ براءة..

كنتُ أكبرك بتسع سنوات..



فارقًا جعلني في عمق مراهقتي بينما أنت في بِرْكَة طفولتك تسبحين.. تحبين لعبي معك ومشاغبتي لك، تجبرين العم أن يأخذني من بين كتبي لآتي راكضًا لمنزلك المجاور لمنزلي، يمازحني:

- هيا وليد العب مع شهد.. أميرتنا أمرت أيها الفارس..

وكنت أستجيب لأميرتي الصغيرة، أحملها وألفُ بها فتصل ضحكتها للغيوم، تمحو رماديتها وتحولها لسحب قطنية في قصة أطفال..

كنتِ تعشقين السيارات، وألعابك كلها صبيانية غريبة.. يومها أحضرتِ سيارة كبيرة وأمرتِني:

- هيا وليد لنملأها بالزهور من حديقتنا..

لم أفهم سر طلبك وقتها!..

لكن عندما عدتُ لمنزلي ووجدتك تلحقين بي بسرعة محاولة لف شريطة ملونة رقيقة على اللعبة المحملة بالأزهار فهمت..

كانت هديتك الأولى لي..



تناولتها منك بسعادة وطبعت قبلة على وجنتك، ضحكتُ بعدها بشدة وأنا أرى احمرار وجهك خجلًا طفلتي.. انطلقتِ تركضين وخجلك يتضاعف وأنا أقف حاملًا هديتك متطلعا إليك..

التفتِ إليّ بسرعة لأبتسم لك وفي اللحظة التالية كنت على الأرض متعثرة في أحد قراميد رصيف الحديقة..

هُرعت نحوك وقلبي ينتفض لهفة..

آذيت ركبتك وقدمك، سالت دماؤك وكنت تبكين في صمت.. كما اعتدتُ منكِ صغيرتي.. كل ألمك وحزنك ودموعك في سكون..

حملتك بين يدي وعدت مسرعًا لمنزلي، وضعتكِ على أريكتي المفضلة وربتُّ على رأسك بحنان.. ثم انطلقت لأبحث عن شيء أُسعفُكِ به، وبعدما انتهيت من ربط ضمادة ركبتك ورفعت رأسي إليك، رأيت ابتسامتك اللطيفة الخجول..

بسرعة طبعتِ قبلة على وجنتي وانطلقت خارجة من المنزل وعيناي تتابعك في وَجْد انحفر بداخلي حتى هذه اللحظة.

***



أكره العودة بالزمن.. أمقتُ استعادة الذكريات..

فكل ذكرى نسجْتِهَا في عقلك مؤخرًا؛ محتْ باحتراف ذكريات البراءة ولمحات العشق القديم.. زرعَتْ مكانها أشجار الوجع لتمتد جذورها حتى البداية مبعثرة سمومها في تربة قلبك الصغير..

ومع ذلك في أحايين كثيرة ترتسم على شفتي ابتسامة حنين عندما يطوف بعضها بخيالي، فأستمتع بطيفها وأحلق معها مستعيدًا بعض نبض كان قد تاه مني في زخمة قسوة تغلغلت في الشغاف حتى فتكت بها..

دومًا كنتِ طفلة صغيرتي.. حتى بعد العشرين واكتمال أنوثتك ظللتِ طفلة.. بريئة، شقية، تبثين عطفك على الجميع..

وأنت ابنة الثمان من العمر كنتِ منطلقة بشدة، ومعي كنت أشعر أنك مختلفة، تتصرفين كالكبار أحيانًا.. وأحيانًا أخرى كطفلة مدللة متملكة مغرورة..

كان الشتاء قد حل والبرودة القارصة بدأت تتسرب للعظام.. وبدأ العام الدراسي، عامك الثالث في مدرستك الصغيرة الراقية، وعامي الأول في جامعتي..



صممتِ أول يوم أن أصحبك بنفسي دون والدك أو والدي أو حتى والدتي، وأمام زميلاتك عرفتني بكل غرور وتملك يطغى على صوتك الطفولي الحاد..

"وليد، خاطبي"

يومها لم أتمالك نفسي، فقط حبست ضحكاتي حتى ابتعدت عنكِ، لأنني لو أطلقتها أمامك طفلتي لكنتُ جثة هامدة بعدها بلحظات.. نعم أعلم جموحك وبراءتك المختلطة بشيء من نزعة السيطرة على الرغم من سنوات عمرك القليلة..

ضحكت زميلاتك كثيرًا وكن يعلمن أن هذا سيغيظك، ولأنني أعلم بركان غضبك جيدًا عندما يبدأ في الثورة وصب حممه فقد وضعت ذراعي حول كتفيك وانحنيت مقبلا رأسك بحنان قائلًا في حب لم يكن مصطنعًا بالتأكيد:

- حسنًا مخطوبتي.. ها قد أوصلتك لمدرستك كما أمرتِ أميرتي المدللة، سأعود للمنزل الآن وعند موعد انصرافك ستجدينني بالانتظار طوع أمرك..

ثم انطلقت مبتعدا مفرغًا ضحكاتي التي كادت تحبس أنفاسي بصدري والذهول مرتسم على وجه صديقاتك الصغيرات ممتزجًا بالزهوو التفاخر على وجهك مليكتي..

***

يومها أخبرتهن بأنني أقتني صك ملكيتي لك.. أنت خاطبي، وستكون زوجي!..

سخرن مني.. لكنك قبلت رأسي وودعتني مناديًا إياي بمخطوبتي وأميرتي، علت الصدمة وجوههن فكانت مدعاة لفخري و ماءً يرتوي به غروري.. بعد ذهابك أقبلن يسألنني بلهفة:

"من هو؟"

"كيف تعرفت عليه؟"

"إنه رائع"

"أليس كبيرًا بعض الشيء شهد"

"بل كبير كثيرًا"



"ربما.. لكن مع الحب، لا قلق بشأن العمر"

"لقد نادها أميرتي.. كان هذا رومانسيًا"

"أحسدك شهد"

وبلهفتهن زاد فخري ونبتت زهرة غروري يانعة.. وكأنني لم أكن معهن، تركتهن في خضم تساؤلاتهن وانصرفت أحلق في خيالي معك..

كنتُ مغتاظة منك للغاية وبعد انتهاء اليوم وجدتك بانتظاري، حان وقت إفراغ غضبي في وجهك عزيزي..

كانت الابتسامة تملأ وجهك وتزيدك وسامة فخفتت حدة غضبي فجأة لأبادلك إياها.. مددت يدك إلي فلم أناولك يدي، ستستشعر الآن غضبي وتحاول استرضائي كما اعتدت منك..

نظراتك المندهشة وعدم الفهم المرتسم على ملامحك أسعداني، فها أنا على الرغم من فارق السن بيننا أسبب لك الارتباك، سألتني يومها في قلق:

- شهد!.. ما بك؟.. هل أغضبتكِ في شيء؟..

سرتُ أمامك لعدة خطوات ثم عدتُ ألتفت إليك وأقترب منك، كان ردي حانقًا غاضبًا وقتها:



- إياك أن تقبلني ثانية أو تحيطني بذراعك وليد.. نحن لم نتزوج بعد لتفعل ذلك، مازلنا في مرحلة الخطبة..

والدهشة بعدها على ملامحك أصبحت تقاس بالوزن، كدت تضحك مني يومها وتبدي سخريتك.. كيف لطفلة صغيرة مجنونة مثلي أن تخطبك وتمنعك من لمسها بل وتتشاجر معك لأجل ذلك؟..

كنت منتشيه للغاية بتسلطي وتعنيفي لك، مبتهجة بصمتك وتطلعك المذهول لي، تقدمت إلى السيارة وجلست في انتظارك وأنت تنظر إلي وابتسامة ساحرة تعلو شفتيك..

تلك الابتسامة لا تزال محفورة بذاكرتي حتى اليوم "وليدي"..

***

صراخك في وجهي نفض قلبي بعنف يومها "شهد"..

كأنني أخطأت وارتكبت جرمًا بالفعل.. بعدها كان قراري أنكِ أنثاي، أنكِ ثمرة لم تنضج بعد ولا يصح لمسها، بل لا يجوز النظر إليها حتى يحين وقت قطافها..



ثماني سنوات صغيرتي وأنا الشاب اليافع كنتُ أمامكِ كطفل اعترف بذنبه في سكون.. ابتسامتي كانت انعكاسًا بسيطًا لمشاعري وقتها، وانعكاسا لمستقبل تمنيته معك.

***

أتعلم "وليدي"؟!..

بعضنا إن لم يكن جميعنا لا نشعر بمدى أهمية بعض الأشخاص أو الأشياء في عالمنا إلا بعد فقدها..

عندما أمرتك بعدم لمسي، كنت أشعر بأنني بالفعل مخطوبتك، كبيرة بما يكفي لأمنعك، لست طفلة أنا ومن يعتقد أنني كذلك كان فقط يثير جنوني وينمي بداخلي حنقي تجاهه..

حتى بدأتُ ألاحظ ابتعادك، لم تعد تزورني كثيرًا لتلعب معي كالمعتاد، أو حتى توصلني لمدرستي وتركت المهمة لسائق أبي أو أبي بنفسه..

كنت مغتاظة غاضبة على الدوام، وحزينة للغاية.. ترى هل أغضبتك؟!..

لمَ لم تعد تهتم بي وباحتياجاتي كما عودتني؟!..



وقبل مرور الشهر رأيتك تقف معها، تلك الملونة الشمطاء وهي تنظر إليك في دلال وأنت تبتسم لها..

هذه ابتسامتي.. كيف تمنحها لغيري؟!..

أمرت السائق بسرعة أن يوقف السيارة وترجلت منها بجنون قبل أن تتوقف تمامًا، وفي لحظة كنت أقف أمامكما، منحتني ابتسامة صغيرة ولم تحاول لمسي فقط قلت:

- أهلا صغيرتي، كيف حالك؟..

لم أكن لأهتم بالرد على سؤالك وأنا أتأمل تلك الطويلة الفاتنة التي تحادثك، بالكاد أصل أنا أسفل كتفيها بمسافة على الرغم من أنني لست قصيرة القامة أبدًا..

تأملتها ببطء وهي تتطلع إليّ بدهشة بدت توأمتها تتجسد على ملامحك وأنت تراقبني بحذر.. كنتَ تخشى جنوني، نعم أعلم.. وأنا كنتُ واقفة أمامكما على استعداد لتفجير بركانه لأحرقكما بحممه في لحظة، التفت إليك لأهتف في غضب:

- أهذه من شغلتك عني؟..



تعاظمت الدهشة على وجهيكما، فعدت أصرخ وأنا أضرب بقدمي الأرض الأسفلتية أمام منزلك:

- لمَ لا ترد؟.. من هذه الملونة؟

وجدتها تبتسم ابتسامة بلهاء فوددت لو ألكم فكها وأكسر أسنانها الجميلة ناصعة البياض.. أما أنت فقد انحنيت لتجلس على ركبتيك أمامي هاتفًا في عدم فهم:

- شهد!!.. ما بك صغيرتي؟.. هذه سما زميلتي في الجامعة، لمَ لا تتأدبين قليلًا؟..

كانت الصدمة على ملامحي هذه المرة..

أتأدب؟..

كيف تجرؤ؟.. هل تعنفني من أجلها؟..

كانت هذه هي أولى ملامح الغيرة مني، تركتك وهرولتُ نحو منزلي المجاور لمنزلك، وأمام بوابته توقفت للحظات، اِلتَّفتُ أنظر إليك في حنق لتلتقي عيناي بعينيك، وابتسامتك تمحوها غضبي في لحظة..

بدوتَ لثوان كأنك تضع إمضاءك على ورقة بيضاء لأكتب فيها أنا ما أريد..

صفحة أملأها بقصائد عشقك لأقرأها كل يوم على وسادتي بدلا من قصص الأطفال والأمير المسحور..

فأنت وفقط أنت.. أمير قلبي..

***

أتغارين صغيرتي؟!..

بدوتِ مضحكة للغاية وأنتِ تقفين أمامها تصرخين في وجهي وتتأملينها ببطء أنثى ناضجة رأت من هي أجمل منها فكان وقت النزال ومصارعة الأعين..

كنتِ طفلة لكنكِ كنت مليكتي.. آه لو تعلمين حبيبتي؟..

من هي لأفكر بها وأتركك أنت؟..

ألا تعلمين أنك تستحوذين على خلايا عقلي خلية خلية، ونبضات قلبي هي من ممتلكاتك نبضة نبضة.. أنثى كاملة أنت في ثوب طفلة بجدائل كستنائية شقية..

شعرتُ للحظة أنك ستجذبينها من شعرها لتمرغين وجهها في التراب أسفل قدميك، بدتْ هي في حالة صدمة وأنا أبتسم في سعادة..

لكنك تماديتِ قليلًا صغيرتي فوجب إيقاف تمردك للحظة..

أنبتك بكلمة بسيطة فانسحبتِ غاضبة.. كنت أعلم أنك ستبكين لاحقًا، وكنت أعلم أنني سأصالحك.. لكني كنت مبتهجا بشدة كطفل صغير.



(٣)

كثيرًا ما كنتُ أتمنى إيقاف عقارب الساعة وإعادتها للوراء..

ربما لزمن كنتُ فيه طفلتك.. أميرتك.. مليكتك، ربما لوقت كنتَ أنتَ فيه عاشقًا مخلصًا حنونًا.. في طفولتنا، أو حتى مراهقتنا..

ربما قبل حادثة والدك التي قلبت حياتينا رأسًا على عقب ودمرت شيئًا ما بداخلك بكل قسوة وعنف..

أتعلم أنه على الرغم من حبي لوالدي، ورغبتي في سعادته؛ كنت أنت دومًا تحمل رقم واحد، وصفة الأول في حياتي..

سعادتك هي ترياق همومي، وألمك قواطع حادة تذبح قلبي ببطء..

ها أنا أبتسم، كل لحظة معك نُقِشَت بحبر الوشم داخل ثنايا عقلي.. لا يمكن إزالتها إلا والألم يصول ويجول بداخلي، فأكتفي بالاحتفاظ بها لأن محاولة محوها أكثر إيلامًا وأشد قساوة.. لتتمكن هي مني أكثر وتثير الوجع بين جوانحي في كل لحظة.





***

أميرتي..

دومًا الحزن يقتل شيئًا فينا.. شيئا أغلى ربما من الحياة نفسها لكننا على الرغم منا تبقى صدورنا تحتفظ بأكسجينها وقلوبنا تضخ دمائها.. وفي لحظة تومض ذكرى حلوة لترتسم ابتسامة كسيرة على شفاه اعتادت التهدل لأسفل في وجع..

روعتك وبراءتك كانت هي دومًا صاحبة تلك البسمة على شفاهي..

طيبة قلبك الصغير وحنانك آسرة لتلك النبضة التي تتفلت من قلبي فجأة لتعلن عن تجدد حبي وعشقي لك يومًا بعد يوم..

مالكة لتلك اللمعة التي تظهر في عيني عند مرورك على صفحة ذهني الممتلئة بالسواد..

أتذكرين "شهد"؟..

ذكرياتنا كثيرة.. أغلبها مؤلم بل وقاتل، لكن بعضها يستحق التذكر، يستأهل الاحتفاظ به في أعماق كل خلية في أجسادنا ليبقى دومًا سلطانًا عليها..



في عمر التاسعة، كنت تغارين أكثر.. وأنا ابتهاجي بذلك لا حد له، ولا مثيل لمقداره بداخلي .. طفلتي أنت..

عمري ضعف عمرك لكن قلبك أضعاف أضعاف قلبي الصغير دومًا بين أصابعك، وأنا كنت أبادلك غيرة بغيرة!..

ابن خالتك!..

ذلك الفتى المتزلف الأحمق، الذي ظن أنه ولي أمرك، وأنك ستكونين له يومًا..

كان يصغرني بثلاثة أعوام، ويرى أنه الأفضل بل والأنسب لكِ.. أتذكرُ عندما أصرت خالتك أن تقيمي معها، قالت بالحرف تحادث عمي في حزم:

- نحن أولى بابنة أختي عبد الله.. كيف ستعيش معك وأنت وحدك؟.. من سيرعاها؟.. وحتى زوجة أخيك لن تظل مسئولة عنها للأبد، دعها تأتي لتستقر معنا وعندما تكبر بما يكفي تقرر أستعود لتحيا معك أم تستمر في حياتها معنا..

كان العم غاضبًا لأقصى درجة.. هتف فيها بعصبية:



- ما الذي تقولينه رقية؟.. هل تريدين مني ترك طفلتي لك؟.. وماذا عن ابنك؟.. هل ستعيش معه؟.. طفلتي لن تغادر منزلي وأنا فقط من سيرعاها ولا يهمني كم سيكلفني ذلك من طاقة أو عناء..

تماسكت هي أكثر.. كنت أتطلع إليها بدهشة!..

تبدو قوية حازمة على الرغم من أنني أنا الرجل الشاب أتطلع إلى عمي بنوعٍ من الرهبة.. ورثتُ عنه ومنه الكثير، وأكثر ما كان لي منه نصيب هو صرامته وصوته الهادر المخيف حين الغضب.. ربما عيناي كذلك لكنني دومًا تميزت بالقسوة..

سمعتها تقول ما زلزلني من الأعماق وكدت وقتها أقبض على عنقها عاصرًا إياها حتى تنتهي أنفاسها:

- حينما يحين الوقت عبد الله ستكون شهد زوجة لولدي.. لا تقلق، سأرعاها لآخر لحظة..

كيف جرؤتْ على التفوه بتلك الأحرف مجتمعة؟!..

ألا تعلم أنكِ لي أنا؟!..



من ولدها هذا؟.. ذلك المنمق الوسيم الصغير المدلل!.. الذي لم يعبر مرحلة الطفولة بعد على الرغم من كونه يكاد يماثلني طولًا؟..

من تظن نفسها ومن يظن ذلك الصغير نفسه؟.. نهضتُ وقتها من مقعدي فجأة واقتربت منها قائلًا في صرامة وعصبية أنستني حدود اللياقة والتعامل مع الكبار:

- من تتزوج من؟.. شهد لي أنا ومن يحاول الاقتراب منها أول ما سيراه بعدها هو تراب القبر وحساب الملكين..

كلاهما تطلع إلي في ذهول وقتها.. أكان كلامي صادمًا لهذه الدرجة؟..

هل بدوتُ مخيفًا أو مرعبًا أو ربما شيطانيًا؟..

كانت ملامح العم تكاد تحمل ابتسامة أما ملامح خالتك فكان بعض الرعب يكسوها والذي لم يلبث أن تحول لغضب وهي تهتف في وجهي بحزم:

- كيف جرؤت وليد على التحدث إلي بهذا الشكل أو التحدث عن ابني وتهديدي هكذا؟.. لقد جننت حتما، أتظن نفسك وصيًا عليها؟



للحظة شعرتُ أن ملامحي تكتسي بالنيران وأنها ستمسك في جسدها لا تتركه إلا وقد فارقت الحياة.. اقتربتُ منها أكثر وبصوتي الخافت الصارم همست:

- نعم أنا مجنون في كل ما يخصها خالتي.. لذلك لا تفكري فيها أنتِ أو صغيرك المدلل بهذا الشكل أبدًا.. وهي لن تترك هذا المنزل ما حييت أنا..

قذفتُ بقنابلي وهربتُ تاركا إياها تنفجر في وجهيهما..

العم بدا سعيدًا.. أكاد أجزم أني لمحت ابتسامته وأنا ألتفت بسرعة مغادرًا المكان، وهي أعتقد كنت لأكون جثة لو كانت عيناها تطلق سهامًا أو رصاصًا قاتلًا..

لكنني فقط كنت أطير فرحًا وأنا أثبت حقوق ملكيتي لك أمام الجميع بصراحة وجنون ولأول مرة.

***

كنتُ أراقبك بصمت.. بسعادة، أكاد أقفز من الطابق العلوي لأتعلق بعنقك..

"وليدي" لقد اعترفتَ أنني لك!..



كما جزمتُ بها أنا منذ زمن..

خالتي المسكينة!.. ظلتْ تتطلع إلى الباب الذي خرجتَ منه لدقيقة أو ربما يزيد ثم عادت تلتفت لأبي هاتفة في صدمة:

- عبد الله، أسمعت هذا؟.. تلك الفتاة ليست آمنة هنا؟.. الفتى مجنون ماذا لو آذاها؟

وجدتُ ابتسامة تعلو شفتي أبي فاستكان قلبي.. كان رده قاطعًا:

- هو فقط عاشق رقية.. لا تقلقي، صغيرتي بأمان وخاصة لأنه هو هنا..

التقطتُ كلماته وعدت لغرفتي آمنة مطمئنة، وابتسامة حب تعلو شفتي..

ربما كنتُ فقط مجرد طفلة، لكن قلبي كان كقلب أنثى مكتملة وقد تشبع بالعشق..

***

وأيام أخرى تمر أميرتي، عشقي لك في نمو مستمر بدون حتى قطرة ماء، فقط رؤياك تحييه وتزيده يوما بعد يوم..

وغيرتي عليك تكاد تقتلني في كل لحظة!..



ها أنت الآن في الحادية عشرة.. جميلة، على عتبات الأنوثة، شعرك الثائر دومًا يثير الخيال، وتلك الشفاه الرطبة عندما تنفرج في ابتسامة تزلزل قلبي في كل مرة..

عيناك ورحيق العسل الذي يصب فيهما صبًّا، وصوتك الذي بدأت تختفي حدته تدريجيا ليكتسب نعومة الأنثى..

أما غيرتك أنت فلي أن أتحدث عنها ولا حرج.. كم كانت تسعدني وتشعرني بالنشوة.. بل تشعرني برجولتي، بالزهو والغرور، لأنها صادرة منك أنت طفلتي..

قد أبتسم الآن متذكرًا ذلك اليوم في جامعتي.. عندما كنت أتحدث أمامها مع بعض زملائي، ورحلوا لتبقى معي غريمة طفولتك "سما".. كانت تحادثني في أمر لم أنتبه له جيدًا فقد كنت متعجلًا أريد الرحيل لأشبع عيني منك..

نعم كنت أعجبها أو فلنقل كانت تحبني، لكنها لم تكن تعلم أن قلبي من ممتلكات أخرى مازالت تخطو أولى خطواتها بعيدًا عن مهد الطفولة.. فجأة وبدون مقدمات وجدتُكِ حائلًا بيني وبينه... عيناك تشتعلان



بالنيران وشفتيك مزمومتان في غضب.. ابتسمتُ لك، ابتسامة أنت فقط تعلمين معناها، همستُ برفق:

- مرحبا شهد.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

بصوت خرج من بين أسنانك التي كادت تتكسر بسبب ضغطك عليها:

- كنتُ مارة من هنا، وقررت أن آتي إليك لنعود للمنزل سويا.. أخبرتني أن محاضراتك ستنتهي في موعد عودتي اليوم، ما رأيك؟!

ظلت ابتسامة عشقي تكلل شفتي.. كان ردي:

- بالطبع.. فلنعد معًا..

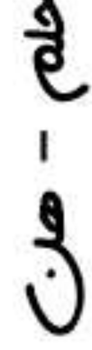
ثم رفعتُ عيني لزميلتي بابتسامة هزيلة قائلًا:

- عذرًا سما سأعود مع شهد الآن.. لنتحدث لاحقا..

مع ابتسامة انتصار ونظرة ظافرة سرتِ إلى جواري وأنت تؤكدين أن صك ملكيتي ما زال وسيظل أبدًا بحوزتك أنتِ صغيرتي..

***

لم أكن أتعمد أبدًا "شهد" إثارة غيرتك.. لكنكِ كنت تفعلين، ومع من؟..



أكثر من كنت أعلم أنه وأمه ينتظرون إشارة من والدك لتملكك، ابن خالتك السخيف "كريم".. ذلك الفتى الرقيع الذي يماثلني طولًا على الرغم من فارق السن بيننا..

كان وسيمًا أعلم..

يحبك!.. أبله من لا يرى ذلك..

كنتِ طفلة مشاغبة مثيرة للجنون وجنونك استحوذ على قلوب الكثيرين، بعد حادثة "سما" بأشهر قليلة جئت لمنزلك لأراك.. كنتُ سعيدًا للغاية فنتيجة تعب العام كله قد ظهرت وكُلِّلَت بالنجاح، بقي عام واحد طفلتي لأتخرج وأعمل مع والدي وعمي وبعدها فقط بأعوام أخرى ستكون هي الأطول تصبحين زوجتي..

وهنا رأيتكِ.. تقفين معه على عتبة المنزل، تبتسمين في سعادة بل وتضحكين في مرح، والتافه تمتلئ عيناه بالعشق!..

كيف واتتكِ الجرأة لتفعلي ذلك؟.. في لحظات كنت أمامكما محاولا التماسك قدر استطاعتي، انقلبت ابتسامتك لقليل من التوجس والرهبة في حين بدا عليه هو الضيق والغضب، هتفت فيك حانقًا:



- ماذا تفعلين بوقوفك هكذا شهد؟.. يمكنكما الحديث بالداخل إن أردتما لكن ليس أمام الجميع بهذا الشكل الفج..

عقدتِ حاجبيك في غضب طفلتي.. كان ردك باردًا على الرغمِ من توجسك:

- وما دخلك وليد؟.. لم أمنعك من اصطحاب صديقاتك أو الوقوف معهن أمام منزلك.. وكريم ليس صديقي، إنه ابن خالتي العزيزة.. والكل يعلم ذلك..

وتدخل الأحمق جانيًا على نفسه:

- أنت يا هذا لمَ لا تحتفظ برأيك لنفسك!.. لستَ وليّ أمرها..

التفتُ أنا إليه بغضب وما أتذكره بعدها أن قميصه كان في قبضتي في حين تعانق قبضتي الأخرى أنفه ثم تنتقل لفكه فمعدته ليسقط عند قدمي أرضًا متأوهًا والدم يغمروجهه..

لم ألتفت إليه للحظة.. فقط كانت أصابعك الصغيرة بين أصابعي أكاد أحطمها وأنا أجرك جرًا إلى منزلك وأدفعك داخله بعنف حريصًا ألا تكون

دفعتي من القوة بحيث تؤذيك أو تسقطك أرضًا، ثم انطلقت كإعصار مغادرًا المكان وأنا أهتف في حزم غاضب بوجهه:

- إياك أن تفكر فيها يا فتى، أو تتحدث معي بهذه الطريقة مرة أخرى.. أو دعني أخبرك شيئًا أفضل؛ لا تُرني وجهك مجددًا..

وغادرت المكان كثور هائج دافعًا بقدمي كل ما صادفَتْه في طريقها..

***

يومها "وليدي" كدت أموت فزعًا ورعبًا، كاد يتوقف قلبي قلقًا وخوفًا عليك..

أتصدق أنني لم أهتم لأمر "كريم" ومدى الإيذاء الذي يمكن أن تلحقه به!..

فقط كنت مرتعبة أن تتمادى وتؤذيه بشدة فينقلب الأمر عليك أنت..

سعيدة أنا؟..

نعم بل وأكاد أطير من السعادة..

دفعتني للداخل فانطلقت للنافذة أطل منها لأرى ما ستفعله، وجدتك تقف أمامه صارخًا بكلمات لم أتبينها ثم خرجتَ من المكان كعاصفة تطيح بكل شيء أمامها، تنهدتُ بارتياح وعدتُ لغرفتي أفكر بك وأحلق معك في سماء أحلامي غير عابئة بالصغير النازف أمام بابي.

***

في نفس اليوم ليلًا أتت خالتك..

ثائرة، هائجة، لن أترك حق ابني، وستكون عقوبتك وخيمة "وليد"..

ابتسمت عندما رأيته، لكمتين فقط وتَشَوَه وجهه الفاتن، يالا البائس الصغير..

اختبأتِ أنتِ في حجرتك وجلستْ هي مع والدي وعمي وأمي بحضوري أنا والمدلل.. كان ينظر إلي بغضب قابلته بلا مبالاة وابتسامة ساخرة تزين شفتي..

في صفي كان الجميع حتى والدك، عمي، ولم أدري لمَ؟..





فقط والدي أنا نهرني بعض الشيء واعتذر منها ومنه، طلب مني الاعتذار فهببت واقفًا بعنف جعله ينتفض في مقعده، واتسعت ابتسامتي الساخرة، اتجهتُ نحوه وانحنيتُ قليلًا هامسًا:

- لا تقربها ثانية.. ويمكنني أن أضمن لك ألا أؤذيك..

تركته يحدق في بصدمة وغادرت المكان..

كان الفتى يمتلك مقدارًا رائعًا من الجبن منعه عنك بالفعل وكم أراحني هذا.. حتى رآك صديقي عندنا في منزلي، وجدته فجأة يتطلع إليك وإلى جسدك الصغير، كنتِ مجرد طفلة لكنه فقط فتى أرعن لا يعلم ما هو مقدم عليه!..

أطلق صفيرًا خافتًا وأشار إليك بطريقة فجة هامسًا لي ولم أكن قد رأيتك بعد:

- من تلك الفاتنة الصغيرة وليد؟

عقدتُ حاجبي في دهشة و أنا ألتفت خلفي لأجدك!.. بعدها تفجر بركان الغضب بداخلي ثانية وانهمرت حممه من عيني وأنا أدير وجهه نحوي بقسوة هاتفًا:



- وما شأنك بها؟.. إنها مجرد طفلة..

عاد يعاندني بهمسه وهو ينظر نحوك ثانية:

- طفلة؟.. حقا؟.. كم عمرها بالضبط؟.. وحتى إن كانت صغيرة؛ فبعد عامين أو ثلاثة ستصبح أنثى مكتملة النضوج..

لم أدرِ ما حدث بعدها لكنني كنت أدفعه خارج منزلي بعنف، وقطعتُ علاقتي به نهائيًا بعدها والوغد لم يفهم لمَ!..

يومها أنت أيضا لم تفهمي سر غضبي وأنت تقفين أمامي وأنا أصرخ في وجهك:

- لا تخرجي هكذا ثانية شهد.. عودي لمنزلك، لم تعودي طفلة..

تطلعت لنفسك يومها في دهشة ولمحت لؤلؤة تسقط من عينيك وأنت تهرولين من أمامي في حزن..

***

آذيتني يومها "وليد"..

كنت آتية إليك أرغب في استشارتك في أمر ما يخصني ويهمني رأيك فيه بشدة، لكنك فقط أحبطتني وأخفتني وتركتني أهرب من أمامك باكية في سرعة..

أحيانا تكون غيرتك قاسية "وليدي"..

دومًا أبرر لنفسي ذلك بأنك تعشقني، وكلمة عشق عندما تذكر مع اسمك في جملة واحدة كانت تنسيني هموم العالم وجُل مآسيه..

قررتُ أن ألغي أمر استشارتي وأنفذ ما أراه صحيحا وأفاجئك به فأنت لم تمنحني الفرصة لأَخْذِ رأيك أو إطلاعك على ما أنتويه..

وبالفعل في اليوم التالي قررتُ ونفذتُ وحان وقت مواجهتك!..

كنتُ قلقة بعض الشيء لكنني كذلك كنت أعلم أنني أقوم بما هو صواب خاصة مع تشجيع والدي الحبيب لي.. أنهيت ما أقوم به واتجهت لمنزلك بخطوات مترددة لأجدك في الحديقة تقرأ أحد كتبك بإمعان ولا تشعر بشيء حولك..

وقفتُ أمامك لثوان دون أن تشعر بوجودي ثم خرج صوتي متحشرجًا وأنا أحدثك.. كم كانت النظرة على وجهك تساوي كنوز العالم حبيبي!.. يومها

تضاعفتْ سعادتي كالمعتاد، فكلما أرافقك أو أقترب منك أو تكون راضيًا عني، لا يهمني أي شيء آخر في اتساع هذا الكون..





(٤)

غضبي منك كان يزداد يوما بعد يوم "شهد"..

من سأقاطع وأضرب في الغد بسببك!..

بدأتُ أعتقد أن نهايتي ستكون السجن أو مشفى الأمراض العقلية مصابًا بجنون العشق والغيرة..

بالأمس كنتِ رضيعة أحملها بخوف وأنا أخشى أن أؤذيها أو تسقط من بين يدي، واليوم تتجهين نحو الأنوثة الكاملة بخطى ثابتة والذباب البشري يحوم من حولك وقلبي لم يعد يحتمل..

في اليوم التالي على غضبي من زميلي وصراخي في وجهك كنت أمسك كتابًا، أقرأ فيه ولا أقرأ بحديقتنا.. عيناي تجريان على السطور وعقلي في جنون العشق كان غارقًا، فجأة سمعت صوتك الصغير القلق هامسًا:

- ما رأيك وليد؟





رفعت عيني نحوك مندهشًا.. هل ستحادثينني بعد غضبتي بالأمس بدون تذلل مني؟..

وقبل أن تكتمل نظرتي إليك وجدت قمرًا صغيرًا رقيقًا يقف أمامي.. أحقا هذه أنت "شهد"؟!..

كنت تتطلعين إليّ في توتر ونظرة قلقة تغلف بؤبؤيك، تلك اللمعة في عينيك والتي تنذر بدموع ستنهمر بعد لحظة.. انتبهتُ لنفسي ولتأخري في الرد على سؤالك، فاعتدلت في مجلسي وتنحنحتُ مزيلًا بعض الارتباك من صوتي وسألتك:

- ما هذا شهد؟.. لمَ فعلت ذلك؟

بدأت دمعة تنساب من بين جفنيك بالفعل وكأنك ظننت أن الأمر لم يعجبني، هل كنت قاسيا؟..

كل ما فعلته أن سألتك عن سبب فعلتك، لم أكن أريد أن يكون السبب هو غضبي أنا أو غيرتي.. بل شيء آخر نابع من قلبك أنت.. قلت بسرعة:

- شهد لا تبكي من فضلك.. أنا فقط أتساءل عن السبب، لاتزالين صغيرة طفلتي..



رفعتِ عينيك إلي في شيء من الغضب وكان ردك عنيفًا:

- لست صغيرة وليد.. أخبرتني بالأمس أنني لم أعد طفلة.. أتذكر؟.. تخطيت مرحلة الطفولة إن لم تلاحظ وهو الآن فرض من خالقي عليّ الالتزام به..

في اللحظة التالية كانت ابتسامتي تكلل شفتي.. رائعة أنت صغيرتي، ازداد جمالك وزاد النور المطل من وجهك بغطاء رأسك الرقيق..

كنتِ أنثى صغيرة تقف أمامي في ثياب محتشمة تجبرني على احترامها قبل أي شيء.. همسة واحدة خرجت مني:

- كالقمر أنتِ شهد..

رأيت الخجل يغلف وجهك برداءه وأنت تبتسمين برقة أذابتني ثم انطلقت من أمامي راكضة كالريح وأنا أتابعك بحب للحظة بعدها شعرت أنه ينبغي أن أغض بصري عنك..

معشوقتي..

***

آه "وليدي".. في ذلك اليوم أخجلتني كثيرًا وأغضبتني وأثرت حنقي أكثر..



كنت لاتزال تراني طفلة حمقاء بجدائل طويلة، لكنني الآن أختلف.. أنا أقترب من الثانية عشر من عمري وأنت لا تدري!..

تعاملني كرضيعة الأمس التي كنت تهدهدها في مهدها.. لكني كبرت عزيزي، وحان وقت التزامي بأوامر ربي.. قررت أن أرتدي الحجاب، وفاتحت والدي في الأمر وكعادته بكل حنانه الذي يغمرني به انهال علي وجهي بقبلاته التي كللتها دموعه وهو يهتف من قلبه:

- نعم شهد.. أنت كبرت، هيا افعليها صغيرتي..

وفعلتها.. ورد فعلك كان هو مثار قلقي، هل ستتقبل؟..

أعلم أنك تحافظ على صلواتك "وليدي" والكثير من الأشياء الأخرى التي تقربك من ربي..

ربما تتفلت منك بعض الأخطاء لكنني دومًا كنت أستمع لهمساتك الذاكرة لله في كل لحظة ويطرب قلبي لها.. وعندما أريتك نفسي وتساءلت عن السبب، جفت الدماء من عروقي.. وتعليقك التالي أثارني بشدة!..

أنا لست طفلة "وليد" توقف عن اعتباري كذلك..

ثم أخبرتني أنني أشبه القمر، أحقا حبيبي؟.. أكنت تعنيها؟..



لم أستطع التأكد وقتها فقد وليت هاربة والخجل يطوقني من كل ناحية.. وسعادتي بتقبلك لحجابي تغرقني في بحرها.

***

أتصفح ألبوم صورك منذ كنت رضيعة "شهد"..

بعض الصور تثير ضحكاتي وبعضها يثير ذكرى مرحك وانطلاقك وشقاوتك صغيرتي.. لا توجد صورة واحدة لم أكن فيها معك..

هنا أحملك.. وهنا أداعبك وأنت تضحكين بشدة.. هنا نلعب بسيارتك المفضلة.. وهناك عندما ارتديت الحجاب، بعدها لم تحتوينا صورة أخرى..

كم آلمني ذلك الانفصال لكنه كان فقط يزيد من شوقي إليك ومن عشقي لقلبك الصغير، أترين هذه الصورة؟..

تحملين قطة لطيفة، أتذكرين كيف حصلتِ عليها؟.. إحدى نوبات الجنون التي كانت تداهمك أحيانا فتركضين في الشارع لإنقاذ قطة صغيرة أو مساعدة محتاج.. غير عابئة بأي أذى قد يصيبك أو سيارة مارة قد تصدمك، فقط تؤمنين أنه عليك تقديم المساعدة..



كنتِ رائعة طفلتي، ومازلتِ.. دومًا ذكرياتي معك تثلج صدري وترسم بسمة على شفاهي.. فقط قبل أن ينتهي وقت السعادة ويحل الظلام بعالمي جاذبًا إياك معي نحو ثقب أسود ابتلع ضوئك وحيويتك وقتل كل جميل فيكِ..

ها أنا أنهي دراستي وأنت تكبرين وتضعين الحدود بيننا، كم أحبك "شهد" لطالما أحببتك.. ولطالما كانت كل أفعالك صغيرة أو كبيرة مثار إعجابي.. إلى متى سأنتظر صغيرتي؟..

مازلت صغيرة وأنا فتى جامعي أحمل شهادتي وأعود بها لأبي ليجلسني على مقعدي في الشركة التي يمتلكها مناصفة مع والدك.. الكل سعيد ومبتهج، لقد تخرجت "وليد" وأصبحت رجلًا، لكن ماذا عنك طفلتي؟..

تجلسين في خجل لا ترفعين عينيكِ نحوي وأنا أحاول منع بصري من الالتفاف حولك قدر استطاعتي.. ابتسامتك الرائعة تزين شفتيك في بهجة، وفجأة تقدمت إلي رافعة كفيك الصغيرتين بهدية.. ابتسمت وفي خفوت همست لك:

- شكرا أميرتي.. هديتي هي أنت..



وتعودين أسفل رداء الخجل والصمت.. والكل يلاحظ ما بي ويبتسم في حنان، ليصيبني الخجل أنا أيضًا.. آه مدللتي الصغيرة، كم أحبك.

أتذكرين هديتك "شهد"؟..

لاتزال تلازمني للآن.. مصفحًا صغيرًا مطعمًا باللون الذهبي الراقي، وسجادة صلاة للجيب..

كيف فكرتِ فيها؟.. هل هي منك أنت أم أنك استشرتِ أحدًا؟.. لم أسألك من يومها عنها لكنها تظل الأغلى على قلبي والأقرب مني لنفسي.. فقط لأنها غالية للغاية.. ولأنها منك.

***

تخرجتَ "وليدي"..

أصبحتَ رجلًا راشدًا.. وأنا بالنسبة إليك وإلى الجميع مازلت طفلة، كم كان يغضبني ذلك خاصة عندما يضحكون على أي من تصرفاتي وينادونني بالطفلة الصغيرة..

إلى متى سأظل طفلة؟..





تخطيتُ الثالثة عشر وأسير بخطى بطيئة نحو الرابعة عشر، اقتربت كذلك من دراستي الثانوية والتي تليها جامعتي.. إلى متى "وليد" سأبقى طفلة؟..

الملل أصابني وأنا أتطلع إلى الجميلات في ذهابهن وإيابهن، رائعات هن طالبات الجامعة، يمتلئن بالحيوية والنشاط والأنوثة.. وأنا كما أنا طفلة، تجدل شعرها أغلب الوقت وترتدي الجينز في غرفتها كالصبية..

تمر الأعوام عليّ ببطء شديد قاتل، يوم تخرجك كان عيدي الصغير، كنت أسعد منك نفسك، ومن والديك ووالدي.. أعلموني أنك ستعمل معهما في الشركة، ابتسامة تعلو شفتي وأنا أتخيلك كرجل أعمال وسيم، طويل نحيف حاد الملامح، ذو نظرة صارمة تحمل بعض القسوة..

تلك القسوة لم أرها إلا لاحقًا "وليد" فلم أكن لأتخيلها بين جفنيك أو في المستكين بين ضلوعك أبدًا!..

شعرت بغيرة عندما مر بذهني من قد تقابل من النساء، من قد تلفت انتباهك أو حتى تحاول جذبه إليها..



أهديتك يومها ما كنت أعلم أنه سيحفظك مادمت تحتفظ به وتقرأ فيه.. وسجادة صغيرة تحملها معك لتذكرني بدعواتك في صلواتك وليكن لي نصيب من ثوابها..

استغرب والدي عندما طلبتهما منه، بعدها نظرة عينيه أشعرتني بأنني أميرته بالفعل.. احتضنني كعادته وقبلني داعيًا لي بالصلاح، كم كنت في حاجة لدعواتك وذراعيك أبي..

لكنك فقط لم تكن موجودًا وقتها..

***

كنت تتقدم في عملك "وليدي"..

أصبحت بالفعل تشبه رجال الأعمال كما نراهم في التلفاز.. تخرج صباحًا مع والدك مرتديا بزة أنيقة كاملة، حاملًا حقيبة بالتأكيد تمتلئ بالأوراق الهامة..

وأنا في الصف الثاني الإعدادي.. أربعة عشر عامًا امتلأت بها شهادة ميلادي، وأنت شاب وسيم في الثالثة والعشرين.. منذ عامين تركت

هوايتك الأولى والتي كنت ماهرا فيها للغاية - السباحة - واتجهت لتعلم الفروسية..

وكما أنت دومًا، رائعًا ماهرًا فارسًا حقيقيًا.. شاركت في الكثير من السباقات وفزت في بعضها بالفعل، مهارتك تتطور يومًا بعد يوم وما أثار غيظي هو إعجاب الفتيات بك!..

كنت تصطحبني للنادي في كثير من الأحيان لأشاهدك وأنت ترتدي بزة ركوب الخيل الأنيقة وخوذتك فوق رأسك.. تركض بحصانك الأبيض، والذي لم أعلم لما اخترته بهذا اللون، لكنك تبدو كفارس أحلام خرج للتو من أحد القصص المصورة.. وتقفز الحواجز بحرفية وإتقان..

كنت أشاهدك والفخر يملؤني..

هذا هو ابن عمي، هذا هو مالك قلبي، فارسي أنا.. ثم تسللت تلك الهمسات لأذني عنوة:

- هل رأيتِ؟.. إنه رائع للغاية..

لترد أخرى:

- نعم.. فارس حقيقي..



وصوت الأولى:

- قوي ووسيم.. ماهر جدًا في قفز الحواجز، كأنما ولد على ظهر جواد.. مع أنه لم ينتظم في تدريباته سوى منذ عام ونصف فقط..

والثانية تغمغم في لهجة حالمة أغضبتني:

- اسمه وليد السيوفي.. ابن أحد رجال الأعمال الكبار، تخرج منذ عامين ويعمل مع والده في شركته.. أترين!.. مميزات رائعة في زوج المستقبل..

التفتُ خلفي لأجد فتاتين.. بتخميني المتواضع تتراوح أعمارهما ما بين الثامنة عشر والعشرون.. تتأملان فارسي بعينين راغبتين، وأنا أكاد أقفز صارخة في وجهيهما.. هو لي يا حمقى.. لا تنظرا إليه أو تتهامسان عنه، وفي النهاية قالت الأولى:

- بالفعل.. به كل المميزات، وبالإضافة إلى ذلك فهو رجل بمعنى الكلمة، منذ أيام رأيته يتشاجر مع أحد الفتية هنا دفاعًا عن فتاة لا يعرفها حتى..

نعم.. هذا هو أنت "وليدي".. رجلًا حقيقيًا..

لكن غير مسموح لأخرى أن تتحدث عنك، أو حتى ترفع جفنيها لترتسم صورتك في حدقتيها.. وقبل أن أصرخ فيهما غاضبة أتى ذلك السمج لا أدري من أين ليسألني فجأة:

- مرحبا آنستي.. مع من أنت هنا؟

التفت إليه في غضب وقلت:

- ولمَ تسأل؟

ابتسم في حرج.. ثم قال في لزوجة:

- آآه، حسنًا.. فقط لمحتك تجلسين وحدك هنا منذ أكثر من نصف ساعة، فأردت الاطمئنان ألا أحد هنا يضايقك..

ابتسمت في برود وإجابتي تقطر جليدًا:

- لا أحد يضايقني هنا.. أنا مع وليد السيوفي..

قلتها بصوت عال، لتسمعها التافهتان خلفي.. ثم وجدتك فجأة تصطدم بأحد الحواجز وكأنك لم تنتبه له وتسقط بعنف من على ظهر جوادك وأنا أصرخ باسمك في ذعر..



***

نزعة طفولية تنتابني أحيانًا أمامك "شهد" على الرغم من سنوات عمري التي تفوقك بكثير.. نزعة تدفعني للتباهي كأي أحمق آخر أمام معشوقته..

في ذلك اليوم اصطحبتكِ معي للنادي لتشاهدي أحد تدريباتي على الفروسية وقفز الحواجز.. كنت أعلم أنني جيد في هذا المضمار، ورغبت في استعراض مهاراتي أمامك صغيرتي..

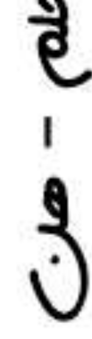
طفل ربما أنا.. لكنني كنت سعيدًا للغاية وأنا ألمحك تنظرين إليّ بانبهار، وتصفقين بيديك كلما نجحت في تخطي حاجز ما..

لم أدرِ لمَ كانت عيناي مركزتان عليك أنت!.. وكل خطوة أخطوها بجوادي الأثير كانت فقط سعيًا لنيل إعجابك..

بعد دقائق لاحظت ذلك الفتى، يبدو صغيرًا ولن يتحمل قبضتي في وجهه..

شعرت أنه يضايقك!.. يقترب منك ببطء وتردد وفجأة بدأ معك حديثًا بدوت فيه غاضبة..

غيرتي اشتعلت بداخلي وقررتُ العودة إليك والاقتراب منك لأمنعه من مجرد النظر للمكان الذي تجلسين فيه..



وظهر ذلك الحاجز الأخير من العدم أمامي لأصطدم به بصدر جوادي وأندفع أنا من فوقه ساقطًا بعنف انكسرت معه ساقي وكادت ذراعي تنكسر هي الأخرى..

فقدتُ وعيي وأنا أحاول جاهدًا ألا أفعل حتى لا يصيبك الذعر لكن آخر ما تناهي لمسامعي هو صرختك المرتعبة باسمي..



(٥)

يا إلهي.. "وليد" المسكين!..

لقد كُسِرت ساقك يومها.. حملوك للمشفى فاقدًا لوعيك وأنا أصاحبك ودموعي تأبى التوقف عن الانهمار..

كنتُ أجلس بالقرب من الغرفة التي يعالجونك فيها وأبكي.. فقط أبكي، و بدون صوت كما هي عادتي.. وأتى العم بصحبة والدتك ووالدي والجزع يرتسم على وجوههم..

أخبرتهم أنك سقطت من على صهوة جوادك بعد اصطدامه بأحد الحواجز.. بدأت والدتك في البكاء بشدة والرجلين اتجها للصلاة والدعاء لأجلك، بعدها خرج الطبيب من غرفة العمليات ليطمئننا..

كسر ساقك تم تجبيره وسيحتاج حوالي ثلاثة أسابيع حتى يلتئم وبعدها عدة تمارين حتى تستطيع السير بشكل عادي.. وذراعك بها كدمات عديدة



قوية ألزمتك حملها على عنقك لفترة هي الأخرى.. بالإضافة لعدة رضوض في صدرك وكتفك!..

وفي غرفتي بعد عودتي ابتهلت لله وأنا أقف بين يديه داعية أن يتمم شفاءك على خير وألا يزور الألم جسدك أبدًا..

في خلال يومين عدتَ لمنزلك وغزاني حنيني إليك، كان والدي يزورك يوميًا بعد عودته من عمله وخجلي يمنعني من مجرد طلب مصاحبته حتى وجدته يسألني:

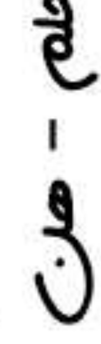
- شهد.. ألا ترغبين في زيارة ابن عمك وليد؟.. إنه في منزله منذ أسبوع ولم تذهبي لرؤيته ولا حتى مرة واحدة..

شعرتُ بلهجة والدي وهو يحادثني مندهشة مستغربة.. اكتنفني الخجل وهمست:

- أرغب في ذلك والدي لكنني أشعر بالحرج لا أكثر..

ليسمعني ضحكته الحنون المرحة هاتفًا بعدها:

- وما الحرج في زيارة ابن عمك شهد؟.. الرجل مريض، وعيادة المريض واجبة.. ستأتين معي في الغد، حسنا؟..



ابتسمتُ في خجل وأنا أومئ برأسي موافقة له..

وأتيتك "وليدي" أقدم خطوة وأعود أخرى.. كنتُ قلقة، خائفة، حزينة لما حدث لك.. وأخشى رؤيتك في هذا الوضع..

عندما دخلتُ مع والدي لغرفتك ورأيتُك مجبّرًا راقدًا في هدوء على فراشك، توجعتْ.. كأن ألمك أنت قد حل بجسدي وعندما رفعتَ عينيك نحوي..

ونعم نحوي أنا!..

فأنت لم تنظر إلى والدي إلا بعد أن ألقى السلام عليك.. تخلل حزني الكثير من الخجل، ثم قلتُ بخفوت:

- حمدًا لله على سلامتك وليد.. شافاك الله وأتم عليك عافيتك..

منحتني ابتسامة حانية ثم رددتَ بنبرة معاتبة:

- سلمك الله شهد.. أين كنتِ طوال الأسبوع الماضي؟.. لمَ لم تأتِ لزيارتي؟..

ليرد أبي وهو يضحك رافعًا عني الحرج:



- كانت تشعر بالخجل وليد.. ولا تسألني لمَ!..

ابتسمت أنا الأخرى ثم خفضت رأسي في صمت، وأنا أشعر بك تتطلع إليّ.. حاولتُ التخلي عن خجلي فأخرجت قلمًا عريضًا من حقيبتي وهتفتُ بلهجة طفولية:

- سأكتب لك شيئًا على جبيرتك.. ما رأيك؟..

في تلك اللحظة نادى عمي والدي فقام واقفًا وقال بابتسامة:

- حسنا شهد.. لا ترهقي ابن عمك، اكتبي ما تريدين والحقي بي لنعود للمنزل..

وخرج والدي.. انتقلت إلى جوار ساقك وأمسكت بقلمي وكتبت بضع كلمات بسرعة.. لأسمعك تهمس:

- أوحشتني شهد..

رفعتُ عيناي إليك في خجل لأتأكد مما سمعت.. فقابلتني ابتسامتك الحانية ثانية ونظرتك العاتبة وعدت تقول في لوْم:

- كانت سقطتي بسببك.. وأنتِ هجرتني طوال الأسبوع الماضي..



اتسعت عيناي في ذهول وصدمة لم تكن بأقل من تلك التي شعر بها قلبي!.. أسقطت بسببي "وليد" حقًا؟.. ولمَ؟..

ترجمتُ سؤالي بصوت لا يكاد يسمع:

- ماذا؟.. حقًا؟.. ولمَ؟

أجبتني بنفس الابتسامة الآسرة:

- رأيتُ أحدهم يضايقك.. كنتُ في طريقي لإيقافه ولم أنتبه لذلك الحاجز أمامي..

شعرتُ بالذنب يذبحني.. إذًا فقد كنتُ السبب في إيذائك "وليد"!..

ليتني كنتُ أعلم.. لتركت المكان له قبل أن تقع عيناك عليّ وتتأذى بسببي، عدتَ تقول في حنان:

- هوني عليك شهد.. إنه قدري..

أومأتُ برأسي في صمت والحزن يزداد بداخلي ثم عدت أقول في خفوت:

- أتم الله شفاءك على خيروليد.. بإذنك..

واتجهتُ للخروج من الغرفة لتهتف بي:



- انتظري.. قلت لك هوني عليك، لا داعي للتفكير في الأمر.. بالفعل هو قدري، أنا الذي لم أكن منتبهًا له.. ثم لا تهربي قبل أن تقولي لي ماذا كتبتِ على جبيرتي؟..

حاولتُ الابتسام لكن عدتُ لخجلي مجددًا وأنا أجيبك:

- لمَ لا تقرأها بنفسك؟

وعدتُ أحاول الهرب من أمامك ثانية لتوقفني:

- انتظري حقا.. لن يمكنني رؤيتها بوضوح، لو أعجبتني الكلمات سأحتفظ بقدمي مجبرة لأجلك..

وابتسمتَ في حب.. ترددت، احترت، ارتبكت ثم هتفت بسرعة:

- دعوت لك بالشفاء.. وكتبت أنني أتمنى لو كان الألم بي أنا وأنت بتمام عافيتك، وأنني أفتقدك..

ألقيتُ كلماتي بسرعة الصاروخ وانطلقت بعدها هاربة من أمامك وقلبي ينبض بقوة لا أفهمها.. وسعادة لا أدري لها سببًا تتغلغل بداخلي!.. ففارسي، سيبقى فارسي.

***



افتقدتُكِ بشدة صغيرتي.. وغضبت منك.. ثم شعرت بالحزن!..

بعدها سألت والدتي عنك.. لمَ لم تأتِ لزيارتي "شهد"؟..

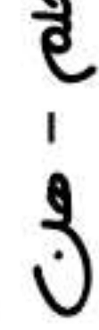
إجابة والدتي لم تنفعني بشيء، فهي لا تدري لمَ تأخرتِ عني!.. ومر يوم ويومان وثلاثة حتى انتهى الأسبوع وأنت غائبة.. وأنا عاجز عن الحركة، عاجز عن رؤيتك، ولا أستطيع المطالبة حتى بسماع صوتك عبر أسلاك الهاتف..

لم نفترق لتلك المدة من قبل، ولأول مرة أتذوق مرارة ابتعادك.. حتى في فترة طفولتك وخصامنا، كنت أراك من بعيد، وأشبع عيني منك..

لكن الآن أنا محتجز.. قعيد بين جدران غرفتي، وأنت بعيدة عني، تفصلني عنك بضعة أمتار هي المسافة بين منزلينا..

بعد اليوم السابع أخبرتني والدتي أن عمي سيصعد إليّ بعد قليل وأنت بصحبته، كدتُ أقفز فرحًا من فراشي لأرقص طربًا.. فبعد دقائق سأنعم برؤيتك..

أعلم أنني لم أعد أطيل النظر إليكِ مثلما كنت أفعل سابقًا، لكن تلك اللحظات المختطفة من عمر الزمن تكفيني.. وتشبع عيني بصورتك حتى



أراكِ مجددًا، وكملاك صغير تهاديت بخطواتك الرشيقة إلى حجرتي وأنت تمسكين بيد عمي..

الخجل يرتسم على وجهك بشدة ووجنتيك حمراوان.. قال العم أنك تشعرين بالحرج من زيارتي، ولم أفهم لمَ!.. ولم أهتم بالسؤال.. يكفيني فقط أنك أمامي الآن..

وبطريقتك الطفولية المعتادة أصريتِ أن تكتبي شيئًا على ساقي المجبرة.. ولم أقاوم وقتها فقد غافلتني شفتاي مدفوعة بنبضات قلبي المشتاقة لتهمس معبرة عن افتقادها لك..

تطلعتِ إليّ بحياء لذيذ حين نطقت بكلمتيّ الاثنتان.. ثم أخبرتك أنك سبب سقطتي، كنتُ سأخبرك أنني شعرت بالغيرة، لكنني خشيتُ أن أتجاوز معك، أو أشعرك بالمزيد من الخجل..

رأيت الحزن على وجهك فلُمتُ نفسي بقسوة.. لم يكن ذلك سبب إخباري لك، وعندما حاولتِ الهروب من أمامي؛ لاحقتك بسؤالي عما كتبتِه على جبيرتي، ولخجلك المرتسم على وجهك خمنتُ شيئًا وكنتُ على حق..



أنهيتِ كلماتك كالبرق ثم اختفيتِ من أمامي وتركتني أحلق معك في سماء خيالي.. وأسبح نحو شاطئ عشقك مجدفًا بقوة داعيًا أن تمر السنوات التالية بأسرع ما يمكن لتكوني لي صغيرتي..

بعد خروجك تحركت بخفة، وتطلعت لكلماتك الصغيرة المنمقة المكتوبة على ساقي وابتسامة حب تعانق شفتي..

نعم طفلتي..

كان يمكنني رؤية جبيرتي بوضوح، لكنني فقط رغبت في سماعها من بين شفتيك.. ونجحت خطتي نجاحًا باهرًا..

أحبك "شهد".. وبشدة..

***

بخطى ثابتة أتقدم في عملي.. وصديقي الصدوق "رمزي" الذي ألزمتُ والدي أن يكون معي يشاركني الخبرات التي نكتسبها يوميًا سويًا..

وصغيرتي الجميلة تكبر أمام عيني والصبر يكاد يقتلني..

أنهيتِ دراستك الثانوية "شهد" وتقتربين من العام الثامن عشر من عمرك، أصبحتِ أنثى أميرتي..

وكل ما أستطيع فعله عند لقاءك والذي أصبح أقل من القليل أن أبتسم متسائلًا عن أحوالك.. غاضًا بصري عنك لأسمع سيمفونية صوتك العذب تجيبني بخفوت وخجل:

- بخيروالحمد لله..

مازالت ملامحك المتجسدة أمام عيني طفولية صغيرة.. بجدائل ناعمة وعينين لامعتين وأسنان ساقطة.. بريئة خجول بها لمحة غضب دائمة..

أتذكرين كيف كاد والدك يوقف قلبي ليجبرني على طلب يدك؟..

بالفعل كاد قلبي يتوقف ومن قبله كدتُ أرتكب جريمة قتل وحشية في حق عمي..

يومها اجتمعت العائلتين على وجبة الغذاء لمرة منذ وقت طويل لم تحدث.. كان والدي ووالدك على رأسي المائدة، أنت إلى جوار عمي وأنا وأمي متواجهين عن يمين ويسار والدي.. يفصلني عنك مقعد واحد لتواجهيني..

وأنت كعادتك عيناك تداعبان حبات الأرز في طبقك في صمت.. وأنا أمنع عينيّ بشق الأنفس عن متابعتك.. كان الرجلين يتحدثان بأمور العمل

وكأنما لا يكفيهما الشركة والانشغال بها في الصباح.. وأمي تنصت إليهما باهتمام مصطنع..

أما أنا فأحلق في خيالي مع أميرتي الخجول الصامتة..

كم تغيرتِ "شهد" وأصبحتْ طباعك أقل حدة، وأكثر حياءً.. لستِ تلك الصغيرة الغيور التي كادت تقتل زميلتي يومًا وتوسعها ركلًا بقدميها.. فجأة سمعت العم يقول بصوت حازم كأنه قرر أمرًا ما مخاطبًا والدي:

- محسن.. أتعلم من زارني اليوم؟..

لم أكن لأنتبه لحديثهما أويهمني لولا أن تساءل أبي باهتمام:

- من عبد الله؟..

أجاب العم بنبرة لم أفهمها:

- حامد عيسى..

رد والدي باستغراب:

- حقا؟.. لكن المشروع بيننا لم يبدأ بعد، ما الذي أراده؟..

وتأتي الصدمة في أحرف قليلة لتذبح قلبي:



- أراد مصاهرتي محسن.. يطلب شهد لولده الأكبر عماد..

وكأن دلوًا من الماء البارد سُكِب فوق رأسي، وأنا كنت كبركان انطفأ فجأة وتصاعدت منه أدخنة الخوف والقلق..

رفعتُ عيني بصدمة لعمي والذي لم يبدُ أنه حتى انتبه لنظرتي إليه أو إلى تلك الشهقة التي انطلقت من بين شفتيك.. أدرتُ عيني إليك بسرعة لأجد الصدمة على ملامحك والذهول أضعاف وجودهما على ملامحي..

حتى والدتي تساءلت ذاهلة:

- ماذا تعني أبا شهد؟.. هل ستزوجها لابن ذلك الرجل؟..

التفت عمي إليها مجيبًا بحزم:

- لم أقرر بعد أم وليد.. الفتى مناسب للغاية، يصغر وليد بعامين ويعمل أيضًا في شركة والده مديرًا لأحد فروعها الهامة.. ناجح في عمله جدًا، يمكنني أن أأتمنه على ابنتي.. ووالده لا غبار عليه أو على عائلته..

تلجلجت والدتي وأنا أحفزها بعيني على الحديث، نظرتْ إليّ بقلق ووالدي الصامت يتطلع إلى والدك بانتباه.. عادت تقول:

- ولكن عبد الله.. لمَ هذا القرار المفاجئ؟..



ابتسم وهو يرد بنفس الحزم:

- أخبرتك أنني لم أقرر بعد.. فقط الرجل طلب ابنتي زوجة لولده، كما يقولون دخل البيت من بابه.. وعندما أراد شيئا سعى إليه وكان حازمًا فوريًا.. وهو كشخص مناسب للغاية، فما الداعي للرفض؟.. سيأتيان لاحقًا ليجلس الفتى مع العروس.. ويقررا إن كانا سيتوافقان أم لا؟

قال العم كلمة "عروس" وهو ينظر إلى وجهك المحمر بابتسامة قتلتني..

أنتِ "شهد" عروس؟.. ولمن؟.. لغيري؟.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أهب واقفًا هاتفًا بعصبية شديدة لا تليق بمن أتحدث معهم:

- ماذا تعني يا عماه؟.. هل ستزوجها من رجل آخر غيري؟.. طفلتي التي تربت على يديّ، تصبح زوجة أزفها لآخر؟..

رأيتُ نظرته الصارمة ونظراتك الفَرِحة، كدت أذوب في عينيك حتى أوقفتني لهجته الحادة وهو يحادثني:

- إن كنت تريد الزواج منها وليد لمَ لم تطلب يدها مني؟.. الفتاة أمامك وستبدأ دراستها الجامعية في غضون شهر على الأكثر وأنت مازلتَ واقفًا



مكانك تتطلع لطفلة الأمس.. غيرك أرادها وتقدم لخطبتها، فما الذي يجبرني على الرفض؟..

لم تسعفني الكلمات.. عدت أهتف وحروفي تتساقط من شفتي بلا رابط:

- لكن عماه.. كنتُ فقط أنتظر لتنهي دراستها، لم أرد أن ألهيها عنها..

رده الحازم ألجمني مرة أخرى:

- كان يمكنك إعلامي ونكتفي بخطبة ليعلم الجميع أنها لك، فلا يأتيني شريكي يطلبها مني لولده.. أنت فقط صمت معتبرًا أنني سأمنع الرجال عن طلب يدها.. إن أردتها فعلا كما تقول لسعيت لذلك وليد ولما تركتها لآخر يطلبها..

لم أجد ما أرد به..

شعرت أن المائدة بيننا تكبر وتمتد لتصبحي أنت في ركن قصي بعيد ولا أستطيع الاقتراب منك فأصابني الدوار.. انطلقتُ مغادرًا المكان بعنف محطما مزهرية ثمينة في طريقي ومغلقًا الباب خلفي حتى كاد يتحطم هو الآخر..



(٦)

صرخة مدوية انطلقت من داخل قلبي ولم تتخطَ شفتي..

والدي الحبيب كيف تقسو على قلبينا بهذا الشكل؟..

خرجتَ أنت كإعصار ولم أدرِ لم استسلمت بهذه السهولة ولمَ لم تطلبني أنت أيضًا؟..

ووالدي تطلع لخروجك العاصف وعلى شفتيه ابتسامة لم أفهمها، تبعتْك والدتك بسرعة في حين ركضتُ أنا لغرفتي والدموع تغرق وجهي كالسيل.. فجأة وقبل أن أدلف إليها سمعت والدك بصوت مشدوه يتساءل:

- هل أنت جاد عبد الله؟.. هل ستزوجها رجلًا غير وليد؟..

سمعت بعدها صوت أبي السعيد وهو يجيب:

- بالطبع لا محسن.. من تظنني؟.. عجوز مخرف؟.. الفتاة لوليد منذ يوم ميلادها..

فجأة توقفت دموعي عن الانهمار ولم أفهم لمَ فعل والدي ما فعل أو قال ما قال!..

فاستندتُ لطرف السلم العلوي أستمع إليهما بصمت وقلبي ينتفض فرحًا ممتزجًا ببعض القلق وعدم الفهم.. قال العم بدهشة أكبر:

- إذًا لمَ قلت ما قلت؟.. لقد أصبته في قلبه عبد الله، كيف تفعل ذلك بابني؟..

وكأن والدي كان مبتسمًا وهو يرد:

- لا تقلق محسن.. أنا فقط أعطيه دفعة صغيرة ليأخذ خطوة للأمام.. أخي العزيز أنا لا أعلم متى ستنتهي حياتي وأريد أن أطمئن على صغيرتي وأسعد برؤيتها عروسًا قبل مماتي.. وولدك العنيد الشقي بطيء للغاية كسلحفاة صغيرة، أردت تحفيزه بعض الشيء..

هتف عمي بسرعة وهو يضحك في نفس الوقت:

- أبعد الله عنك الشر أخي.. ستراها عروسًا وترى أحفادك بإذن الله، فقط اشكر ربك أن وليد اكتفى بالمغادرة وإلا كان قد أنهى حياتك بنفسه واختطفها وهرب بها إلى حيث لا يمكننا الوصول إليه..



نبض قلبي بسعادة لا توصف و أنا أسمع ضحكة والدي الصافية وهو يقول:

- لقد كنتُ متوجسًا منه بالفعل.. لكني سلمت أمري لخالقي ونفذت خطتي على أمل وجودكم، وأنكم ستدافعون عني إن حاول قتلي..

سأله عمي وهو يبادله ضحكته:

- والآن ماذا؟.. كيف سيطلبها منك وهو يراك تريد تزويجها من غيره؟

رد والدي:

- هذه مهمتك محسن.. عليك إقناعه بطلب يدها وإلا ستضيع منه، أنا لا يمكنني الاطمئنان على طفلتي الوحيدة إلا معه.. لقد حملها منذ كانت رضيعة ورباها وتعلقت به أكثر من أي أحد فينا، فكيف أسلمها لغيره؟

سأله عمي مرة أخرى:

- وهي؟.. ماذا ستفعل معها؟.. لابد أنها منهارة باكية في غرفتها الآن..

أجاب والدي بصوت باسم:



- لا تقلق.. فقط سأشرح لها خطتي ببساطة، كلي ثقة بأنها ستتفهم لمَ لم أخبرها من قبل أو أي منكم.. كان لابد أن تكون الخدعة متقنة والذهول على وجوهكم حقيقيًا لأقصى درجة..

قالها وانطلق ضاحكًا، تلك الضحكة التي تحلق بقلبي ولا تتركه إلا سعيدًا آمنًا مطمئنًا..

آه كم أحبك وأفتقدك والدي..

***

لمَ يا عم؟..

لمَ كنت بتلك القسوة؟..

طعنة مفاجئة غادرة بسكين حادة، شقت قلبي كقالب من الزبد البارد.. بيسر وسهولة وجدته منقسمًا داميًا نازفًا بشدة..

مرارة دموعي امتزجت بدمائي كطوفان نوح.. أزالت كل ما على الأرض ولم يمكن إنقاذ شيء قبل حلول النهاية..

لحظات جنون انتابتني وكنت على وشك ارتكاب حماقة أو ربما حماقات، لحقتْ بي أمي يومها.. تربت على كتفي ترجوني الحديث أو حتى الصراخ..

غلفني فقط الصمت وزلزل دعاماتي فكدت أنهار باكيًا لولا قسوة طفت على السطح فجأة، لأجدني عائدًا إلى منزلك كإعصار فألتقي بوالدي في الطريق.. رأى الشرر يتطاير من مقلتي، ودماء الغضب تعميني.. استوقفني فلم أستمع له فقط لأكون أمام بابك أدقه بعنف كاد يحطمه للمرة الثانية..

***

طرق بابي برفق.. حاولت التباكي واستدرار الدموع فقط لأمنحه لذة المفاجأة التي يدخرها لي..

كم أنت حنون أبي، وكم أشتاق إليك ويجتاحني الوجع لفراقك والاحتياج لضمة بين ذراعيك قرب ضلوعك.. قضبان حمايتي..

أتاني بهدوء وثبات.. افتعلتُ الغضب وأدرتُ ظهري له وصوت نشيجي يعلو، ذلك الشَفُوق يجلس خلفي ويضمني برفق.. يمسح دمعاتي بمنديله المعطر ثم يعيده لجيبه.. يربت على شعري ويطبع قبلة صغيرة بعدها يهمس في أذني:

- لا تكوني حمقاء شهد.. لن تصبحي عروسًا لغير وليد..



كم كان صعبًا افتعال الصدمة و التظاهر بالذهول والدهشة!.. لكني أعترف أنني حبكتُ دوري جيدًا وأديته ببراعة خاصة مع دموعي الجافة على وجنتي والتي توقف انهمارها فجأة وأنا أقفز أمامه كطفلة صارخة:

- أحقًا أبي؟..

ليجذبني من يديّ برفق وعلى شفتيه أجمل بسمة، وفي عينيه أحن نظرة.. وعلى صدره دفء الأمان.. أجلسني وضمني ثانية وأراح قلبي بهمسه:

- نعم شهد.. أنا فقط أثير غضبه قليلًا كي يتقدم إليك ويطلب يدك.. لم تعودي طفلة مدللتي، لابد أن تتم خطبتكما ولم أكن لأطلب منه الزواج منك.. عليه أن يطلب هو..

ابتسمت وأنا أمسح دموعي أو بقاياها.. ضممته بقوة جعلته يتأوه وأنا أقول بسعادة تمطر من حروفي أنهارًا:

- أحبك والدي.. كنت قاسيًا بعض الشيء وأوجعتني، لكني أوافقك الرأي..

ربت على شعري ثانية وقال بحنو:



- عذرًا حبيبتي.. فقط لتكون المفاجأة صادمة للكل، أتعلمين؟.. لقد خطبك مني الرجل بالفعل لكنني رفضت.. أخبرته أنك مخطوبة لابن عمك، وطلبه أيقظ في عقلي أمرًا لم أكن منتبهًا إليه.. أنك كبرتِ صغيرتي، أصبحت عروسًا والخطاب يطلبونك.. ووليد الصغير لايزال يراك طفلة، فكان لابد من صدمة تجعله يفيق.. ما رأيك؟.. هل أصلح محققًا بوليسيًا أو مخرجًا لأحد أفلام الرعب؟

قالها العزيز وانطلق يضحك في مرح أحبه.. وقبل أن أجيبه كانت دقات قبضتيك العنيفة على باب منزلنا تزلزله وتكاد تحوله لشظايا، ابتسم والدي وقال في حنان ومرح:

- هيا شهد.. لابد أن أسدك المغوار قد عاد، فلتكوني درع حمايتي منه صغيرتي.. لا تتركيني وحدي في مواجهته..

بادلته ابتسامته في حب وأمسكت بيده لنهبط لمواجهتك أيها الثائر المخيف وأنا أشعر أنني الأسعد في هذا الكون..

***

كالأعمى الأهوج كنت..



على استعداد لاقتحام أقوى الحصون، واغتيال حراسها واحدًا تلو الآخر.. سأصعد برج الأميرة الملعونة، وأقاتل التنين.. سأكون أميرها الوسيم ولن تمنعني العقبات مهما بلغت صعوبتها..

سأصل إليك أميرتي وإن اختطفتك عنوة من بين ذراعي والدك وأخفيتك بين ضلوعي حيث لا يصلون إليك..

كنت فاقدَ الوعي والتركيز، ويداي ستبطشان بأول من أراه.. فُتِح الباب فعبرته كإعصار، لم أرَمن فتحه ولم أهتم من يكون!..

فقط لتصل الطعنة بعنفوانها لأعماق روحي وأنا أراكِ تعانقين كف والدك هابطة من الأعلى وعلى شفتيك ابتسامة فَرِحَة!..

هل وافقتِ على الخاطب "شهد"؟.. كدت أطيح بك وبوالدك لولا أن بادرني متسائلًا بصرامة أوقفتني بمكاني:

- ماذا تريد الآن "وليد"؟

ولم أعلم ما نطقت به بالتحديد.. فقط هي بضعة أحرف نطق بها قلبي قبل أن يرتبها عقلي أو يراجعها:

- أريد الزواج من ابنتك شهد عماه..



كلمات سريعة حازمة انطلقت من بين شفتي بسرعة الصوت أو ربما الضوء.. لترسم سعادة على وجهك كنت دفعت عمري ثمنا لأراها منذ زمن طويل، وللمفاجأة الجديدة يرد العم بابتسامة حنون:

- وأنا موافق وليد.. لن أجد من هو أفضل منك زوجًا لابنتي..

لابد أن الدهشة والذهول المرسومين على ملامحي كانا واضحين للعيان بشكل غير عادي.. فقد وجدت ابتسامتك تتحول لشبه ضحكة وعمي العزيز يقترب مني ببطء ليربت على كتفي بود والبسمة تملأ وجهه مكملًا:

- نعم الرجل أنت وليد.. أتظنها يمكن أن تكون لغيرك؟

وبحيرتي وصدمتي اندفعت بدون فهم هاتفًا في حزم:

- سنعقد قراننا يا عم.. لا داعي لخطبة هي طفلتي وأعلم عنها وتعلم عني كل شيء..

خفضتِ عينيك في حياء محبوبتي.. كنتِ رائعة، فاتنة.. أميرة مدللة بالفعل، لمحت بعض الدهشة على وجه عمي.. فسارعتُ أمحوها وأقرر:

- عماه أنت تعلم أنه لا داعي لها.. وثق بأنني لن ألهيها عن متابعة دراستها، فقط أريدها زوجتي.. اليوم قبل غد..





ابتسامة حنون ترتسم على شفتيه تصاحبها نظرة عينيه الودود وهي تتابع هروبك لغرفتك قبل أن يرد عليّ في عطف ومودة:

- كما تشاء وليد.. كما تشاء..

ثم أصبحت ملكي صغيرتي..

لن يتجرأ أحد بعد اليوم أن يفكر بك أو يقترب منك، أنت الآن..

لـ "وليد السيوفي"..

***

أخيرًا عقد قراننا "وليد"..

أتذكريومها؟..

كدتُ أطير فرحًا، وأنت ببذلتك الرسمية تبدو وسيمًا للغاية.. وابتسامة العشق على شفتيك كلما تطلعت إليّ، ثم في النهاية تلك الجملة القصيرة عندما لفظتها بعمق وعيناك تعانق عينيّ:

"قبلت زواجها"



خفضت عينيّ أتطلع بهما لكفيَّ الباردتين وأنا أفركهما في توتر.. وضعتُ إمضائي واحتفظتَ أنت بالمنديل، لتقف فجأة أمامي وبحنان تطبع قبلة على رأسي همست بعدها:

- أصبح الأمر رسميًا عروسي..

فيرسم الخجل ملامحي من جديد وابتسامة حب تعانق شفتي في رقة..

وجدتني بعدها أحلق معك حيث النجوم والقمر والكواكب السيارة.. نعبر المجرات على بساط الأحلام وأصابعك تعانق كفي بحنو، وهمسة "أحبك" تشدو في أذنيّ كأعذب لحن..



(٧)

هل ترين "شهد".. ملكتي الصغيرة؟..

ها قد أتى اليوم.. أصبحتِ زوجتي.. لم تعودي تلك الطفلة التي أطعمها بيدي وأهدهدها في مهدها.. الصغيرة التي أحملها عاليًا وألقيها ثم أعود فأتلقاها بين ذراعي وهي تضحك بشقاوة وسعادة..

المدللة الغيور التي كانت تغار من زميلاتي وأغار عليها من هواء يداعب خصلات شعرها فيجرح بها عينيها..

أنت الآن عروسي!..

ولم يعد لأي أحد مجرد حق أن يفكر بك حتى أو تَمرُين بخياله..

بارك يومها زواجنا ابن خالتك الوسيم "كريم".. كدت أحطم أصابعه وهو يصافحني وملامح الغضب تبدو عليه، لم أهتم.. فأنتِ الآن لي صغيرتي..

انتهى الحفل بمباركات الأهل والأحبة، ودعوات بالتوفيق وأن يتمم الله لنا بخير.. ومع كل دعاء كان يلهج قلبي قبل لساني بقول " آمين"..

كنتِ صغيرة زوجتي.. عامك الجامعي الأول سيبدأ في غضون أيام، وأنا رجل أرتع في مرحلة النضوج..

شعرت أنني كأبيك؛ لابد أن أحتويك وأشعرك بالأمان في كنفي كما يفعل والدك تمامًا.. أتعلمين!..

وأنا أتطلع إليك يومها بعدما تركنا ذوينا في حديقتكم في جلسة عروسين كنت أشتاق بشدة لجدائلك الثائرة.. كم اشتقت لملء عيني بصورتك "شهد"!.. كنت أمنعهما عنك والآن حان وقت استرداد حقي..

عيناي مثبتتان على وجهك وعيناك تداعبان الأرض أسفل قدميك، كم أنت رائعة حبيبتي، وعذوبة صوتك تداعب أذني في كل لحظة، وإن لم تنطق شفتاك بحرف..

كنت أتطلع إليك في شوق والحنين يملأ قلبي، كأنني لم أرك منذ سنين.. وكأن الحروف قد ضاعت مني ومنك.. حاولت الكلام وكل ما خرج من بين شفتي:

- أحبك شهد..

ليزداد خجلك، ويغزو التوتر ملامحك في ضوء أنوار الحفل..



عدتِ تفركين كفيك، مددتُ يدًا مترددة لألتقط إحداهما بين أصابعي، بالفعل كانت يدك باردة للغاية تكاد ترتعش.. قلت مداعبًا لعلني أزيح عنك بعض القلق:

- والآن ماذا؟.. لقد خُدِعت..

ها قد أفلحت خطتي، لتلتقي الأعين وأنا أعزف بعيني سيمفونية عشق صامتة وأرسل برسائلي لقلبك عبر أهدابك.. رفعت عينيك إليّ في دهشة وأنت تتساءلين:

- ماذا تعني وليد؟

احتضنت كفك الباردة بين كفيّ وكأنني أبثك بعضًا من دفء قلبي ثم أجبتك:

- لم يقولوا لي أن العروس تعاني شيئًا ما يسبب برودة كفيها..

ابتسمت بخجل وحاولت سحب أصابعك لكنني تشبثت بها كغريق وجد طوق نجاة على حين غرة بعدما فقد الأمل.. عدت تنظرين أرضًا وتهمسين:

- اترك يدي..

داعبتك وقتها ثانية:

- ولمَ عليّ أن أفعل ذلك؟

ها أنت تحاولين انتزاع روحي مني بسحبها بعيدا مجددا.. لم أفلتها فهتفتِ في خجل:

- اتركها وليد..

كدت أضحك.. مازلت طفلة عنيدة، وبعد جدال صغير ستصرخين في وجهي.. لم أهتم لطلبك، فقط مددت أصابعي لأداعب ذقنك برفق وأنا أرفع وجهك لأتلمس طريقي لعينيك وأعود لأهمس:

- تعلمين أنني لن أفعل..

ولأرق أنثى رأيتها أهديت قلبي للمرة المائة، وهمسة العشق الأزلي يصرخ بها بين ضلوعي في توق ليوم اللقاء..

***

بريئة أنت على الدوام طفلتي..

أصبحت زوجتي وعلى الرغم من ذلك مازلت تعاملينني على أنني غريب، كان ذلك يثير بداخلي أحاسيس متنوعة ومتناقضة!..





تبهجني ملائكيتك بقدر ما يغيظني أنك لا تفهمين ماهية العلاقة بيننا الآن..

أكاد أقفز معك ونمرح كالأطفال، وأود أن أضمك بين ذراعي لأشعر بك أنثاي المتوجة على عرش قلبي منذ يوم ميلادها.. أن أصمت في حضرتك لأرفع عنك خجلًا قد أكون سببًا فيه، أو أن أبثك عشقي بكلمات أعلم جيدًا أنها ستشعل وجنتاك وقد تهربين لحظتها من أمامي..

كانت هي زيارتي الأولى لك بعد عقد قراننا، وكل ما كنت أستطيع الوصول إليه منك هو كفك الباردة دومًا،.. المرتجفة أبدًا..

شعوري كان غريبًا لم أجربه من قبل فلطالما زرتُ بيت عمي وجلست فيه وتجولت في أرجائه.. لكن اليوم اختلفت نظرتي إليه؛ كنت زوجك..

وأتيت في زيارة لعروسي الصغيرة.. لتأتي إليّ، في مشيتك لا تطئين الأرض، بل تنسابين فوقها بنعومة..

والمفاجأة!..

أنك ترتدين كامل حجابك معي أنا!.. زوجك!..

لم أدري أأضحك.. أم أغضب.. أم أحاول شرح الأمر لك!..



صغيرتي لا تعرف أنثى أخرى في حياتها سوى أمي لتشرح لها معنى أنها قد عُقد قرانها.. ولا أعتقد أن أمي ستفعل..

جلستِ على مقعد مواجه لي في خجل، وعيناك تعانقان الأرض عناقًا أبديًا في صمت.. اكتفيت بالتطلع إليك وسكون يغلفني وقلبي يهمس إليك بما عجز عنه لساني..

شعرت أنني لو تكلمت فسأسيئ لطهرك ونقائك وشفافيتك..

لذلك حبست حروفي بداخلي وكنت سجانها، رفعتِ عينيك إليّ في تردد بعد صمتي الطويل، وابتسامة صغيرة تزين شفتيك، ثم همست في مرح تظاهرت به وأعلم ذلك:

- كيف حالك وليد؟

أجبت في حب تقاطر من حروفي:

- مادمتِ أنت بخير، فحتما أنا كذلك في خير حال..

عدت تطرقين برأسك وخجلك يتضاعف.. أردت مشاغبتك فقلت في مرح:

- لمَ ترتدين حجابك زوجتي العزيزة؟



رفعت عيناك إليّ في دهشة.. علا الارتباك ملامحك للحظات، لم تردي فعدت أقول:

- أنت الآن زوجتي، صحيح شهد!.. لا ترتدي الزوجة حجابها أمام زوجها..

استمر صمتك الخجول، فضحكت ضحكة قصيرة استأنفت حديثي بعدها:

- أتذكرين عندما كنتِ في الثامنة؟.. عندما أوصلتك لمدرستك وصرختِ في وجهي أننا ما زلنا مخطوبين ولا يجوز لي لمسك؟.. حسنًا أنت الآن زوجتي، يمكنني لمسك، ويمكنك خلع حجابك في حضوري..

وانقلبت وجنتاك للونٍ أحمرٍ قانٍ وكأن دمائك تجمعت هناك.. عدت أضحك ثم انتقلت من مقعدي لأجلس إلى جوارك وأنت تتطلعين إلي في وجل.. همست بحنان:

- أتخجلين مني صغيرتي؟.. حسنًا، سأترك الأمر لك.. وقتما تشعرين أنه يمكنك فعله إفعليه، وإن استغرقك الأمر سنوات حتى زفافنا.. لا يهمني، طالما أنك مرتاحة..



انقلبت نظراتك الوجلة لتحمل امتنانًا أسعدني، فطالما أنت سعيدة أكون أنا في حالة من اكتمال البهجة والسرور..

***

هي زيارتك الأولى "وليدي"..

قلقة لم أنم ليلتي.. أفكر بك، وبماذا أرتدي، وماذا سأقول!..

أنت الآن زوجي..

نعم، رددت الكلمة أمام نفسي في المرآة عدة مرات وفي كل مرة كانت تبدو غريبة على مسامعي.. أقنعتها:

- أنت زوجة وليد السيوفي..

وهكذا أعدتها مرارًا وتكرارًا حتى اعتادها لساني نوعًا.. كوني زوجتك لم يكن يعني لي شيئا مختلفًا عن السابق.. ظننت أنها مجرد خطبة، مادمت لا أعيش في منزلك فسأبقى على التزامي السابق ولن تراني إلا بكامل حجابي واحتشامي..

والدي لا يخوض معي في تلك المسائل ووالدتك التي هي بمثابة أمي لا تفعل أيضًا..

رأيت نظراتك المندهشة بل وشبه المصدومة وأنت تتطلع إليّ عندما ظهرت أمامك وازداد خجلي.. ماذا كنت تتوقع "وليد"؟..

أرجوك لا تكن قاسيًا في حكمك، فكل ما خبرته في الحياة كان معك أنت.. حتى قابلت صديقات الجامعة وتعلمت أكثر..

ولأنك دومًا تفهمني، وتهدهدني برفق وحنو، فقد أخبرتني بطريقة لطيفة أنك زوجي.. وهذا يعني على الأقل ألا أرتدي حجابي أمامك، ثم أخبرتني أن لي مطلق الحرية في اختيار الوقت الذي يناسبني حتى وإن مرت سنوات وحان وقت زفافنا..

آه "وليدي" لو تعلم كم أحبك!..

وكم تبهجني رقتك ويسعدني عطفك وأنتشي بطيبة قلبك!..

أنت كوالدي تماما.. ربما كنت زوجتك، لكنك عاملتني كطفلتك، ولذلك أرتشف سعادة كأسها بين أصابعك..

***

لتحقيق الأحلام معك مذاق منفرد..



عزف راق لأوبرا العشق، لا تضاهيه حتى مقطوعات بيتهوفن أو سيمفونيات شتراوس..

كراقصة باليه رشيقة كنت أرقص على نغمات همساتك، وفي عالم الأميرات وقصص الحذاء البلوري وتفاحة بيضاء الثلج كنت معك أميري..

أنت أميرهم المتوج بحق، فلم يكن لأي منهم معنى في وجودك.. ولو علمت سندريلا بحروف اسمك لأتت لحفلك متجاهلة أمير حذائها الضائع، واستفاقت سنووايت بدون قبلتك لتهرول إليك متناسية تفاحتها المسمومة..

لكنك كنت لي فقط.. لي أنا.. وعذب ألحانك ملك قلبي، وبسمة ثغرك في كل ثانية تحمل معنىً مختلفًا في مواجهة عينيّ..

ربما كنت صغيرة وكنت أنت الرجل الخبير، لكنني دومًا كنت أشعر أنني أنثى ما قبل الوجود وأنت طفلي الصغير الذي يحبو في مهد عشقي.. أنت فارس العصور الوسطى، بدون حصان أو حتى زهرة، ففي عينيك جنائن الهوى، وقلبك هو جواد أنوثتي..



ولعنفوان شخصك كنت دومًا خاضعة مستكينة، أماني بين ذراعيك، وكل ما أبتغي من الدنيا هو القرب منك.. هو سُكْنَى فؤادك.. هو حبسٌ انفرادي بين ضلوعك..

في أول يوم في جامعتي رافقتني.. تركت العمل يومها لتصحبني، تعلم أنني سأطمئن أكثربوجودك، وبالفعل هذا ما حدث..

كنت تقود السيارة وعلى شفتيك ابتسامة رقيقة ومن حين لآخر تلتفت إلي لتتسع ابتسامتك وتمد أصابعك الحنون مربتًا على كفي هامسًا بصوتك الخشن عميق النبرات الذي أعشقه:

- لا تقلقي شهد.. سأكون إلى جوارك إن احتجت إلي، ولو أردتِ مني الانتظارهنا حتى تنتهي سأفعل أميرتي..

بادلتك ابتسامتك لكنك لمحت القلق في عيني، التقطت كفي ووجدتك تطبع عليه قبلة حانية أخجلتني لتتسع ابتسامتك وتهمس مداعبًا:

- أحقا؟.. أعتقد أنني أفضل القلق أكثرمن الخجل..

ليزداد خجلي وأنت توقف السيارة أمام الحرم الجامعي وتقترب مني أكثر هامسًا:





- أميرتي خجلك يدفعني لفعل ما لن يقدم إليك شيئًا سوى المزيد منه..

وبالفعل لمجرد كلمات غزلك كاد وجهي يشتعل خَفَرًا وتضحك أنت فأعود أنا تلك الطفلة الثائرة هاتفة في غيظ:

- توقف وليد.. أنا قلقة بالفعل..

أتذكر ما فعلت وقتها؟!..

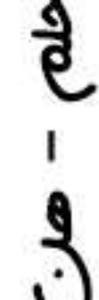
أضحك فقط لمجرد تذكر وجهك وأنت تتلفت حولك في حذر شديد كأن أحدهم يراقبك.. ثم أغرقتني في محيط الحياء العاصف عندما اقتربت أكثر وكفي مازالت أسيرة أصابعك، همستَ مشاغبًا وإن بدوتَ جادًا للحظة:

- ماذا لو قبلتُكِ الآن!.. هل ستنسين ذلك القلق؟

اتسعت عيناي وأنا أتراجع للخلف نحو باب السيارة بسرعة وأنت تحتجز كفي، كدت أصرخ عندما تساءلت في ذعر:

- ماذا؟.. هل جننت وليد؟

فوجئت بك تضحك.. ربما لم تكن مجنونًا، فقط أنا هي الغبية التي لم تعترك الحياة أو تَخْبَرُها وتتعلم منها شيئا..



كنت أنت عالمي "وليد"، وصداقات الطفولة لم تدم ولم تكن لتشكل فارقًا.. بريئة حمقاء كنت، ولم أكن أعلم معنى أنني الآن زوجتك حقًا..

بعد أن أنهيت ضحكتك المستمتعة بدهشتي وخجلي وغضبي طبعت قبلة ثانية على باطن كفي وعيناك تتغزل فيّ قصائدك الصامتة التي لا يفهمها سواي، ثم قلت بمرح:

- حسنًا.. لقد زال القلق إذًا، وبمجرد الحديث فقط، فما بالك لو فعلتها؟

ولم أعلم ما فعلته بعدها سوى أنني كنت أسابق الريح هاربة منك ومن عشقك الذي يدفع بدقات قلبي للجنون..

(٨)

في بعض الأحيان تحدث صدفة، وتلك الصغيرة تكون ممتعة مبهجة أكثر من ألف موعد كما يقولون..

صدفة تسارعت لها نبضات قلبي، عندما رأيتك أمامي وللمرة الأولى منذ أكثر من سبع سنوات.. وخصلات الكستناء الناعمة النافرة تداعب وجنتيك، وجديلة واحدة طويلة تستقرعلى أحد كتفيك..

ترتدين منامة وردية طفولية رقيقة، لا أدري كيف تماسكت وقتها ولم أقترب منك وأداعب تلك الخصلات وأعيدها لمكانها بأصابعي..

زيارة عمل اضطرارية لعمي، كنت أحمل له بعض الأوراق الهامة عند عودتي من الشركة والتي كان من الضروري أن يطلع عليها بنفسه.. جلست معه في مكتبه بالمنزل لأجدك فجأة تطرقين الباب طرقات ثلاث متتابعة مرحة ثم تفتحينه وتدخلين منه بصخب طفولي هاتفة:

- أبي.. لقد وعدتني والآن تجلس في مكتبك وتتركني...



وتوقفت الكلمات في حلقك عندما وقع بصرك عليّ أتطلع إليك بابتسامة لم أدرِ معناها.. لكنها جمعت الكثير من المشاعر المتضاربة..

بهجة طفولية تملكت مني، سعادة غامرة لصدفة عشقتها، وبعض المكر للخجل الذي اعتراكِ فجأة وأخرسك.. تحولت بعد تلك الكلمات المعدودة لثمرة طماطم ناضجة وعمي يخاطبك بابتسامة متفهمة:

- تعالي صغيرتي.. نعم وعدتك وعذرًا على تأخري، سأنهي هذه الأوراق وآتي لأغلبك في الشطرنج حالًا..

أجبته بارتباك وحروف متقطعة:

- حسنًا أبي، سأنتظرك في غرفتي..

واستدرتِ بسرعة محاولة الهرب، لكن العم أوقفك متسائلًا بدهشة بدت لي مصطنعة للغاية:

- شهد.. زوجك هنا، ألم تريه؟

عدت تنظرين نحوي بخجل وهمست:

- نعم أبي.. كيف حالك وليد؟



أجبت ببطء لم أتعمده:

- بخير.. كيف حالك أنت شهد؟

لأسمع ردك بصعوبة:

- بخيروالحمد لله..

قال العم بسرعة:

- لمَ لا تحضرين رقعة الشطرنج وتلاعبين وليد حتى أنتهي من هذه الأوراق!.. ستهزمينه شر هزيمة، أعلم ذلك..

وأعقب كلماته بابتسامة مشجعة، أومأت بعدها برأسك وأنت تركضين في بهجة طفولية جذابة.. عدتِ بعد لحظات وللعجب لم تغيري ملابسك، وكأن سعادتك باللعب معي أنستك ما ترتدين وأفقدتك حذرك السابق..

تحملين الرقعة باهتمام بعدها جلست أمامي ثم وضعتها على طاولة صغيرة بيننا، لم أرفع عيناي عنك!.. كنت أتأملك ببطء ولم أشعر حتى أنهما تطرفان كعيون البشر.. فقط مفتوحتان ثابتتان حول وجهك الملائكي، وابتسامتك البريئة المنطلقة، فجأة سمعتك تقولين في خجل:

- وليد لنبدأ اللعب.. لمَ تنظر إليّ هكذا؟



لم أكن أريدك أن تخجلي مني، فابتسمت لك وبدأت اللعب بلا عقل.. انهزمت أمامك في غضون دقائق وأنت تهتفين في مرح شاعرة بالانتصار..

لم أكن لأنهزم في حالتي العادية خاصة معك أنت.. لكنني ارتضيتها بل وسُعِدت بها، فقط لأرى تلك البهجة على وجهك..

لم أدرِ هل هزيمتي لأشعرك بالظفر أم أنها بسبب عقلي الذي تركني وسبح معك وقلبي الذي كان يحلق حولك بجناحين صغيرين..

المهم في الأمر أنك انتصرت وأنا كنت أسعد منك بذلك..

***

يا إلهي "وليد"..

دومًا كنت حمقاء مندفعة، لكنني في ذلك اليوم لم أدرك مدى حماقتي إلا عندما اندفعت داخل حجرة مكتب والدي بصخب لأجدك أمامي تتطلع إليّ بابتسامتك الحنون..

دعوت الله أن تنشق الأرض وتبتلعني، أو أن أعود بالزمن فقط لدقيقة واحدة لأتريث بعض الشيء وأتوقف عن طريقتي الطفولية..



كان أبي قد وعدني بمباراة شطرنج بعد أن أتقنت اللعبة إلى حد ما، ووالدي الحبيب يتركني أهزمه مرة ويهزمني مرة.. أعلم أنه يفعلها عامدًا ليسعدني، وعندما تأخر كنت غاضبة واتجهت إليه بسرعة لأجدك هناك!..

توقفتُ متسمرة في مكاني للحظات وعندما أفقت من الصدمة استدرت هاربة ليوقفني أبي العزيز..

كدت أهتف لمَ يا والدي؟..

لكنني سلمت عليك في خجل، بعدها طرح والدي فكرة أثارت حماستي، أن ألاعبك أنت حتى ينتهي من عمله.. كنت أعلم أنك ماهر في اللعبة، وأنني ربما سأنتهي قبل أن نبدأ، أحضرتها بسرعة وجلست ألاعبك..

طوال الوقت كنت تتطلع إليّ ولم أصدق نفسي عندما هزمتك!..

هذه إحدى حسنات العشق..

فعيناك كانتا معي.. قلبك معي.. عقلك معي..

ثم هزمتك في لعبة أنت خبير فيها.. كان هذا ممتعًا ومثيرًا للغاية، وسعادة على وجهك بفرحتي زادت من ابتهاجي بنصري الصغير أكثر..

***

كم كنت أحبك مليكتي.. ومازلت أفعل.. وسيبقى قلبي أسيرًا لك حتى تنتهي نبضاته!..

وكم كان خجلك مبعث سعادتي ورقتك يحلق لها قلبي في سماء عذوبتك.. وشراستك قطتي كانت الأفضل!.. فيصبح لون عينيك داكنًا أكثر وتلتقي شفاهك في حزم وغضب كأنك ستكسرين أسنانك في ثوان..

أتتذكرين غيرتك "شهد"؟..

كنت بأمر من أميرتي المدللة أعمل سائقًا خاصًا لها، فأوصلها لجامعتها يوميًا وأعود لاصطحابها بعد انتهاء محاضراتها..

وبعد ما يقرب من شهر من عقد قراننا وانتظامك في جامعتك أخبرتني أنك حصلت على صديقتين بالفعل.. وكم سُعِدت من أجلك صغيرتي.. فقد كنت دومًا خجول انطوائية ولا أصدقاء لك غيري تقريبًا..

في ذلك اليوم أثناء انتظاري لك خرجتِ مع صديقتين لك، كانت إحداهما يبدو عليها التحرر والانطلاق والأخرى هادئة نوعًا.. نظرتُ إليكن للحظة ثم



خفضت عيني منشغلًا بهاتفي حتى تنتهي من حديثك معهن وتأتي لنعود معًا..

فوجئت بك تطرقين زجاج نافذة السيارة مشيرة إلي، فتحت النافذة بسرعة وأنا أبتسم.. بادلتني ابتسامتي والتي احتوت على بعض الرجاء قائلة:

- وليد.. هل يمكننا توصيل صديقتيّ؟.. اليوم فقط؟.. تعطلت سيارة سلمى ولم يأتِ شقيق نادين بسبب انشغاله..

وهل يمكنني أن أرفض لك أمرًا أميرتي خاصة مع نبرة الرجاء في لحن صوتك!.. اتسعت ابتسامتي وأومأت برأسي موافقًا قائلًا باقتضاب:

- بالطبع شهد..

رأيت السعادة في عينيك كلمعة النجوم في السماء حالكة السواد، فازداد عشقي مقدارًا آخر..

أحيانًا أتساءل إلى أين سيصل بي الأمر؟..

أنا بالفعل مصاب بتخمة حبك، وأكاد أفيض به..

رحمة بقلبي صغيرتي أرجوها فبراءتك وعفويتك تسلسلني إليك بشدة..

فتحتِ لهما الباب الخلفي ثم جلست إلى جواري، قمتِ بتعارف سريع صاحبه إيماءة صامتة من رأسي لهما في المرآة وأنا أعود بعيني للطريق.. وبدأتن كأي فتيات في حديثكن والصمت يغلفني حتى بدأت إحدى صديقاتك في توجيه حديثها إليّ!..

بإجابات مقتضبة كانت ردودي وعلى الرغم من ذلك لمحت نيران الغيرة في عينيك، فحاولت التزام الصمت لكنها ظلت تجذبني للحديث مرارًا.. وأنت تكادين تنفجرين غيظًا..

تسللت يدي لتداعب أصابعك في غفلة منهما، فالتفتِ إليّ وعيناك مستعرتان بلهيب كاد يحرقني.. منحتك ابتسامة صغيرة قلقة، وعدتُ أنتبه للطريق وأنا أكاد أخاف منك طفلتي.. أتصدقين هذا؟..

مع أنني لم أخطئ في شيء!..

أوصلناهما وعدنا لمنزلك وفي الطريق بقيتِ صامتة وكلما حاولت التحدث إليك صددتني بشيء من الفظاظة.. أتذكرين ما حدث بعدها؟..

كانت من أروع اللحظات في حياتي.. توقفت أمام منزلك بسيارتي وقبل أن تخرجي منها أحكمتُ إغلاقها والتفت بكامل جسدي إليك متسائلًا في حزم:



- ماذا شهد؟.. ما بك الآن؟..

أمرتني في غضب:

- افتح الباب وليد ودعني وشأني..

أمسكت بيدك وكسوت صوتي بحزم أكبر وقلت:

- لن أفتحه حتى توضحي لي ما بك ولمَ تتصرفين هكذا؟..

سحبتِ يدك سريعًا وكتّفتِها مع الأخرى في غضب.. ثم هتفت حانقة:

- لا تدعي عدم الفهم.. أنت تعلم ما فعلت، إن كانت تعجبك فلمَ لا تتزوجها هي الأخرى؟.. يحل لك أربع كما تعلم..

وقارب حاجبي أن يلامسا شعري دهشة..

فجأة لم أجد ما أقوله أو أفعله سوى الضحك وبشدة فزاد ذلك من لهيب غضبك، أمسكت بيدك مجددًا مشاغبًا:

- حسنًا.. أيهما تقصدين؟.. أم تعنين كليهما؟

زممت شفتيك في غضب شديد ولم تجيبي سؤالي.. اقتربت منك هامسًا في مكر:



- إذًا؟.. كليهما أم ماذا؟.. ينقصكن واحدة أخرى هكذا..

صرخت فجأة:

- وليد.. أنت تثير جنوني، دعني وشأني واتركني لأذهب في الحال..

احتفظت بمكري، وسألت في لؤم:

- أحقا أثير جنونك؟.. هذا أمر رائع..

كدتِ تقتلينني وقتها صغيرتي..

ولكن ماذا بوسعي أن أفعل وأنت تأتين بصديقتيك لتقديم خدمة لهما، ثم تحاول إحداهما جذبي لحديث بينكن.. وعلى الرغم من ردودي المقتضبة الباهتة تغضبين مني، وتلقين على رأسي بالتهم جزافا!..

لكنني لم أغضب، بل وكدأبي معك.. فقط ازددت لك عشقًا، صمتِ أميرتي ولم أفهم ما يدور في ذهنك!.. لكنك كنت تتطلعين إليّ بطريقة غريبة سألتني بعدها ما لم أتوقعه:

- وليد.. هل يمكنك أن تتزوج غيري فعلًا؟



كان سؤالك طفوليًا أكثر منه لأنثى غيور.. رغبت في استفزازك أكثر فأجبت بما أعرف تأثيره عليك جيدًا:

- وهل تزوجتك أولا لأتزوج غيرك ثانيًا؟.. مازلنا في مرحلة عقد القران شهد..

وابتسمتُ في خبث.. عدت تسألين في براءة شديدة الإغراء:

- إذًا لم يقولون أنني زوجتك؟.. وأنت تصدِّق على كلامهم؟

لم أكن أعلم أن سؤالك ماكرًا كقطة ظريفة تلعب معي!..

لكن إجابتي هي التي لم أتوقع أن تصدر مني وقتها.. فقط وجدتني أفعلها دون وعي، ودون أن أقلق بشأن رد فعلك، على الرغم من كونه أمرًا عاديًا.. لقد تلفتُ ناظرًا حولي بدقة ثم اقتربت منك أكثر لأهمس في خفوت شديد:

- ربما لأنه يمكنني فعل هذا..

وبشفتي أخبرت شفتيك قصيدة عشق أخرى نظمتها في قلبي منذ ولدتِ صغيرتي..

كانت خاطفة.. خافتة.. ناعمة.. لكنها كانت قاصمة لقلبي المتيم بك..



وجدتك تتطلعين إلي في شيء من الرهبة، القلق، والكثير الكثير من الخجل.. حاولتِ فتح الباب مجددًا فأطلقت سراحك وقتها.. لأحلق بعدها في خيالي معك..

***

تلك كانت الأولى "وليدي" لكنها لم تصبح الأخيرة..

اعتدتها أنت وتقبلتها أنا..

ربما لم تدرك أنني بت أعلم الكثيرعن المرحلة التي نمربها!..

صديقاتي الجدد أرينني عالمًا جديدًا كنت سأدرسه معك فقط، في الغالب كان هذا جيدًا لك..

أشعَرْنِي بأنوثتي التي بدأت أستكشفها فجأة، خاصة في حضورك.. يومها شعرتُ بالغيرة.. كدت أقتلك وأقتل "سلمى" التي كانت تحاول إثارة غيرتي عن عمد..

نعم أعرفها وأعرف لما فعلت ذلك!..

ربما لأنها حاولت دفعي لإغوائك.. وأنا رفضت!..



كانت جريئة تمتلئ بالحيوية والتهور، أخبرتني أنني زوجتك ومن حقي وحقك معًا بضعة أشياء.. أخبرتني أيضًا أنه يمكنني دفعك لتنفيذ أحدها، لكن خجلي تغلب عليّ واتهمتها بالجنون..

كيف أقوم بإغواء رجل مثلك!..

كنت خائفة، قلقة، وأجبن من أن أحاول.. لكن تلك اللعوب نفذت خطة بسيطة دفعتني دفعًا للتدلل عليك.. فسؤال غبي انتهى بقبلة صغيرة!..

كانت سريعة لكنها أكثر من كافية لينتفض قلبي بعنف وأحاول الهروب من أمامك من جديد.. وأحببتك أكثر عندما علمتَ مقدار خجلي وتركتني حرة لأرحل وأختفي من أمام ناظريك بسرعة..

***

لم أكن يوما ذئبًا "شهد"..

وقلبي الصغير من ممتلكاتك منذ عرف معنى النبض الحقيقي..

براءتك صغيرتي كانت تثبتني في مكاني كثيرًا.. كنت أخاف عليك، أخشى أن أؤذيك ولو حتى بشيء بسيط قد يقلقك أو يخيفك..

لكنه القلب ثانية..



هل بعد ما تذوقت ثمار الجنة يمكنني أن أقلع عنها؟..

ولتكن إجابتك صريحة معشوقتي.. بالتأكيد هذا مستحيل..

ولأنك الأولى في حياتي وأنا رجلك الأوحد كانت كل همسة أو لمسة بيننا بمذاق فريد.. ولرحيق أنفاسك عندما امتزجت بأنفاسي نكهة لا تضاهيها أخرى.. بدأتها خاطفة صغيرة ثم أدمنها القلب وتعلقت بها الشفاه، فقط لتعانقك دومًا بشغف تتركين بعده قلبي يصارع نوبة جنون تالية..

كل لفتة منك وكل نظرة تصبح هي مصدر أحلامي في ليلي حتى ألتقيكِ في اليوم التالي.. فأعود لفراشي بمخزون جديد من لمحات عشقك أميرتي، وتصبح همستك بـ"أحبك" هي آخر ما أسمعه يداعب أذني برفق..

لتكوني ملكة حلمي الجديد بلا منازع..

تمر أيام وتكبرين، وعشقي لك يكبر معك يومًا بيوم.. غيرتك تزداد معه لحظة بلحظة.. أحيانا كنت أحبها وأسعى إليها لأنني أعلم إلى أين سينتهي بك المطاف بعد ثورتك، فقط بين ذراعي تداعبك تلك الطبول التي يقرعها قلبي بعنف أسفل أذنك..

وأحيان أخرى كانت تغيظني وتشعرني كم أنت طفلة!..



لكنها في كل الأحوال كانت رائعة.. وتجذبني نحو الغرق في بئر حبك أكثر وأنا لا يهمني ذلك مادمت معك.. فأتخلى عن قدرتي على السباحة لأجل عينيك فقط، ولا أقبل حتى طوق نجاة..

***

أحيانًا "وليد" نصطدم بالكثير من الأمور في يومنا، لنجد أننا وعلى الرغم من أعمارنا ومما وصلنا إليه مازلنا نحبو في مهد خبرات الحياة..

وقد تكون الصدمة أكبر عندما تأتي من أقرب المقربين منك، لتجد أنك لا تعلم شيئًا عن حالة يفترض أنك تمر بها..

في تلك الليلة سمعت والدي يحادث والدتك في الهاتف ويطلب منها الحضور لمنزلنا لأمر ضروري.. لم أحاول الاستفسار أو التدخل خاصة أنه أكد عليها الحضور وحدها ولكن عندما أتت وجلست معه في مكتبه استغربت الأمر!..

قررت التوجه إليهما ومحاولة الفهم.. بعض الفضول غلبني في تلك اللحظة، وعندما مددت يدي لأطرق باب المكتب سمعت اسمي مقرونا باسمك وبكلمة..



"لا تفهم"..

لم أدرِ ما حدث لي وقتها.. لكنني سحبت يدي إلى جواري ثانية، ووقفت إلى جوار الباب الموارب قليلًا لأسمع والدي يتم جملته في شيء من الخجل:

- الفتاة وحيدة كما تعلمين أم وليد.. وعدم فهمها ذلك يؤرقني، أخاف عليها من المستقبل، من ليلة زفافها حتى..

ردت والدتك بخجل هي الأخرى:

- لا تقلق عبد الله.. وليد يعشق شهد، ولن يؤذيها أبدًا..

انعقد حاجباي.. أي إيذاء تتحدث عنه، وما مشكلتهما مع زفافي؟.. لأنصت ثانية لوالدي وهو يقول:

- ما رأيك أم وليد لو تحدثتِ معها قليلا!.. وشرحت لها عن هذه الفترة ومعناها ومسؤوليات الزواج وخلافه!.. الفتاة تتعامل مع زوجها كطفلة، أعلم أن وليد يتقبل منها ذلك ولا يتضايق.. لكنني أخشى أن يستمر الأمر ويطول معها، وأنت كوالدتها.. تحدثي معها، واشرحي لها قليلًا معنى فترة عقد القران والزواج..

شعرتُ بالخجل يكتنفني بشدة.. هل أنا طفلة لهذا الحد؟..





والدي العزيز يطلب من زوجة عمي ووالدة زوجي أن تتحدث معي في أمور الزواج!..

يا إلهي.. كدت أدعو أن تبتلعني الأرض في هذه اللحظة ليقاطع أفكاري طرقات يدك على بابنا.. تواريت بسرعة وأنا أتطلع إليك متجهًا لمكتب والدي..

رباه ماذا ستظن عندما ترى والدتك بالداخل؟..

كان موقفي حرجًا للغاية، فعدت لغرفتي بشبه ركض وأغلقتها على نفسي والخجل يحوطني بردائه أكثر..

***

أتيت لمنزلكم في تلك الليلة لإنهاء بعض المسائل المعلقة في العمل..

بعض الأمور تحدث دون أن ننتبه لها، لكنها على الرغم من ذلك تبقى عالقة في الذاكرة حتى يحدث ما يستوجب استدعاءها..

طرقت بابكم وسألت عن عمي، لترشدني خادمتكم إلى مكتبه بهدوء.. وكانت المفاجأة أن والدتي هناك!..



لم أفهم وقتها ما الذي كانت تفعله عندكم وحدها ودون أن تخبرني أولًا لآتي معها!..

لكنني لم أكترث للأمر، فقط شعرت بارتباكهما قليلًا لوجودي المفاجئ، تغاضيت عن ذلك وهتفت في مرح:

- أمي.. ماذا تفعلين هنا؟ لم تخبريني أنك آتية، كنت سآتي معك..

ابتسمت والدتي في هدوء ثم وقفت وقالت وهي تتجه نحوي:

- كنت آتية لأجلس مع عروسك قليلًا.. ثم مررت بعملك لإلقاء السلام، هيا أنهِ عملك الذي أتيت من أجله وسأذهب أنا لشهد لبعض الوقت.. نادني لنعود سويًا عندما تنتهي..

بادلتها ابتسامتها وقلت لها هامسًا:

- لمَ لا آتي معك لعروسي؟.. ونؤجل العمل لوقت آخر..

ضحكت الحبيبة ثم شدت أذني في مرح وردت:

- تهذب وليد.. والدها يجلس أمامك..

لنضحك سويًا والعم يشاركنا..



توجهتْ هي إليك وأنهيتُ أنا عملي مع العم، وكنتِ في وداعنا صغيرتي..

وحمرة رقيقة تغزو وجنتيك لم أدرِلها سببًا، فقط زادتك روعة، وأصابت عيناي بالحزن لأنهما تودعانك حتى الغد..





(٩)

أحيانا "وليد" أكون سببا في غضبك وغيظك.. بل ربما في الغالب، وتلك المرة لم يكن مجرد غضب..

إنما تطور الأمر لتمرض بشدة وبسببي!..

كم مرة تسببت في ذلك معك حبيبي؟..

خاصمتَ أحد أصدقائك ولكمتَ ابن خالتي وكسرتَ ساقك، وهذه المرة كانت حمى شديدة بلغتْ فيها حرارتك الأربعين..

حدث هذا في شتاء عامي الجامعي الثاني، أوصلتني كعادتك في الصباح واتفقنا أن تعود إلي بعد انتهاء محاضراتي في ذلك اليوم والذي كان من المفترض أن يكون في الرابعة عصرًا..

لكن في منتصف اليوم علمت أننا مضطرون لحضور محاضرة جديدة موعدها الأساسي في الغد.. و المحاضر اضطر لتغيير الموعد، بالتالي سأتأخر لساعتين أخريين..



عندما حاولت الاتصال بك وجدت هاتفي كجثة هامدة، فرغت بطاريته وأصبح مجرد قطعة صماء من المعدن لا فائدة ترجى منها.. فكرت كثيرًا في الاتصال بك من هاتف إحدى صديقاتي لكن أصابعي وقلبي وعقلي اتحدوا جميعا ضدي ومنعوني من مجرد التفكيرفي الأمر..

كيف سأترك رقم هاتفك الخاص على هاتف إحداهن؟..

غيرتي الحمقاء تتحكم بي ثانية ودعوت الله في نفسي أن تتأخرلأي سبب..

من حظي السيء كان اليوم عاصفًا باردًا مطيرًا.. أنهيت محاضرتي وخرجت مع صديقاتي لأجدك أمامي والغضب يرتسم بأوضح صوره على ملامحك، ملابسك مبللة للغاية والماء يقطرمن شعرك..

لا أخفيك أنني شعرت بالرعب..

نعم أخشى غضبك "وليد" وأعلم كم أنت عصبي حد الجنون..

اقتربت منك في وجل بعدما ودعت صديقاتي لتقبض على معصمي بقوة آلمتني هاتفًا في غضب:

- لمَ لم تتصلي بي شهد لتخبريني بتأخرك؟.. تريدين إصابتي بالجنون؟

لم أفهم قصدك بالضبط وعن أي جنون تتحدث لكنني همست في خوف:

- فرغت بطارية هاتفي وليد.. آسفة..

كنت تضغط أسنانك بشدة وأصابعك مازالت تعتصر معصمي، لم تتحدث ثانية فقط جذبتني في خطوات أقرب للعدو نحو سيارتك وصفقت الباب خلفي في عنف أفزعني..

كان الغضب على وجهك وأنت تدور حول السيارة لتتخذ مقعد السائق مخيفًا للغاية.. وكلما حاولت الحديث توقفت الكلمات في حلقي..

أوصلتني للمنزل وتوقفت أمامه بدون أن تنطق حرفًا واحدًا، همست لك في أسف:

- آسفة وليد.. أرجوك لا تغضب، حالت الظروف دون إخبارك..

نظرة لاهبة أخرى ألقيتها عليّ ثم قلت في صرامة:

- وصديقاتك؟.. فرغت هواتفهن أيضا؟.. لمَ لم تستخدمي هاتف إحداهن لتطمئنيني عليك!.. كدت أجن وأنا أبحث عنك والمطريغرقني..

خفضت عيني في أسى، لم أدري كيف أخبرك بالأمر!.. لكنني لم أجد سببًا آخر لأقنعك به، عدت أرفع عيني إليك ببطء وأنا أهمس في خجل:

- لم أستطع وليد.. شعرت بالغيرة..



وتلك النظرة على وجهك أخافتني أكثر، لم أفهم معناها!.. لكنك ضحكت فجأة وأنت تتساءل:

- غيرة شهد؟.. مم تغارين بالضبط؟

هززت كتفي في دلال طفولي يخصني وحدي، وهمست ثانية لأجيبك:

- لم أرد أن أترك رقم هاتفك عند إحداهن..

والصمت غلفنا ثانية، عاد الغضب يرتسم على ملامحك لتصرخ في مجددًا:

- شهد كوني أعقل قليلًا وتوقفي عن تلك التصرفات الطفولية.. لم يهمك شعوري بالقلق أو فزعي لأنني لم أجدك.. انتظاري وتوتري!.. لتقولي شعرتُ بالغيرة، لا أكاد أصدق شهد..

لم أجد ما أقوله..

شعرت بغضبك، وكنت تضحك قبله بثوان، خاصة مع ملابسك المبتلة وشعرك الملتصق بجبينك..

بدوت وكأن حالة من الجنون المؤقت قد أصابتك!..



مددت يدًا مترددة لأمسك كفك محاولة نيل رضاك لأجدها تكاد تشتعل بين أصابعي.. تطلعت إليك وأنا أنتفض ثم هتفت:

- يا إلهي وليد.. حرارتك ارتفعت بشدة، هيا تعال معي،، لن تعود لمنزلك هكذا..

بدوت وكأنما انتبهت لحرارة جسدك فجأة!.. فعقدتَ حاجبيك وهززت رأسك رافضًا وأنت تقول:

- لا عليك.. سأعود للمنزل وأغير ملابسي، سأكون بخير..

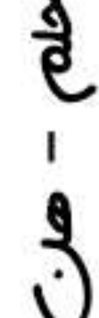
إحساس الذنب الذي يتغلغل بداخلي جعلني أصر على أن تأتي معي..

فجأة وجدت والدي خارجًا من المنزل متجهًا نحونا والقلق يبدو على ملامحه هو الآخر.. نعم إنه يوم تأنيبي العالمي!..

استعددت لتلقي كلماته في صمت، لكن فجأة تذكرت ما بك فهتفت أخاطبه:

- أبي.. وليد مريض بشدة ويرفض الدخول..

توقف لثانية وارتج عليه قليلًا ثم عاد يقترب مني وينحني نحو نافذة السيارة وأنت ترد:



- لا تقلق عماه أنا بخير.. فقط تلقيت بعض المطر على رأسي، سأعود للمنزل لأغير ملابسي وسأكون بخير..

رد الحبيب بحزم:

- ماذا حدث وليد؟.. هيا لا تجادل وتعال معنا..

ثم دار حول السيارة ليتجه نحوك فاتحًا الباب المجاور لك وهو يمد يده ليمسك بيدك ليهتف هو الآخر في قلق:

- وليد بالفعل حرارتك مرتفعة للغاية.. هيا معي يا بني..

عدتَ ترفض مرة أخرى وقبل أن تنطق كنت أقول في غيظ:

- وليد.. هيا، أنت مرضت بالفعل..

لتنظر إليّ بدهشة جعلت الدماء تترك كامل جسدي وتتمركز في وجنتاي..

لكنني حقًا كنت قلقة للغاية وأنت تتدلل.. بعد إلحاح مني ومن والدي نزلت من السيارة مرغمًا واتجهت لغرفة الضيوف، أحضر لك والدي منامة تخصه وبعض الأقراص الخاصة بالبرد..





حادثت أنا والدتك لأخبرها، بعد دقائق أتت هي وعمي ورغبتَ في الذهاب، كدتُ أقتلك وقتها..

أنت لا تكاد تقف على قدميك وتريد الخروج من المنزل في هذا الجو العاصف!..

والدتك أخبرتك أنه من الخطأ أن تخرج بهذا الشكل، وطلبت منك أن تبقى حتى اليوم التالي..

ثم كانت ليلة طويلة!..

حرارتك ارتفعت أكثر بعدها بدأت تهذي، ظللت أنا ووالدي ساهرَين إلى جوارك.. ولم أستطع الصبر، عند منتصف الليل طلبت من والدي أن يحضر طبيبًا لأنك بدوت غائبًا عن الوعي وحرارتك لا تنخفض أبدًا على الرغم من الدواء والماء البارد..

أتى الطبيب ليزيد من قلقي، لقد أصبت بحمى وتحتاج للراحة لفترة لا تقل عن أسبوع.. مع متابعة بالأدوية التي وصفها لك والكمادات الباردة باستمرار، أخذتُ على عاتقي أمر الاهتمام بك..



كنتُ السبب فيما حدث لك "وليد" وظللت أؤنب نفسي طيلة الليل، حتى بدأ جفناي في التثاقل وتمدد والدي على أريكة في الغرفة وذهب في نوم عميق..

في اليوم التالي لم يكن حالك أفضل.. أتت والدتك لتبقى إلى جوارك لبعض الوقت ولم أذهب للجامعة في ذلك اليوم..

عندما حل الليل رحلت والدتك رغمًا عنها فقد كانت قلقة بشأنك كثيرًا، لكنني وعدتها بالاهتمام بك.. لتأتي ليلة أخرى وأنت على هذيانك وحرارتك المرتفعة، تتناثر الأحرف من بين شفتيك بلا رابط وترتعش..

لم أنسى ما فعلته وقتها!..

ظل الخجل يعتريني كلما قابلتك بعدها لوقت طويل، لكنني كنت أعلم أنك لم تكن في وعيك..

فعند الفجر ذهب والدي للصلاة وبقيتُ أنا معك حتى يعود لأصلي أنا..

للحظات ساد الصمت ثم وجدتك فجأة تنتفض في فراشك وتهذي مجددًا، هذه المرة سمعت حروف اسمي بوضوح.. سمعتها مقرونة ببعض كلمات العشق التي لم أسمعها منك مطلقًا!..



انتابني بعض الخجل الممتزج بالقلق واقتربت منك لأتحسس رأسك.. بدوت في هذيانك كأنك مصاب بنوبة جنون أخافتني!..

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي بين ذراعيك المطبقتين عليّ بقوة وهمسك يعلو باسمي..

أردت تنبيهك وطمأنتك أنني إلى جوارك وقبل أن أنطق أخرستني بشفتيك!..

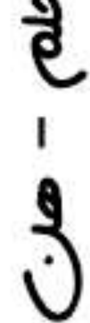
يا إلهي "وليد" لم أكن أتخيل أن يحدث ذلك منك أبدًا..

حاولت الابتعاد عنك بسرعة لكنك تشبثت بي بقوة، ووالدي قد اقترب موعد عودته..

بدفعة أخيرة ابتعدت وقلبي ينبض بعنف، وأتى العزيز في هذه اللحظة لأحمد ربي أن تأخرلتلك الثوان..

تركت الغرفة بسرعة وتوتري قد بلغ أوجه أمام عيني والدي المندهشتين!..

وقبالة مرآتي ظللت أتطلع لنفسي ولوجهي المحمر، تحسست شفتاي في حياء، أتذكرهمساتك ومازلت أشعربدفء ذراعيك حولي..



كان الأمر غريبًا مثيرًا للخجل بشدة، وعندما تعافيت بعد يومين كنت عندما أتطلع إلى وجهك أتذكر ما حدث فتندفع الدماء نحو وجهي مرة بعد مرة وأنت تتأملني في دهشة من لا يفهم شيئًا..

ثم أحتاج بعدها لبضع ثوانٍ تكون أكثر من كافية لأن أهرب من أمامك وقتها..

***

في ذلك اليوم "شهد" كدت أقتلك عندما لمحتك خارجة من أحد المباني الملحقة بكليتك..

الجو مطير عاصف، وأنا أجلس في سيارتي في انتظار قدومك لكنك فقط لم تأتِ!..

بدأ القلق ينهشني، أين ذهبتِ؟..

موعد محاضراتك انتهى منذ أكثر من نصف ساعة وأنت لم تظهري بعد!..

غادرت السيارة في حنق لأبدأ البحث عنك والمطر يشتد من لحظة لأخرى حتى أصبح كالسيل..



لأكثر من ساعة ونصف أدور حول المباني، أتفحصها وأدخل بعضها حتى وجدت أحدهم لأسأله عن فرقتك فقط لأعلم أنك في محاضرة مفاجئة في مبنى خلف كليتك..

انتابني الغضب وانتويت عقابك بشدة عندما أجدك..

بعد دقائق انتظار ازداد فيها غيظي رأيتك تخرجين مع صديقاتك، عندما لمحتني توجهتِ إليّ والخوف يبدو على ملامحك.. شعرت بالشفقة نحوك، بدوتِ مرتبكة للغاية لكن لم يمكنني التغاضي عن الموقف الذي وضعتني فيه..

قلق حد الجنون وملابسي أغرقتها مياه المطر، بدأت أشعر أنني أكاد أغلي من الغضب.. تجاهلتُ اعتذاراتك وسحبتك خلفي بسرعة، أمام منزلك حاولتِ إبداء أسفك مجددًا وأنت تخبرينني أنك شعرتِ بالغيرة!..

تعلمين كم تسعدني غيرتك فابتسمت لأعلم بعدها سبب غيرتك فيشتعل فتيل حنقي واستيائي من جديد..

كانت بعدها لمسة كفك المعتذرة فقط لأعلم أن المرض سينتابني حينها، وبعد إصرارك والعم على دخولي لمنزلكم غبتُ عن الوعي..



لم أعلم مقدار الوقت لكنني عندما بدأت في التعافي كان قد مر على مرضي أربعة أيام وكلما نظرت نحوك وجدت وجهك يكاد يشتعل خجلًا!..

لم أفهم لمَ حتى مر أسبوع عدت بعدها لعملي وأنت لجامعتك.. في اليوم الأول وأنا أوصلك بقيتِ صامتة طوال الطريق.. أتذكرين؟..

كانت الدهشة تملؤني والحيرة وعدم الفهم هما رفيقاي!..

ودعتك على عجل بسبب تأخري على عملي ولكن في طريق عودتنا لم أستطع تحمل الصمت والسكون المخيم فوق رأسينا أكثر فأخذت طريق أحد المطاعم التي تفضلينها وأنت على صمتك بدون تساؤل صغير حتى..

بعد استقرارنا على مائدتنا في ذلك الركن المنزوي الهادئ تطلعت إليك مباشرة وسألتك:

- حسنًا.. أخبريني ما الأمر؟

عاد وجهك يتورد بحمرته ثانية ثم تخفضين عينيك أرضًا وأنا أزداد عشقًا لهيئتك البريئة تلك.. همهمتُ بعدها:

- إممممم.. إذًا!..

وصوتك بالكاد يصل لأذني، بخفوتٍ شديدٍ همستِ:



- لا شيء وليد.. ما بك أنت؟

تلمست طريقي لكفك الصغيرة فاحتضنتها بين أصابعي ببطء وهمستُ أنا أيضًا:

- لا شيء بي صغيرتي.. أنتِ فقط تتطلعين إليّ بخجل شديد كلما رأيتني، وظللت صامتة على غير عادتك طوال طريق ذهابنا لكليتك وطوال طريق مجيئنا إلى هنا.. إذًا لا تقولي لي لا شيء!.. كوني صريحة وأخبريني ما الأمر؟

لاحظتُ التردد الشديد على وجهك.. ووجنتاك!.. يا إلهي تكادان تنفجران وكفك ارتعشت في يدي، ربتُّ عليها برفق وأنا أشعر بالدهشة قائلًا:

- ألهذه الدرجة الأمر مثير للتوتر والخجل؟

أومأت برأسك في صمت أن نعم.. وهنا كاد فضولي يقتلني، سألتك بصيغة آمرة هذه المرة:

- أخبريني شهد..

سحبتِ يدك وبدأتِ تفركينها مع الأخرى في ارتباك ثم بصوت شديد الخفوت ميزت منه أحرفك بصعوبة همستِ:

- وأنت محموم في منزلنا...



صمتِ بعدها فأثرتِ فضولي أكثر، اكتفيت بأن أحثك بهدوء:

- حسنًا.. ماذا حدث؟

أجبتني بهمس خافت التقطت أحرفه بعد تركيز:

- كنت تهذي باسمي وتتمتم بكلمات لم أسمعها منك من قبل..

لم أفهم ما المشكلة فعدت أتساءل وأنا أهز رأسي:

- و....

هززت كتفيك في صمت، لأسألك ثانية:

- هل كانت تلك الكلمات سيئة لهذه الدرجة؟

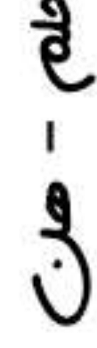
ابتسمت في خجل وأجبتني:

- لا، هي فقط.... كما تعلم، أعني.... لم أعتدها..

خمنت مقصدك فسألتك في مكر:

- إذًا لمَ لم تحاولي تنبيهي؟

وها أنت ترتبكين مجددًا، لتطفو التخمينات لعقلي لكنني انتظرت ردك لأتأكد، بعد ثوان قلتِ:



- حاولت.. وعندما اقتربت منك محاولة طمأنتك أنني إلى جوارك، لم تعطني الفرصة لقول كلمة واحدة..

نعم هذا ما خمنته، فقط رغبت في استفزازك أكثر.. فسألت ثانية:

- كيف لم أعطكِ فرصة؟

بسرعة ألقيتِ حملك الثقيل على أذني وكأنك فقط تبغين الخلاص منه:

- لقد احتضنتني وأنت تهذي باسمي ثم....

ولم تتمي جملتك.. بل صمتِ ثانية في تردد ثم لمستِ شفتيك بأطراف أصابعك بسرعة وأنت تعاودين خفض عينيك أرضًا..

فهمت ما حدث وكدت أضحك.. حقًا!..

طفلتي الصغيرة تخجل مني بسبب أمر لم أكن واعيًا عندما قمت به!..

ومصيبتي الأكبر هنا حقيقة أنني بالفعل لم أكن في وعيي!.. همستُ لنفسي "أحمق" لأجدك تحملقين فيّ بدهشة.. ابتسمتُ لك هامسًا:

- نعم أحمق.. كيف غبت عن الوعي آنذاك!



ها هو الخجل يعتريك بشدة من جديد، لم أستطع منع نفسي من السؤال:

- حسنًا.. كيف كانت؟..

اتسعت عيناك بشيء من الرعب وأنت تنظرين إلي.. بدوتِ كطفلة مضحكة ولم أقاوم إطلاق ضحكة قصيرة خافتة قلتُ بعدها في خبث:

- ما رأيك في إعادة التجربة بدون حمى هذه المرة؟

كدتِ تصرخين في وجهي أعلم.. وأوشك الخجل أن يقتلك فحاولتُ التخفيف عنك قائلًا في مرح:

- صغيرتي.. تقبلي اعتذاري، لم أكن أعلم ما أفعل حينها!.. كنت مريضًا أهذي كما تعلمين..

ابتسمتِ في حياء.. وعيناي تطوقانك في حب، وتقصان على عينيك قصة كُتِبت عنا قبل ميلاد الهوى.. لتصبحي أنت حاكمة مملكة العشق الكوني ومن قبل الوجود..

***

في بداية عامي الجامعي الثالث..



كنت أشعر بانتمائي إليك أكثر.. وكثيرًا ما أحسست بك كأبي بل وفي حنان أمي..

أيضًا كان لابد من لحظات غضب ومشاكسات بيننا، تضفي بعض الملح على علاقتنا كما يقولون..

وهي كانت ملحًا زائدًا قاتلًا!..

نوبة جنون صارخة انتابتني عندما رأيتها لأول مرة.. فاتنة، شعرها الحالك كليلة بلا قمر ينسدل بنعومة على كتفيها.. عيناها الرماديتان كعيني قطة غاضبة، أنفها المستقيم الدقيق وشفتيها المكتنزتين والمضمومتين في وضع إغواء دائم..

بشرتها وردية تتنافر بشدة مع شعرها اللامع وصوتها الذي اجتمعت فيه كل نعومة الأنثى.. ملابسها جريئة، ضحكتها ماجنة، وابتسامتها لعوب!..

كيف لها أن تعمل معك "وليد"؟..

لقد جننت حتمًا.. بررت لي يومها أنها مساعدة نشطة وماهرة..

رأيت كيف تنظر إليك!..

وضحكتها التي لا يمكن أن تطلقها أنثى إلا في غرفة نومها.. نظراتها ولفتاتها، هي تريدك أنت.. ويبدو أنك مستمتع بالأمر!..

لابد أنك قد جننت ألا تلاحظ كيف تتطلع إليك وتتحرك متمايلة أمامك!..

بدت للحظات وكأنها تتحداني عندما عدت معك للشركة بعد جامعتي لأمر هام لم تستطع تأجيله.. كم شعرت بأنني طفلة أمام تلك الأنثى مكتملة النضوج!..

أنا بملابس جامعتي المتربة وحجابي المحتشم.. وهي تستعرض مفاتنها لك!..

كانت سببًا آخر في مشادّة بيننا في طريق عودتنا للمنزل.. ولأول مرة أراك عصبيًا!..

بعدها أصبحت في برودة القطب الشمالي.. أخفتني "وليد"، وأنا أصرخ كطفلة أمامك وبرود أعصابك يكاد يصيبني بجلطة.. فجأة هتفت فيّ بصرامة ألجمتني وأثارت فزعي لثوان:



- كفى شهد.. هذا عملي وهي مساعدتي منذ أكثر من عام، لن أفصلها من عملها لمجرد غيرة زوجتي.. خاصة أنها لم تخطئ..

عصبيتي تزداد وأنت كلوح ثلج يجاورني.. عدت أقول في حنق بنبرة بدت لي طفولية للحظة:

- لمَ لم تتخير منذ البداية من يعملن معك وليد!.. ألم ترَ ملابسها وطريقتها؟

أجبتني ببرود:

- لا لم أرَ شهد.. ولن أرى.. لا تلفتي انتباهي أنت فتجبرينني على النظر..

شهقت في صدمة.. كنتَ متبجحًا ولأول مرة تعاملني وتحادثني بهذه الطريقة، فجأة وجدتك تكمل في خبث شديد:

- حمدًا لله أنك لم تريها عند بداية عملها.. لقد أصبحت أكثر احتشاما الآن بعد تأنيبي لها..

ثم نظرت إلي نظرة متفحصة أثارت استيائي بشدة..

فقد شعرت أنك تقارن بداخلك بيني أنا الصغيرة التي خرجت للتو من طور الطفولة، وبين تلك الفائرة الضاجة بأنوثتها..

كدت أبكي للحظة..

التزمت الصمت وأدرت وجهي أتطلع للطريق في غضب، وعند وصولنا لمنزلي عندما حاولت فتح باب السيارة لأغادرها وجدتك تمسك بكفي بسرعة..

التفت إليك ودموعي تكاد تعانق وجنتي، لأجد ابتسامتك الحنون تداعب عيني برفق.. رفعت حاجبيك وهمست:

- أحبك شهد..

وفجأة لم أستطع التحكم في دموعي، بعدها كنت أبلل قميصك بها وأنت تضمني في صمت، عدت تهمس لي:

- أحبك يا حمقاء..

لأبتسم ودموعي تجف في مقلتي.. أبعدتني وكبلت عيني بعينيك مكملًا:

- لا تنسي ذلك أبدًا.. أبدًا..

داعبتك بهمسة طفولية أخرى:

- سأحاول..



طبعت قبلة على جبيني وقلت بابتسامة:

- وهذا هو كل ما أريده منك..

ثم داعبت أنفي بطرف إصبعك وأنت تهمس مستطردًا بمكر أحبه:

- في الوقت الحالي على الأقل..

ليضمني رداء خجلي مجددًا دافعًا إياي للهرب من أمامك كصاروخ صغير.. وقلبي ينبض بنبضة زائدة عاشقة..

***

وكما أنت مجنونة صغيرتي كنت أنا أكثر جنونًا..

لم أكن لأنتبه لشكلها أو جمالها مطلقًا، هي فقط امرأة كغيرها من النساء..

جميلة أو لا.. لا يهم!..

أتعلمين أنك عندما تنظرين إلى الشمس تتضرر عيناك.. وبشدة، هل جربت الخروج للشارع في ضوء الشمس وحرها الشديد ثم عدتِ للمنزل!..

ماذا سترين أمامك بالضبط؟..

دعيني أجيبك.. لا شيء.. بالفعل لا شيء!..

كل الموجودات تبدو كأنما تظللها غيمة داكنة حتى تعتاد عيناك ضوء المكان الجديد..

وكنت أنت شمسي اللاهبة أميرتي..

حجبت عني كل ما عداها، لكن تلك الصغيرة تفتأ تذكرني بغيرها حتى انتبهت بالفعل..

لا أريد أن أقول أنني لا أراها جميلة..

هي فاتنة، وتعلم جيدا أنها كذلك.. بل وتجيد استخدام فتنتها!..

في اليوم التالي لمشادتنا ظللت أتطلع إليها بصمت لثوان لاحظته هي ثم خفضت عيني بعيدًا عنها حتى اقتربت هي مني متسائلة بدلال لم يرق لي:

- هل افتقدتني منذ الأمس سيد وليد؟

عقدت حاجبي ثم نظرت لها في دهشة!.. قلت في صرامة بعدها:

- ماذا تقصدين ضحى؟





جلست أمامي بطريقة أثارت استيائي وعادت تقول بصوت كالفحيح:

- أنت تنظر إلي بشدة.. صحيح؟

أغضبني أنها لاحظت تطلعي إليها.. فكان ردي حاسمًا:

- بالفعل ضحى.. لا يعجبني ما ترتدين، لمَ لا تكوني أكثر احتشامًا؟.. هنا مقر عمل وليس ناديًا للسهرة..

ربما صدمها ردي، لكنني لم أمهلها وقتا لترد.. بل أكملت بحزم:

- عملك هنا يتوقف على طريقتك في تأديته وشكلك كذلك.. هذا تحذير أخير ضحى.. وحتى ننظر ماذا ستفعلين سيتم نقلك لمكتب الأستاذ شوقي بعد البحث عن مساعد آخر لي..

رفعت حاجبها في سخرية، ووقفت بطريقة رسمية وردت بمكر:

- حسنًا يبدو أن زوجتك تغار عليك بشدة.. فلم تكن تنتبه لما أرتدي أو حتى تنظر إليه.. هل نبهتك لذلك وطلبت أن تبعدني؟.. أنت تحبها.. صحيح؟..



انعقاد حاجبي الصامت ونظرتي الصارمة القاسية أنبأتها أنها خاضت فيما لا ينبغي أن تخوض فيه.. فعادت ترفع أحد حاجبيها ثم خرجت من مكتبي ببطء مستفز جعلني أناديها ثانية:

- آنسة ضحى..

التفتت إلي بتساؤل وابتسامة لزجة، استطردت أنا في حزم:

- عملك هنا يتوقف أيضا على تنفيذك للأوامر.. فلا تتغاضي عن أوامري أو تهمليها لأن العواقب ستكون وخيمة..

توترت للحظة ثم قالت بطريقة عملية:

- أمرك سيد وليد.. بإذنك..

لم أهتم أو حتى أستمع لما قالته.. فقط عدت لأوراقي وهي تغادر مكتبي غاضبة، وقلبي ينبض باسمك طفلتي..



(١٠)

طفلة أنا ربما "وليدي" لكنني معك كنت دوما أشعر باختلاف..

وعندما قصصت على صديقتي ما حدث، اتهمتاني بالغباء.. بالتصرف كالأطفال، والحماقة لأنني بالفعل لفت انتباهك إليها!..

وهذا خطأ تقع فيه الكثيرات من النساء مع رجالهن..

نعم هما على حق.. أنا طفلة مدللة ترفض أن تشارك غيرها لعبها، وأنت لست لعبتي "وليد"..

أنت رجلي.. زوجي.. وما لن أسمح به أبدًا؛ أن تحاول أخرى مجرد النظر إليك حتى.. أو أن يزور خيالك طيفًا غير طيفي.. أو تعبر أحلامك إحداهن ولو لثانية، حتى وإن أنهيت حياتك بيدي..

***

أنا أنثى "وليد" وقررت أن أثبت لك ذلك..

لن أكون طفلتك ثانية، بل سأكون كالنيران في عينيك، ولن أنطفئ أبدًا..

إن كانت غيرتي تثير جنونك، فسأكف عنها وأحتفظ بالجنون بين ثنايا عقلك بطريقة أخرى تليق بك كرجل صارم، غاضب على الدوام..

بالاتفاق مع صديقتاي "سلمى" و"نادين" قررت تغيير طريقتي معك..

دوما كانتًا تثيران حفيظتي بتذكيري بكوني طفلة مدللة ثائرة، تدفعانني نحو التذرع بأنوثتي في مواجهتك..

ولأنني حيية بطبيعتي فقد كانت معظم أفكارهما مجنونة بالنسبة إلي، لكن كان بعضها سهل تنفيذه..

معهما قررت خوض التجربة!..

في اليوم التالي لحديثنا الغاضب بخصوص مساعدتك الفاتنة، عادتا معي من الجامعة وقررنا أن نقيم حفلًا صغيرا على شرفك.. أنت المدعو الوحيد، وأنا مضيفتك..

استأذنت والدي وبدأنا الإعداد لحفلنا الأول في أحد أركان حديقتنا.. بعد انتهائنا كان المكان كقطعة من الجنة..



طاولة مزينة بمفرش ناعم أنيق، ورود موزعة بعناية، عطر رقيق ينبعث في المكان، إضاءة حالمة، وطعام شاركت بنفسي في إعداده على الرغم من كوني مبتدئة في عالم الطهي..

وبعدها اتجهنا بمرح لغرفتي.. حادثتك وطلبت منك الحضور بعد ساعة واللئيمتان تضحكاني وأنا أحادثك حتى شعرتُ بالدهشة في صوتك..

كانتا تشاغلانني وتأمرانني أن أتدلل وأنا أتحدث وأغير نبرة صوتي وكلما حاولت كنت أضحك..

نعم أعترف أنني طفلة.. في حقيقتي مجرد طفلة..

كدت أصاب بالحزن لولاهما حقًا.. فجأة وجدتني أهمس لك بدلال لم أعلم من أين أتى وتلبس صوتي:

- سأنتظرك.. لا تتأخروليدي..

وكانت المرة الأولى التي ألقبك فيها بهذا اللقب الذي أدمنتَه بعدها.. قابلني صمتك لثوان فقلقت وعندما كدت أتحدث ثانية سمعتك تهمس بنبرة غريبة لم أسمعها من قبل تغلف كلماتك:

- لن أفعل أميرتي..





شعرت بالخجل يكتنفني فجأة، وأنا أنهي المكالمة معك لتهتف بعدها "سلمى" في مرح مشاغبة:

- حسنًا.. لا تتأخر وليدي.. ماذا قال؟.. اعترفي، وإلا استخدمت معك طريقة أخرى..

التفت إليها في شرود، ثم أجبت بدون فهم:

- لم يقل شيئًا هامًا.. فقط (لن أفعل أميرتي)..

ضحكتا بشدة، ثم عادت "نادين" تقول بسرعة:

- شهد لقد نسينا.. أخبريه أن يذهب للحديقة، في المجلس الذي أعددناه وينتظرك هناك حتى تأتي إليه..

لم أفهم لمَ طلبت مني ذلك!.. فسألتها لتجيبني:

- الانتظار سيقتله حتى تظهري أمام عينيه، وسيظل حائرًا يفكر فيما أعددتِ له خاصة مع شكل المجلس هناك..

كانت فكرتها خبيثة راقت لي للغاية فنفذتها في الحال لتسألني بدهشة:

- ما الذي تفكرين فيه شهد؟



ولم أدرِ كيف ضحكت بتلك الطريقة لكنها لم تكن أنا بالتأكيد.. ليست ضحكتي الطفولية الهادئة، بل ضحكة أنثوية غريبة عليّ أجبتك بعدها بهمس:

- لا تتعجل وليدي..

ولم تكن أنت بأقل خبثا منهما، فقد قلت بلهجة ماكرة:

- لو لم تكن المفاجأة مميزة بالقدر الكافي ليسبقها ذلك التشويق، فسأقتص منك بنفسي..

ابتسمت وقتها في خجل وأنا أرد بسرعة:

- ربما تقتص مني في جميع الأحوال..

ولم أعلم ما دفعني لقول تلك الكلمات!.. لكنها أضحكتك بشدة وعدت تهمس بتلك النبرة الغريبة مجددًا:

- حسنًا.. هو القصاص إذًا..

أنهيت المكالمة.. كان وجهي يشتعل خجلًا وهما تضحكان حتى كادتا تسقطان أرضًا والغضب يرتسم على ملامحي..



قمنا بمشاغبة بعضنا البعض لدقائق حتى توقفت "سلمى" وقالت بجدية:

- والآن.. هيا شهد لنرى كيف سنحولك لأنثى ناضجة أيتها الطفلة المدللة..

قذفتها بوسادة من فوق فراشي ثم تجمعنا بحماس أمام صوان ملابسي لنختار شيئًا يصلح لهذه الحفل الصغيرة..

كانتا تبحثان بدقة وتتفصحان كل شيء حتى أصابهما الإحباط فجأة وهما تنظران إلي.. أعقبه تعليق "نادين" الساخر:

- أرأيتِ سلمى؟.. حتى ملابسها؟.. مازالت لطفلة..

هتفت في غضب:

- لمَ نادين؟.. لديك الكثير هنا، العديد من القمصان الحريرية الملونة والسراويل وبعض الأثواب.. ماذا تريدين أكثر؟

ردت تغيظني:

- أريد شيئًا يصلح لأنثى تحظى بوجبة عشاء رومانسي مع زوجها المستقبلي.. كل الموجود هنا طفولي أو عملي.. لا يصلح لسهرة مع زوجك شهد، أشعر بالإحباط..

تهدلت كتفاي في يأس وقلبت كفاي بقلة حيلة متسائلة:

- وما الحل إذًا؟..

فكرتُ لثوان وأنا و"سلمى" نتابعها في لهفة.. حتى هبت واقفة فجأة وهي تهتف بحماس:

- هيا سلمى.. لمحت أحد المحال الراقية بالقرب من هنا، سنذهب في الحال بسيارتك لنشتري شيئا يليق بعروسنا ونعود سريعًا..

قفزت من مكاني محاولة منعها وأنا أصيح:

- لا نادين.. لا وقت لذلك، سأتأخر عليه بهذا الشكل..

اقتربت مني قائلة في مكر:

- وهو المطلوب عزيزتي.. كلما تأخرتِ أكثر؛ كلما زاد شوقه.. هيا بنا سلمى، نصف ساعة على الأكثر شهد لا تقلقي..

وأنا أقضم أظافري في قلق وأكاد أجن..

لحظات الانتظار حتى وإن كان ما بعدها رائعًا قاسية ومميتة..



عادت المشاغبتان بعد ما يقرب من أربعين دقيقة كنا طوالها على الهاتف تقريبا، وكانت الصدمة عندما رأيت ما أحضرتاه لي!..

لا أنكر أن الثوب كان راقيًا جدًا وأنيقًا.. لكنه كان كاشفًا لدرجة لا أتحملها، وعندما ألمحت لذلك وأنا أنظر إليه بقلق انفجرتا في موجة جديدة من الضحك..

كان الثوب باللون الأخضر الداكن.. له حمالتان عريضتان ويغلق على الصدر بحلية كبيرة بارزة.. يضيق عند الخصر ثم ينساب بعده بنعومة ويصل للكعبين مع ذيل طويل قليلا.. معه شال من نفس اللون من الحرير الناعم المتمازج بشدة مع الفستان نفسه والذي جمع بين الحرير والدانتيل في نعومة بالغة..

كان رائعًا بالفعل لكنني لم أستطع التفكير في أنني يمكن أن أرتدي شيئًا كهذا أمامك الآن..

ظلتا تحاولان إقناعي حتى استسلمت لهما في النهاية بعدما علمت أنهما ستثبتان الشال جيدًا فوقه..



ارتديته وقبل أن أكمل زينتي هتفت "نادين" التي كانت تنظر من نافذة غرفتي:

- لقد أتى شهد..

قمت بسرعة ووقفت إلى جوارها نختبئ خلف الستائر.. ورأيتك!..

بدوت وسيمًا للغاية وأنت ترتدي الجينز الأسود وقميصا باللون القرمزي تعلوه سترة سوداء..

كنت ترتدي ألوانًا داكنة كعادتك لكنك بدوت كالفرسان، ينقصك فقط جواد أبيض اللون أو ربما أسود لتكتمل روعة الصورة.. همست لي "سلمى" بجرأة:

- يبدو رائعًا شهد.. زوجك وسيم للغاية بملامحه الحادة الخشنة تلك، وذوقه أنيق..

نظرت لها بغيظ مهددة فتراجعت للخلف ضاحكة وهي تسحبني لأجلس على المقعد أمام مرآتي بينما تكمل:

- لا أحسدك أبدًا.. فقط أبدي رأيي..

وعادت تضحك فقرصت ذراعها حتى تأوهت وهتفت:





- آه.. فتاتي، لا تكوني هكذا.. أنت لا تغارين مني صحيح!.. وهيا لنكمل زينتك لا تتركيه ينتظر طويلًا..

ثم التفتت لـ "نادين" قائلة:

- نادين.. تابعي ماذا يفعل!

ردت "نادين" بشيء من الحنق:

- لم يعد واضحًا.. اختفى تقريبًا في الركن الذي أعددناه..

أعلنتُ عن استيائي بآهة اعتراض و"سلمى" تنهي زينتي الرقيقة بلمساتها الاحترافية، ثم أوقفتني ووضعت الشال على كتفي وثبتته جيدًا وأدارتني نحو المرآة هاتفة في سعادة:

- فاتنة شهد.. انظري لنفسك..

وكانت هناك أخرى تطل عليّ داخل مرآتي..

بدا الثوب متماشيا مع لون عيني وخصلات شعري الكستنائية الحرة التي تداعب وجنتي.. ما تبقى من شعري كان مرفوعًا من الخلف بعشوائية مثيرة، والشال مثبت على كتفي بحليتين أنيقتين باللون النحاسي لتتشابها مع حلية الصدر الكبيرة..



وزينة رقيقة ناعمة تناسب ملامحي بشدة.. بالفعل لم أتعرف لنفسي وظللت أتطلع إليها لثوان في دهشة حتى هزتني "سلمى" هاتفة في مرح:

- شهد.. أفيقي، تليقان ببعضكما كثيرًا عزيزتي.. والآن هيا، الرجل ينتظر بالأسفل منذ أكثر من ربع ساعة.. لا أضمن تصرفه بعد أن يراكِ هكذا بعد كل ذلك التأخير!.. أسرعي..

أقلقتني.. لكنني استمعت إليها وهما ترافقاني لترحلا وأنا أتوجه إليك بعد أن طلبت من مربيتي العزيزة أن تأمر بتقديم العشاء لنا بعد قليل.. واقتربت من مجلسك في وجل ممتزج ببعض الرهبة..

***

طفولية أنت ملاكي الصغير في كل شيء..

فاجأتني باتصالك تأمرينني بالحضور ومن أنا لأتأخر عن أميرتي في طلب ما؟..

عندما حادثتني كنت تضحكين ولم أفهم لمَ حتى سمعت صوت ضحكات صديقاتك إلى جوارك..





شعرت بشيء غير عادي، خاصة مع تلك الطريقة الجديدة التي تحدثتِ بها عندما أردتِ مني أن آتي في موعدي.. لم أدرِ ما حدث لي وقتها؟..

فجأة أحسست بك أنثى غير طفلتي الصغيرة التي كنت أطعمها في لفافتها..

دق قلبي بعنف حينئذ وعجز لساني عن الرد لثوان، وبنبرة لم أعهدها في صوتي أخبرتك أنني لن أفعل.. أنهيت المكالمة لأحلق بخيالي معك محاولًا تخيل سبب طلبك لحضوري ولم تكد تنتهي دقيقة حتى عاودتِ الاتصال وكان طلبك أغرب!..

وعادت طبول قلبي تُقرع في أذني بقوة من جديد.. ها أنت تضيفين لغزًا آخر لدعوتك وبالفعل بدأت التخمينات تقفز لعقلي وكدت أصاب بالجنون..

ثم حان الوقت، ولأنني شعرت به يومًا مميزًا فقد حاولت انتقاء ملابسي بعناية، لكنني وبعد انتظار أفقدني صوابي عندما رأيتك أمامي علمت أنني اخترت خطأً!..

فالحورية الحسناء التي تقف قبالتي غادرت الجنة للتو لتُفقد قلبي نبضة جديدة من نبضاته وكأنها اعتادت هذا الأمر..



ولا يليق بها سوى رداء فرسان لم أكن أملكه، تطلعت إليك لحظات في افتتان وأنت تطرقين برأسك أرضًا، ثم همست بخبث:

- عفوًا هل أعرفك؟

كانت عيونك تلمع عندما نظرت إلي، يا إلهي تبدوان رائعتان مع لون ثوبك الناعم في تلك الإضاءة الحالمة.. رددت في خجل ممتزج ببعض الغيظ:

- وليد.. لا تمزح..

لم أشعر بنفسي إلا وقدماي تسوقاني للاقتراب منك لألتقط كفك وأطبع عليه قبلة صغيرة ثم أهمس مجددًا:

- حسنًا.. لا مزاح، هل هذا الثوب لأجلي؟

تورد وجهك خجلًا ليزداد نبض قلبي من جديد وأنت تهزين رأسك بإيماءة صامتة أن نعم..

أخذت بيدك لنجلس على الأريكة المعدة لنا أمام طاولة أنيقة مزينة بالورود، كنت تبدين كأميرة بالفعل صغيرتي وتلك الخصلات الثائرة بلون الكستناء تغازل وجنتيك..



أما قلبي فقد بدأ يراودني للاقتراب أكثر، وأطعته ببطء لتخفضي رأسك في خجل أشد.. احتضنت كفك ثانية وأنا أبثك عبرها قصائدي هامسًا:

- تبدين فاتنة شهد.. لمَ فعلتِ ذلك؟

أجبتني بهزة كتف بدت طفولية:

- ربما لتعرف أنني لم أعد طفلة..

علت الابتسامة قلبي قبل شفتي، وعدت أهمس وأنا أرفع وجهك لتنظري إلي:

- أستطيع رؤية ذلك بوضوح..

وتغلبت رغبتي في مشاغبتك علي لحظة الرومانسية الحالمة تلك فعدت أقول في مرحِ وأنا أشير لرأسك:

- لكن هنا.. مازلت شهد الصغيرة المجنونة ذات الجدائل الكستنائية القصيرة والسن الساقطة والعينين المليئتين برحيق العسل الدافئ الغاضبتين على الدوام..

وبالفعل نجحت مؤامرتي الصغيرة.. وعدتِ لتقمص دور الطفلة الشقية التي أحبها..

نعم عشقت تلك الأنثى الخلابة التي تحاول إغوائي، لكنني كنت أعلم أن استسلامي لها لن تسرها نتائجه فحاولت الابتعاد بها والعودة للحظات الجدال الممتعة مع طفلتي، هتفتِ في عناد:

- ربما.. وما العيب في أن أكون طفلة!.. سأكون ابنتك وحبيبتك وزوجتك وأمك حين الحاجة..

ولم أستطع التماسك أكثر..

أنت بالفعل كل ذلك معشوقتي وزيدي عليهن أنك نفسي..

وفي لحظة كنت أحبس أنفاسك في صدري، لم تكن تلك الصغيرة المخطوفة في غفلة منك.. بل كانت بدعوة أعلم جيدًا أنك تقصدينها، هل تفاجئتِ؟..

ربما لكنك بالتأكيد شعرتِ بما شعرتُ به أنا، وعندما سمحت للهواء البارد أن يداعب رئتيك مجددًا كانت أنفاسك متقطعة بطيئة وعينيك تعانق كفيك المنعقدين فوق قدميك..





ظللتُ أتطلع إليك وقلبي يعلن تمرده بين ضلوعي ويضخ الدم بعنف نحو مخي مما أشعرني بالدوار.. كنت أراكِ بشكل مختلف لم أره من قبل مطلقًا، بالفعل "شهد" أنت لم تعودي طفلة.. فجأة وجدتك تهمسين:

- وليد!.. ما فعلته الآن، يحل لنا صحيح؟

ولم أتمالك نفسي.. يا إلهي.. أهذا ما يشغل بالك الآن؟..

كانت ضحكتي خافتة لكنك رفعتِ عينيك إلي في غضب، وتلك اللمعة فيهما جذبتني إليك ثانية بدون أن أشعر أو أفكر حتى، وبعد ابتعادي همست بالقرب منك:

- أنت زوجتي شهد.. ما ينقصنا مجرد حفل زفاف لتكوني في بيتي، بل وفي فراشي و أيضا...

وضعتِ أصابعك فوق شفتي بسرعة وأنت تهتفين في خجل:

- وليد.. توقف..

قبلت أصابعك الصغيرة فسحبتِ يدك في توتر، ثم قلتُ في مرح لأدفع عنك الخجل:



- حسنًا.. ما رأيك لو حدثت عمي في الأمر لنقيم حفل زفافنا نهاية هذا العام؟.. وعامك الدراسي الأخير تقضينه في بيتي؟

ارتبكتِ أكثر، لكنني كنت أسعد أهل الأرض وأنا أسمع همسك الرقيق:

- كما تشاء..

وبجملتك القصيرة تلك كاد التهور يصيبني للمرة الثالثة لولا أن حضرت مربيتك تنبهنا بموعد تقديم العشاء..

افترقنا بسرعة والارتباك يرتسم على ملامحك وأنت تحادثينها، أما عيناي فكانتا تغازلانك في وَلَه..



(١١)

تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

لم أعلم مدى الصدق في هذه الحكمة إلا بعد ما اتفقنا على إتمام زفافنا عقب امتحانات عامي الدراسي الجامعي الثالث!..

سرور غمر قلبي وبهجة كنت أسبح فيها..

ولكن منذ متى تسير الأمور كما أردنا.. أو كما قررنا لها؟..

هناك أمور قدرية حتمية لا فكاك أو مهرب منها، مهما خططت ورغبت وقررت؛ تقف هي أمامك لتمنعك من تحقيق ما كنت تصبو إليه..

فقبل منتصف العام، وبعد موافقة والدي على طلبك بتعجيل زواجنا..

قُتِل والدك!..

وكدت أنت "وليدي" تلحق به..

لكن الحياة كانت أكرم معك، فتركت قلبك يحتفظ بنبضه وأخذت منك ربما ما هو أغلى..

وأخذت مني اطمئناني وشعوري بالأمان.. زرعت بدلًا عنهما الخوف والقلق والألم..

خوفًا عليك.. وقلقًا من رد فعلك.. وألما لما حدث لك!..

رباه.. لم أدرِ كيف ستتقبل نلك الأخبار "وليد"!.. لكنها وكما سبق وأخبرتك..

أمور قدرية لن تتغير مهما حاولنا ومهما رفضنا..

***

البعض منا تقتله الصدمات، والبعض الآخر تقويه..

وهناك قليل فقط توقفه مكانه، وتغيره وتحول مساره للنقيض..

هؤلاء قد لا يتسمون بالقوة أو الصبر أو العقلانية، يفقدون مبادئهم وتتغير نظرتهم للحياة بشكل كلي.. وتلك الكارثة التي حلت بهم تنقلب لتصبح نقطة تحول لا يتشابه ما بعدها مع ما قبلها في شيء على الإطلاق..



سمِهِم ضعفاء إيمان، سمِهِم ضعفاء شخصية، أو سمِهِم كما ترغبين..

لكن من هؤلاء القلة كنت أنا!..

بكل قوتي السابقة وعنفواني واندفاعي وغوغائيتي الدائمة، كنت فقط أضعف من تحمل الأمر.. أكثر وهنًا من أن أتقبله وأترك الحياة تسير في مسارها الطبيعي بعده..

لربما تركتها تقودني حيث تشاء، ولكن عندما تتوالى المصائب فوق رأسك؛ تنهك قلبك.. توقف الدم الواصل لمخك.. تعجز عن التفكير أو الفهم؛ فتتغاضى عن محاولة التفهم، وتتحول لوحش كاسر عديم القلب..

فقدَ كل ما كان يربطه بإنسانيته وبقيت لديه فقط تلك الوحشية البرية ترتع بداخله وتحرقه دافعة إياه لحرق من حوله..

يا إلهي.. كم تؤلمني الذكرى!.. وكم يوجعني ما فعلته!..

وتعود تلك الصورة لتنطبع أمام عيني مجددًا وكأنها فقط حدثت بالأمس..

لنبدأ بلحظة حلوة علَّني بعدها لا أتخبط في دروب الألم بقوة، بل أخطو إليها ببطء وهدوء..



يا الله "شهد"!..

سعادتي كانت بحجم السماء، لا.. باتساع الكون، سعادة عابرة للمجرات تخطت تقدم سفن الفضاء وحملتني لتسبح بي في مجال الشمس.. أشعر بدفئها ولهيبها فأحبكِ أكثر..

فاتحت عمي في موضوع زفافنا، كنت مترددًا قلقًا من رفضه خائفًا من غضبه، لكنه ولدهشتي وافق!.. أخبرني بالحرف:

- أنا أثق بك وليد.. أعلم أنك ستكون معها مثلي بل وأكثر، ستدفعها للنجاح ولن تقف في طريقها أبدًا.. لذا أبشر يا ولدي، لنتركها تنهي هذا العام.. وبعد ظهور نتيجته نتمم زفافكما بإذن الله.. لكن عِدني أولا: ستكون لها سندًا، حاميًا، درعًا يقيها طعنات الألم.. ومن بعدي لن يكون هناك غيرك لها وليد؛ فلا تؤذِني في قبري بقسوتك عليها أو محاولة إيذائها.. هل تعدني يا ابن أخي؟

اختلج قلبي بين ضلوعي، لكني سارعت أجيبه:

- عماه لا تقل ذلك.. أطال الله في عمرك حتى تحمل أحفادك..

تشبث هو بيدي بطريقة لم أفهمها، وعاد يسألني بحزم:



- عدني وليد!..

قبلت رأسه وأنا في حالة من التخبط، وقلت من داخل قلبي:

- أعدك عماه.. أعدك..

ولا أذكركم مرة بعدها أخلفت ذلك الوعد!..

لكنها مرات تخطت قدرتي على الحساب، أو حتى اهتمامي بعددها..

***

يا إلهي "وليد"..

الذكريات المرة قاتلة، وعندما تقتحم عقلك عنوة مجبرة إياه على استعادتها تذيقك مرارها بقوة..

لاذعة هي.. قاسية.. موجعة.. تنهك العقل والقلب معًا..

وآه يا عم.. لم أرك وأحمد ربي أنني لم أفعل، فما سمعته كان كافيًا..

قتلوك عماه، ولأي ذنب جنيت؟..

لا يعرفون.. فقط يتساءلون!.. اكتفوا بالبحث والتدقيق، ودماؤك تغرق المكان..

والدي كان يبكي بشدة، هذه هي المرة الأولى التي أراه يبكي فيها بحرقة ودموعه كأنهار لا تنضب.. من القلب ونزفه مستمر، استيقظت في عتمة الليل على صوت سيارات الشرطة والإسعاف، ووالدي يجري أمام غرفتي بمنامته!..

لحقت به متسائلة في جزع ليصرخ في وجهي:

- عمك محسن شهد.. قتلوه..

وكأنما أصابني الشلل، توقف عقلي فجأة وكل ما استطعت النطق به هو سؤالي عنك وقلبي ينتفض في جزع:

- وليد يا أبي.. وليد..

صرختـه الحارة لم أفهم منها شيئًا وهو يبتعد عني خارجًا من المنزل:

- ربما قتلوه هو الآخر يا ابنتي.. لا أعلم..

خرج وتركني في لوعتي.. خرج وأنا فقط مادت بيّ الأرض، وعانقتها بصمت وصرخة مربيتي هي آخر ما وصل لسمعي..

***



أتعلمين زوجتي العزيزة معنى أن يقتل أقرب الناس إليك أمام عينيك؟..

أن يذبح وتسيل دماؤه وأنت مكبلة تنظرين بأسى وعجز؟..

تصرخين فقط وما من مجيب سوى صدى صوتك، وليته يرتد بل فقط يتردد بعيدًا ويتلاشى حتى يختفي!..

أتتخيلين مدى قسوة الصورة و دمويتها وعنفها؟..

تحاولين الحركة فكل ما تتلقينه هو الركلات واللكمات التي تكاد تخرج معدتك عبر حلقك، طعم الدماء في فمك، ولونها يغطي عينيك!..

تنقلب الصورة للون الأحمر القاني، وتبتعد الأصوات في بطء!..

يسكن الجسد الحبيب، وقلبه يستودعك آخر نبضة!..

تنتهي اللحظة ببشاعتها بضربة عنيفة على رأسك تظلم الدنيا بعدها، ويختفي النور للأبد!..

وعيك يتلاشى ببطء تصاحبه حياتك التي تنسكب من جروح جسدك مع نزيف روحك المودعة!..

ولأننا نتذكر.. ويمر بنا ذلك الشريط القاسي الذي يحمل علقم الماضي، لابد أن أمر بذلك اليوم..

تلك اللحظة التي انقلبت فيها حياتي واكتسبت اللون الأسود القاتم، وأصبح نهاري كليلي حالك شديد الجهامة والعتمة..

بدأ كأي يوم عادي، عمل في الصباح بعد أن أوصلتك لجامعتك ونلت ابتسامة رضى و همسة حب ووعد بلقاء بعد بضع سويعات أتمرغ فيها في لهيب شوقي إليك، أمر عليك لنعود معًا وأتركك عند باب منزلك على موعد في الصباح التالي..

عندما عدت لمنزلي وجدت والدتي تستعد للذهاب لابنة عمتها للمبيت هناك، عرس ابنها وتحتاج لصديقة طفولتها وابنة العم إلى جوارها..

عرضت عليّ الذهاب معها لكنني رفضت وأقنعتها أن ذهابي للحفل أكثر من كافٍ، فعلاقتي بهم كانت سطحية للغاية على الرغم من علاقة والدتي القوية بها وبعائلتها..

أوصلت والدتي وعدت للمنزل، غذاء فبعض العمل بالمنزل، فمكالمة لزوجتي الحبيبة، فعشاء فمكالمة أخرى قبل النوم لأسمع همستك "أحبك" وأغلق هاتفي مغمضًا عيناي مستسلمًا للنوم..

حلم أطفو فيه فوق السحب، أحلق بين الغيوم، أنعم بقرب معشوقتي مني، ثم استيقاظ عنيف على صوت صرخات والدي الخائفة المرتاعة!..

خطواتي مرتبكة متلهفة قلقة.. وأفتح باب غرفته لأجدهم هناك!..

يتشحون بالسواد، يلثمون وجوههم بالمزيد من السواد، ضخام تنطق عيونهم بشرار القسوة والعنف.. دخلت بحماقة صارخًا:

- أبي..

والتالي كان ضربًا من الجنون!..

لكمات وأجساد ملتحمة، صرخات وركلات متبادلة بين جسدي وأجسادهم، ثم ضربة قاصمة تلقيتها في عمودي الفقري لأسقط أرضا فاقدًا للحركة..



انتشلوني عنوة لأقف على ساقين من العجين، أحدهم يجذبني من شعري للخلف لأرفع عيني نحو والدي المذعور.. اثنين آخرين يمسكان به بنفس الطريقة، وثالث يقف خلفه، يجزعنقه ببطء متلذذا!..

وصرخاتي تمتزج بصرخاته في المكان، لتنهال بعدها على جسدي المنهك قبضاتهم وأقدامهم بكل عنف وهم يثبتونني على وضعي..

شعرتُ بسكين حاد يخترق ضلوعي، ودمائي الساخنة تغرق جسدي مصاحبة لشهقة كادت تخرج معها روحي..

ثم بأداة لا أعرفها تلقيت الضربة الحاسمة فوق رأسي من الخلف لتنهي العرض وتظلم الدنيا أمامي وآخر صورة بين جفني؛ صورة والدي الذبيح ودماؤه تسيل بسرعة لتعلن نهايته..

مع ظلام يحيط بي معلنًا نهايتي..

***

مات عمي..

مات بطريقة قاسية غليظة..



لم أسمع تفاصيل، الكل يخشى من مجرد الحديث معي في الأمر، والدتك فاقدة للوعي معك في نفس المشفى، نائمة بمهدئات وكلما استفاقت تصرخ، وصراخها يمزق قلبي..

قلبي الموجوع بك، الحزين عليك، المتألم لك..

مر أسبوع وأنت على حالتك وزوجة عمي كما هي..

غيبوبتها نفسية، وغيبوبتك جسدية.. وجدوك محطمًا مطعونًا دماؤك تغرق جسدك ورأسك ينزف هو الآخر..

كدت أموت إلى جوارك، اشتقت لعينيك، أوحشتني همساتك، افتقدت مداعباتك.. بل حتى عصبيتك وغضبك وغيرتك..

"وليدي".. تلك كانت أيام طويلة، أموت فيها صباحًا ومساءً.. لحظات طالت لتصبح كدهر مؤبد..

أنقذوك بأعجوبة، ونجوت بعدها وبعد كم الدماء التي غادرت جسدك بمعجزة!..

قالوا أن الحادث لن يمر بسلام على جسدك، لكن أي مضاعفات أو نتائج لن نعلمها إلا بعدما تفيق من غيبوبتك..



راقد أنت في سكون على فراشك الأبيض، تغطيك الضمادات في أجزاء كثيرة من جسدك ورأسك.. تبدو شاحبًا هادئًا للغاية، وندوب جروح وجهك تتعافى، وأنت مازلت في عالم اللاوعي..

ويمر أسبوع آخر، والدتك أصبحت تقف على قدميها دون أن تسقط بالأمس فقط.. وأول ما فعلته هو القدوم إليك..

ضاع منها زوجها، وكاد يضيع صغيرها، لكن لهفتها عليك وسعادتها بنجاتك كانت تشع من وجهها بشدة.. بقايا أمل ترتسم على ملامحها، وقلب الأم بداخل صدرها متماسك فقط لأجلك..

ويومان آخران وأنت مازلت كما أنت.. ساكن، هادئ، شاحب، دقات قلبك بطيئة، ونبع دموعي قد جف..

أخبرني والدي أنني أبدو كزهرة ذابلة ، أنني أحتاج لبعض الراحة، قليل من النوم حتى أكون إلى جوارك عندما تستعيد وعيك، ولكن كيف يمكنني ذلك "وليدي"!..

اقتربت من الموت.. فصلتك عنه بضعة ملليمترات لتخطئ الطعنة قلبك، أو تكسر الضربة جمجمتك..



وأي تجربة قاسية تلك!..

أشد ضراوة من الموت نفسه، ووقعها أكثر وطأة على القلب والعقل..

لم أتخيل كيف ستكون بعد استيقاظك!.. كيف ستتصرف!.. أي مخاطر أخرى تعرضت لها بسبب كل تلك الضربات في جسدك!..

ومازلنا على انتظار، على أمل، حتى أتى اليوم الثامن عشر؛ فجأة فتحت عينيك، وتعالى صوتك صارخًا:

- أبي!..

وحالة من الهياج انتابتك.. كدت تقفز من الفراش والكل يحاول إعادتك إليه وتهدئتك حتى أتى الطبيب بمحقنه؛ لتسكن أنت بعده على الفور، وتبدأ شلالات دموعي ووالدتك في الانهمار مجددًا..

يتغلغل الوجع في قلبي بسرعة، ينتشر فيه ويصليه سعيره بتلذذ حتى تأوه وأنَّ حد الصراخ..

خائفة أنا.. خائفة بشدة، الرعب يسكنني والذعر وَشَم ملامحي، وأنت تفيق وتعود لتغيب، حتى أتت الصدمة!..

كانت القاصمة الأخيرة، صرخت فينا بغتة:





- أنا لا أراكم!!.. لا أراكم!!..

وسقط قلبي بين قدمي..

يا إلهي "وليد"!..

إذًا فهذا هو ما أخبرنا الطبيب عنه!..

كان جسدك القوي لايزال يتمتع بعنفوانه وإن ضعف قليلًا وفقدت بضعة كيلوجرامات جعلتك ناحلًا شاحبًا..

لكن.. بصرك!..

كم يتمزق قلبي كلما تذكرت تلك اللحظة، وإقرار الطبيب النهائي، بأنك أصبت بالعمى!..

تلك الضربة على رأسك أصابتك بشدة وفي مكان خاطئ لتخطف نور عينيك معها، وتصيبك بجنون مؤقت انخلع له قلبي مرة أخرى..

في كل مرة تصحو تصرخ وتقفز من فراشك محطمًا كل ما تطاله يديك..

في مرة قبضت على ذراعي وظللت تصرخ في وجهي حتى حقنك الطبيب بمهدئك اليومي.. وتركت أصابعك علامات زرقاء موجعة عليّ..



وصرخاتك التي بدأت تخفت يومًا عن يوم توجعني أكثر..

في النهاية وصلت لحالة مخيفة من الصمت التام، لا تنطق بكلمة أو حتى بحرف، أنفاسك دائمًا هادئة منتظمة كأنك في عالم آخر غير عالمنا وفي كل مرة تزيد قلقي عليك "وليد"..

أنهكتني وأتعبتني وألمك هو سر شقائي..

فقدتَ والدك وكدتَ تفقد حياتك لكنك عوضًا عن ذلك فقدت بصرك، وأنا أقف عاجزة حتى عن مواساتك وأنت تتقوقع على نفسك يومًا بعد يوم، تاركًا إياي ووالدتك نعاني إلى جوارك..

وآه من تلك معاناة.. آه يا "وليد"..

***

استعدتُ وعيي فجأة..

وفي ثوانٍ مر شريط الذكرى أمام عيني..

الصورة هناك.. مطبوعة، لا بل موشومة بين جفني.. في خلايا عقلي، في دمائي تسري من القلب لباقي جسدي ثم تعود إليه محملة بالمزيد من الهموم..

مات والدي..

لا.. بل ذُبِح الحبيب.. أمام ناظري، ومن فعلوها تعمدوا أن أراه!..

رفعوا رأسي نحوه قسرًا لأراه..

آه يا أبي.. هل أملك دموعًا لأسكبها حزنًا عليك!.. قهرًا وانكسارًا من ضعفي وخضوعي وعجزي!.. ألمًا لفقدك، وفقدك بتلك الطريقة!..

لم أرَ شيئًا أمامي!..

الظلام يغلف كل شيء حولي، رداءً من الديجور ارتديته فجأة ولا أعلم من ألبسني إياه!..

لم أهتم.. فقط صورة والدي كانت تحتل كياني، حتى بدأ عقلي يستوعب الأمر..

أنا لا أرى!..

من حولي يتحدثون، يتحاورون.. أسمع صوتك "شهد"، وصوت أمي وعمي..

لكنني لا أراكم!..



صرخت بها فجأة..

يا الله، لقد أصبت بالعمى!..

أي قسوة تلك؟..

وقع الكلمة نفسه موجع، وأنا.. ماذا أنا؟..

في كل مرة أصرخ وأغضب.. أكسر أشياء وأسب وأشتم.. قبضت على ذراعك حتى كادت أصابعي تنغرس في لحمك وأنت تئنين ألمًا في صمت..

وفي النهاية استسلمت!..

ماذا باليد ويمكن فعله؟..

لا شيء.. حتى وإن بحثت عن علاج، وتجولت بين عيادات الأطباء، فقد انتهى أمري، وحتى أعود كما كنت سيمضي وقت طويل، أكون فيه وحيدًا عاجزًا ضعيفًا.. ومقهورًا..

اكتنفني الصمت وناسبني ذلك.. فماذا أقول؟..

لا يوجد ما يمكن أن أنثر أحرفه عبر شفتي، ضاعت الكلمات والحروف تبعثرت وفقدت معانيها..



الصدمات تأتي مجتمعة والألم يأتي في هجمة مفاجئة فتفقد قدرتك على استيعابه فما بالك بالتكيف معه!.. حتى ينال منك ويلهبك بعذابه..

بعد أيام تعافى جسدي أكثر واستسلمت لمصيري بهدوء وخنوع، وأمر الطبيب بخروجي وعودتي لممارسة حياتي الطبيعية.. جملة كهذه تستحق ضحكة من عمق القلب.. لكنني فقدت قدرتي على التفاعل مع أي موقف..

أي ضحكة أطلقها وأنا قد نسيت معنى الضحك و أسبابه!.. حتى وإن كان لسخرية..

وعدت لمنزلي.. أقمنا أنا ووالدتي في الطابق الأرضي مؤقتًا وكأننا أقمنا متاريس الحزن على عتبات السُلم..

لن نصعد للأعلى مجددًا..

كانت أمي مصرة على البحث عن منزل جديد بعيدًا عن هنا، ولم أكن لأمانع، أو أناقش.. لقد فقدت الرغبة في كل شيء وأي شيء..

انغلقت قوقعتي عليّ أكثر، والتزمت الصمت داخلها..



وأنتِ كنت هناك.. كل يوم، تحاولين تمزيق شرنقة الحزن التي تغلفني، لكنني اكتفيت به عن غيره..

مصائبي لم تكن هينة.. كانت قاسية، عنيفة، موجعة.. كيف أنساها أو حتى أتناساها؟..

وقتي منقسم ما بين صمت هزيل شاحب في ظلامي الدائم، وبين نوبات غضب وثورة تقعين أنت ضحيتها على الدوام..

ولم تأتِني في مرة إلا وخرجتِ من عندي باكية، حزينة..

ما بيدي حيلة "شهد".. لقد انتهى الأمر، وانتهيتُ معه..

حياتي توقفت عند هذه اللحظة البائسة، ولم أستطع بعدها تحريك عقارب الساعة إلى الأمام ولو لثانية واحدة..

سواء أغمضت عيني أو فتحتهما فالصورة هناك!..

تعيد نفسها.. تُكرِر المشهد لحظة بلحظة.. أصرخ في أحلام يقظتي، وأستيقظ فزعًا من كوابيس نومي..

جسدي يزداد نحولًا، أمي تبكيني وتبكي والدي معي..



أنتِ تجاهدين معي ومحاولاتك مازالت تبوء بالفشل.. العم يبقى إلى جواري كثيرًا.. يقنعني بتقبل الأمر، يعدني بأنه لن يتركني، سيبذل أقصى ما في جعبته من جهد وبحث ومال حتى أُشفى..

وأنا!..

كلماتكم.. جميع كلماتكم، تعبر أذنيّ كضيف ثقيل، لن يلبث إلا أن يرحل تاركًا إياي في غيابات عذاباتي وحيدًا باكيًا قانطًا..

وأنت صغيرتي "شهد" وأنا!..

انتهينا..

كيف سأربط مصير رجل مثلي سيعيش في دُجنْة أبدية بفتاة صغيرة ملائكية مثلك!..

تستحقين رجلًا كاملًا.. رجلًا ترين في عينيه العشق، تنعكس صورتك في حدقتيه في كل لحظة.. يحيطك بعينيه فتشعري بالأمان والطمأنينة..

لكن عيناي أنا لن تجدي فيهما سوى ظلام وعتمة.. لن تجديني حبيبًا عاشقًا كما كنت سابقًا..



وكأن الآلام تجمعت في سمائي، فنشرت غيوم القهر والعجز وأمطرت يأسًا أغرقني بداخله، ولم أكن أعرف إلى أين سيكون المنتهى!..



(١٢)

على الرغم من مرارة بعض الذكريات فإنك تجد نفسك عاجزًا عن محوها من عقلك..

يومًا بعد يوم يزداد يقينك أنها مجرد نسخ مكررة من بعضها البعض فقط لتوجعك أكثر.. وكل يوم تُلقَى في وجهك بعنف لتخبرك أنك أبدًا لن تنسى مهما حاولت، ومهما سامحت أو غفرت..

خيبات أمل متتابعة تتم إعادتها بالتصوير البطيء أمام عينيك لتؤكد لقلبك المتوجع أن النسيان شيء ما وراء المستحيل..

بعد موت والدك "وليد" وفقدانك لبصرك لم تعد أنت، مررت بفترة من السكون والصمت جدًا أليمة.. ومهما بذلتُ أنا من جهد لإخراجك منها، انكمشت على نفسك أكثرودفعتني لمسافة أبعد..

ووالدي.. يراك فيتألم لخنوعك، يتساءل: أين "وليد" القوي؟..



صاحب الإصرار والعزيمة؟.. العصبي المجنون؟.. الذي كاد يختطف مني ابنتي عنوة؟..

وأنت لا رد منك.. فقط تحتفظ بهدوئك وتدير وجهك بعيدًا عنا..

حتى كانت تلك اللحظة التي كسرتَ فيها قلبي بسبب عشقي لك ولأول مرة..

وقتها بالفعل اعتقدت أن قلبي توقف عن النبض، أو أنني أصبت بالشلل، يومها أعطيتك دواءك فجروح جسدك مازالت تحتاج لبعض العلاجات.. ابتسمت واقتربت منك.. مددت يدًا مترددة وجلة لأمسك بكفك فسحبتها بسرعة كأن أصابعي هي إليك حية تسعى.. تخشى سمها أو تتوجس لدغتها..

أوجعني قلبي لكنني أقدر ما بك، جلست إلى جوارك في صمت للحظات وقبل أن أنطق سمعت صوتك المنكسر يقول في حزم شعرت به مصطنعًا:

- شهد.. لا تغضبي مني، أنا فقط... لن يمكننا الاستمرار..

واتسعت عيناي ذعرًا.. ربما فهمتك خطأً!..

كنت تقول أنا ثم عدت تخرف بحروف لم أفهمها، بقلبي المرتعب وصوتي اللاهث قلقا سألتك:

- ماذا تعني وليد!.. عن أي استمرار تتحدث؟

بلهجة جافة أجبت، ويا ليتك ما نطقت:

- زواجنا شهد.. لم أعد أصلح زوجًا لك أو حتى لغيرك، لقد انتهيت..

ولأنني كنت حتى اللحظة الأخيرة أحاول أن أقنع نفسي بالفهم الخاطئ فقد زلزلت كلماتك كياني وهزتني بعنف..

انتفض قلبي شاعرًا بالطعنة المفاجئة!..

لقد نطقتها.. وبكل وضوح، كأنني لم أعنِ لك يومًا شيئًا..

طال صمتي، لمحت القلق على ملامحك ليعود الأمل ساريًا ببطء إلى روحي، حاولت النطق فكانت دموعي هي السباقة ونشيجي يعلو معها لتهتف أنت بي:

- صغيرتي لا تبكي.. أنا بالفعل لم أعد أصلح، شهد.. حياتي أصبحت ظلامًا، لن أسحبك داخله معي.. أنت صغيرة ورائعة، تستحقين الأفضل..

ربما كنته يومًا، لكنني الآن لم أعد، ولن أتمتع بأنانيتي وأحتفظ بك إلى جواري.. حاولي أن تتفهمي..

ونشيجي يعلو أكثر.. دموعي شلال هادر على وجنتي.. آهة حارقة غادرت صدري مندفعة عبر شفتي بخفوت، لتبدأ بعدها مرحلة النكران والغضب المفاجئ:

- لا تتحجج وليد.. ربما أنت لم تحبني يومًا، ربما شعرت أنك مجبر على امرأة لا تريدها لأنها فقط ابنة العم و ليس لها غيرك!.. عن أي أنانية تتحدث وأنت الآن تجسد أقوى صورها!.. أنت تفكر بنفسك، بوجعك، بوحدتك، برغبتك في العزلة عن العالم أجمع.. مخلفًا وراءك طفلة أصبحت أنثى فقط لأجلك، لتعيدها أنت كسيرة القلب محطمة ومشلولة الفكر.. رثاءً لنفسك وحبًا فيها، تدعي ترك الأنانية!.. أنت الآن أكثر أناني عرفته..

صمتُ للحظات لالتقاط أنفاسي.. تطلعت إليك من بين دموعي، الألم على وجهك شطر قلبي نصفين، هل قسوت عليك؟..

لم أعلم.. فقط قلبي كان موجوعًا وعقلي يدفعني لإشعال نيران الغضب فيك أنت واستطردت بعدما جفت دموعي:

- اكتب قصائد الرثاء في حادثتك كما تريد وليد.. استمر في البكاء، افقد الأمل وتنحَ بعيدًا.. ومن يقترب منك أطلق على قلبه نيران قسوتك، وستحصل على وحدتك التي تبغي..

وهي.. في لحظة.. سقطت هناك!..

لتجذبني إلى قاع بئر الندم والأسف، دمعة غادرت جفنيك ببطء لتزيد من حسرتي.. وأجد بعدها رأسك بين ذراعي وأنا أهتف كطفلة:

- لا تتركني وليد.. لا تكن قاسيًا، هل تريد إصابتي بالجنون؟.. أهذا ما تسعى إليه؟..

وبالفعل كمجنونة أصبحت..

بعد الصراخ والنكران، انسابت دموعي وانقلبت حالتي للتوسل والضعف، أرأيت ما تفعله بي دوما؟..

ستقتلني يوما "وليدي"، قلبي بين يديك وأنت تعتصره بعنف لينزف محتضرًا ببطء، شعرت بذراعيك تضمانني إليك للحظات قصار..

عاد لي الأمل وقبل أن أرسم بسمة فرح على شفتي أبعدتني، همست وأنا أكاد أسمعك:



- لن تفهمي شيئًا شهد.. مازلت صغيرة، فقط دعي الكبار يقررون.. أنا اتخذت قراري.. الاستمرار ظلم، ظلام، أنانية، نوبات هياج، لحظات اكتئاب.. كل هذا ستحيين فيه معي، لتجدي نفسك بعد عام أو عامين قد شختِ وشاب قلبك الصغير.. لن أستطيع شهد..

بتوسل هتفت:

- لمَ فقدت الأمل بهذه السهولة وليد؟.. من قال أن بصرك لن يعود؟.. أن فارسي لن يحملني على جواده ويسير بي في دروب العشق التي رسمناها سويًا!.. كل شيء ممكن، وأنت فقط مستسلم.. لم أعهدك هكذا من قبل، أي خنوع هذا وليدي؟.. يا مصدر أماني..

وبصمت أجبتني للحظات طالت، بعدها قلت والأنين يتقاطر من حروفك:

- سقط الفارس وانكسر صغيرتي.. انقطع السرج وهرب الجواد القوي ولن يعود، هرب لدروب أخرى.. دروب جرداء كصحراء لاهبة، وبعد الانكسار يأتي الرضوخ للأمر الواقع،، ربما هناك أمل، لكنه بعيد للغاية، لدرجة قربه من الاستحالة.. والأمان لن يكون مع أعمى شهد..

صرخت بجنون:



- لا تنطقها وليد.. أرجوك لا تفعل..

وضحكتك الساخرة المريرة مزقتني أكثروأنت تقول:

- وما الفارق؟.. هل نطقها سيحققها ككابوس؟.. أم عدم لفظها سيجعلها حلمًا سأستيقظ منه وينتهي؟.. توقفي عن خيالاتك وبراءتك قليلًا شهد، لقد أصحبت تغضبني..

همست في رجاء وأنا أجلس عند قدميك:

- لا تنطقها لأنها تؤلمني.. حتى وإن كانت واقعًا وليد، لمَ لا تتكيف معه؟.. تتعايش فيه؟.. أنت مجبر شئت أم أبيت، يمكنك خوضه بجرأة وصبر وأمل مع حبيبة تساندك، ويمكنك الغوص في وحل آلامه حتى تختنق بها وتدفن نفسك وأنت على قيد الحياة..

بدوت عنيدًا كعادتك، أدرت وجهك بعيدًا عني في صمت..

دقيقة كاملة أو ربما يزيد والهدوء يعم الغرفة، لمحتك تلتفت إليّ ثانية وقبل أن أفكرفي أمل وجدت ملامحك كما هي..



بائسة، خاضعة، بها لمحة غضب فعرفت أنك اتخذت قرارًا وأن كلماتك التالية ستكون قاطعة.. عضضت شفتيك بقوة أشعرتني أنا بالألم، بحزم مصطنع وصرامة مفتعلة قلت:

- انتهى الأمر واتخذت القرار يا ابنة عمي، أنت... أنت...

تردك أنبأني بكلمتك التالية ولم أشعر بنفسي إلا وأصابعي تغلق شفتيك عنوة..

كلا لن تنطقها أبدا "وليد"..

سأقتلك لو فعلت، صرخت قبل أن تكمل وأنا أحبس حروفك:

- لن تقولها؟.. لن أتركك تتلفظ حتى بحرف منها أتفهم وليد؟.. سأقتلك وأنهي آلامك وحياتك بنفسي لو فكرت حتى فيها، هل تسمعني؟.. تعلم أنني مجنونة ويمكنني فعلها.. فحافظ على نفسك واتقِ غضبي، أنت زوجي وحتى آخر أنفاسك ستبقى زوجي..

ولم أمهلك وقتا للرد، فقط استدرت على عقبيّ وانطلقت مغادرة المكان بسرعة وعنف قبل أن يصيبك التهور مجددًا.. فلن أتحملها أبدًا منك يا زوجي العزيز وشطري الثاني.



***

بجنونك كنت عاصفة صغيرتي..

تنقلت بين عدة شخصيات وصنوف مشاعر في دقائق معدودة!..

أطلقت علي كلمات كالرصاص، لتمسحي دمعة سقطت من مقلتي قهرًا وحروفك يكسوها الألم، بعدها نبرتك كانت متوسلة عاشقة، وفي النهاية تهديد صارم بالقتل!..

بعد هروبك السريع خوفًا من نطقي بكلمة الطلاق ارتسمت قسرًا ابتسامة على شفتي وربما منذ أكثر من شهر لم توجد هناك..

لقد أخذتْ الحادثة مني الكثير.. والدي، بصري، قلبي الذي تعلق بك منذ صرختك الأولى والأكسجين يملأ رئتيك بعد مغادرتك رحم والدتك ومجيئك لعالم الجور الذي أحياه..

سلبتْني قوة كنت أعتقد أنها في خلاياي، جزءً لا يتجزأ مني، مثابرة اعتقدت أني دومًا أملكها، وفي النهاية وجدت نفسي قعيدًا في غياهب ليل دامس دائم.. وأنت يا طفلتي تتمسكين بي وبشدة..



لم أكن أريد التسبب في ظلم لك، قررت الاستغناء عن روحي و عشق قلبي حتى لو احتضر بعدها.. فقط لتنالي أنت من تستحقين..

رجلًا كاملًا يرى خجلك وأنت بين ذراعيه..

يتأمل العشق في عينيك وهو يهمس أحبك..

رجلًا تخفضين عينيك أرضًا هربًا من نظراته..

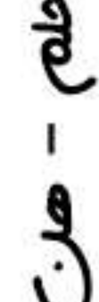
لكن أنا فقدت كل ذلك و أنت تصرين على فقدانه معي!..

أيام أخرى تمر وأنت تتجنبين زيارتي، خشية من أحرف ألفظها فور سماعي لصوتك فالرؤية لم تعد صالحة للتعبير..

وأنا على صمتي محتفظًا بوحدتي كراهب تبّتي اعتلى قمم الجليد حتى تجمدت روحه..

بعد يومين أتاني اتصال هاتفي من الضابط المتابع لقضية والدي، طلب مني الذهاب إليه وعندما سألته إن كان هناك مستجدات اقتضب في رده وقال فقط تعال ونتحدث!..

طريقته أثارت ريبتي، يبدو أن دمك قد هُدِر وضاع هباءً يا أبي العزيز، وبصري لا قصاص له..



اتصلت بصديقي الوحيد ومنبع سري وصندوق أماناتي الأسود "رمزي" وأتاني في التو.. كم هو رائع أن تجد في وقت شدتك واحتياجك من يساندك ويشد من أزرك!..

بعد جلوسنا أمام الضابط الصارم، وبصوته الجاف الخال من أي عاطفة قال بحزم خلا من الارتباك:

- سيد وليد.. للأسف لم نستطع الوصول لأي شيء، من قاموا بالجريمة ليس لهم أي سوابق.. وحتى أنت لم ترَ وجوههم ولو رأيتها فاعذرني لن تستطيع أن تدلنا لو عرضنا عليك صور المسجلين لدينا.. سأضطر لحفظ القضية وتقييدها ضد مجهول وأعدك إن طرأ أمر جديد ستكون أول من يعرفه..

اجتاحني الغضب، لقد جن حتما ليخبرني أن موت أبي وما حدث لي لا دية لهما أو قصاص!..

وجدت نفسي أهتف فيه غاضبًا حانقًا:



- بهذه البساطة؟.. لم يمر سوى شهر واستسلمتم تاركين المذنبين أحراراً طلقاء ينعمون بنتائج جريمتهم؟.. أعيش أنا في ظلام حالك، ووالدي يسكن قبره تحت التراب وأنت تخبرني أنكم لن تستطيعوا فعل شيء؟..

حاول "رمزي" تهدئتي والضابط يقول بشيء من الخجل بدا غريبًا على صوته الخشن:

- سيد وليد لو كان بإمكاننا فعل شيء لفعلنا!.. الجريمة تمت بنظافة شديدة، أبوابكم لم تُقتحم، حارس المنزل والخدم مخدرون، لا بصمات أو وجوه تمت رؤيتها لتصفها لنا حتى.. قُتل والدك وغالبًا كان المقصود قتلك أنت أيضًا لكنك نجوت بمشيئة ربانية، لم نعلم أعداءً بشكل خاص لوالدك أو لك ليؤذوكما، وبالتالي كل طرق البحث أمامنا نهايتها مسدودة..

مزقني الألم.. أهذه هي النهاية؟..

لن يدفع أحد ثمن دم أبي الذبيح، ثمن النور الذي حُرِمت رؤيته؟..

سينجو الفاعل كشعرة خرجت من عجين ويتمتع وينعم بالحياة وأنا أتعذب في كل لحظة؟..

عاد الضابط يقول بنبرة بدت كأنها تتعلق بقشة أمل أخيرة:



- طيب سيد وليد.. لو توقفنا عن البحث عن الأعداء، من المستفيد من موتكما؟.. أي نوعٍ من الاستفادة؟.. سواء في العمل؟.. أو....

صمت الرجل للحظات طالت في نظري كدهر فعدت أستحثه:

- أو ماذا؟

سألني بتردد:

- كيف هي علاقتك بعمك سيد وليد؟

انتفضت بعنف في مقعدي، كيف يمكنه أن يتلفظ بجملة كتلك؟

صرخت فيه غير عابئ بما قد يحدث لي:

- ماذا؟.. إلام تلمح يا رجل؟.. هذا جنون..

وللغرابة.. تماسك أمامي ولم ينفعل، في حين رد "رمزي" بحيادية:

- سيدي.. عم وليد كأبيه تمامًا، وابنته زوجة وليد.. لا يمكن أن يؤذيه أو يؤذي شقيقه أبدًا..

كان جواب الضابط جافا كباقي حواره:



- عفوًا سيد رمزي.. أنا فقط أبحث عن دافع وأنت هنا أعطيتني دافعين!.. السيد وليد متزوج من ابنة عمه، والشركة مناصفة بين الرجلين.. في حالة وفاة الأخ وابنه تنتقل ملكية الشركة والميراث كاملًا للأخ الآخر وابنته زوجة الابن.. يتبقى فقط بعض ميراث قليل للأم يمكن شراؤه ببساطة أو حتى التحايل للوصول إليه وبالتالي تكتمل الثروة في يد الأخ الأكبر ويستولي على الشركة كاملة في حالة وفاة أخيه وابنه..

طعنني تفسيره طعنة نجلاء!.. بانفعالي صرخت:

- حسنًا سيدي الضابط.. إن كانت قد نضبت أفكاركم واستنفذتم حيلكم وخططكم في البحث فلا داعي للتذاكي وإلصاق التهم بالشرفاء، انتهى الأمر ولم تستطيعوا حل اللغز.. اعترفوا فقط وأنهوا الأمر بدون مهاترات لا داعي لها..

بنفس البرود وإن اكتسب لمحة صارمة رد:

- لا تندفع يا رجل وتترك لعواطفك القدرة على التحكم في عقلك.. فكر في الأمر، لا أعداء، لا أسباب، جريمة نظيفة للغاية تمت في غضون دقائق.. ابحث عن الدوافع تصل للقاتل، من المستفيد من موتكما معًا؟.. يمكنك اتهامه وابنته رسميًا وسنبدأ التحقيق فورًا.. وكما أخبرتك بوفاتكما

الميراث والثروة لهما ونصيب والدتك يسهل حل مشكلته سواء بحل قانوني أو غير قانوني.. لن يشكل فارقًا، فكر جيدًا قبل أن تترك انفعالاتك تسيطر على عقلك وتخفي عنك حقائق منطقية واضحة..

لم أستطع المكوث أكثر.. انتفضت واقفًا وأنا أهتف محاولًا الخروج من المكان:

- وتتهمها هي أيضًا؟.. حتمًا هذا جنون، هيا بنا رمزي.. لم أعد أحتمل التواجد هنا، لا تبرروا عجزكم باتهام الأبرياء..

وخرجت أكثر غضبًا، بل أكاد أشتعل كسعير شديد اللظى..

كيف يفكر ذلك الرجل!..

هؤلاء القوم اعتادوا الشك في أصابعهم ففقدوا قدرتهم على الحكم على الأمور بعقلانية.. أصبح التوجس وسوء الظن هو سَمْتُهُم ومِنهاج حياتهم..

غادرت المكان لا ألوي على شيء ولم أكن أعلم أن القدر يحتفظ لي بضربة قاصمة أخرى عما قريب..



(١٣)

تتدافع الأفكار لعقلي بجنون عاصف.. إعصار زلزلني وابتلعني ثم أضاعني!..

أُنتزعتُ من جذوري انتزاعًا قاسيًا ثم أُلقيتُ بكل إهمال وعنف في غياهب التيه..

لم أعد أعرف من أنا أو ماذا أريد وإلى أين ينبغي أن أذهب؟..

ألقى الرجل بشكوكه في متاهات عقلي ثم تركني أتتبعها حتى ضعت خلفها وأنا أحاول البحث عن طريق العودة..

في طريقي للمنزل كان "رمزي" صامتًا طوال الوقت وأنا تتقاذفني موجات أفكاري وتتصارع على تمزيق خلايا مخي المجهدة.. عندما توقفنا بالسيارة في هدوء تساءل صديقي:

- وليد.. صمتك غير مطمئن بالمرة، هل أثار حديث الضابط في رأسك الشكوك تجاه عمك وابنته؟

أغمضت عيني ببطء وأرجعت رأسي للوراء مستندًا على مسند مقعدي وأجبته بتنهيدة حارقة:

- لا يمكنني مجرد التفكير في الأمر رمزي.. لا أعلم لمَ دومًا نظرية المؤامرة تجري مجرى الدم من شعبنا؟.. الرجل يشكك في أقرب المقربين، أو المقربين الوحيدين الموجودين على ظهر البسيطة ويطلب مني تقبل الأمر والتفكير فيه بل واتهماهما رسميًا ليحقق في القضية.. أي فشل يدفعهم للبحث عن كبش فداء لتنتهي القصة ويريحوا أدمغتهم من العمل والجهد!.. أغضبني وأثار استيائي بشدة..

سمعت تنهيدته المستريحة هو الآخر، بعدها عاد يقول:

- لوهلة ظننتك صدقته!.. عمك كوالدك تمامًا يا صديقي ولم أر في مثل حنانه أبدًا، لذلك أكمل حياتك وتزوج لتجد حبيبتك إلى جوارك على الدوام.. وأرح عقلك من عناء التفكير، اترك الأمر لله سيقتص هو بعدله لك ولوالدك..

كان ردي تقليديًا مقتضبًا:

- ونعم بالله..



لم أكن أريد الخوض في أي أمر يتعلق بك صغيرتي مع أي مخلوق حتى صديقي الوحيد.. ولأن علاقتي بك قد حسمتُ نهايتها بداخلي فلا داعي للحديث بشأنها..

لذلك فقد شكرته وعدت للمنزل لأسمع صوتك تحادثين والدتي، ساد الصمت عند دخولي ثم أتت والدتي لتقبلني معلنة أنها ذاهبة للإشراف على تحضير الغذاء.. غادرتنا عامدة لتترك لنا حرية الحديث!..

لم تكن بي رغبة وكنت أعلم أنك ستهربين كعادتك.. لكن خاب ظني هذه المرة!.. سمعت خطواتك تقترب بعدها جلستِ إلى جواري وتساءلت بخفوت:

- كيف حالك وليد؟

ابتسمت ساخرًا.. سؤال لا داعي له.. ومنك أنت يا من ترفضين لقائي!..

لا أهتم للسبب بقدر ما أهتم بفعلك، كنت غاضبًا من أشياء عدة.. تلك الشكوك التي زرعها الضابط في رأسي.. تمسكك بي، رفضي وعنادك.. تهربك مني، ولأول مرة أشعر بغضب جارف نحوك جعلني أبحث عن كفك فأعتصرها بقوة هاتفًا في وجهك:



- وهل حالي يهمك زوجتي الصغيرة؟.. منذ متى لم تسألي أو تهتمي؟

تأوهتِ في ألم وأجبتِ بحروف متقطعة:

- وليد أنت تؤلمني.. تعلم جيدًا سبب خوفي من لقائك، لقد كدتَ تنطقها في المرة السابقة.. ماذا تريد مني أن أفعل!.. أنتظر في صمت حتى تقصيني بعيدًا عنك وتطردني من حياتك بكل جفاء وقسوة؟

ولأول مرة لم أهتم بخوفك أو تأوهاتك..

كنت غاضبًا منك ومن كل شيء.. محبطًا، أشعر بوحدة قاتلة وعجز كامل.. حركتي أصبحت محدودة وبمرافق، كل شيء يحنقني.. وأنا الرجل المليء بالحيوية والنشاط الجم فقدت أغلى ما يملكه إنسان في عنفوان شبابي..

لأجد منك شفقةً وتمسكًا غبيًا بالاستمرار معي لتحبسي نفسك في صندوقي المظلم، وتهربًا من لقائي كأنني لن أستطيع فعلها إلا في وجهك.. لذلك كان ردي جافًا قاسيًا:

- أحقا شهد!.. اهتمامك من نوع غريب، أم أنك تراقبينني وتطمئنين عليّ دون أن أراك!.. هذا أمر سهل كما تعلمين..



شعرت بصوتك باكيًا وأنت تهمسين في حزن:

- لمَ تعذبني؟.. لمَ تتخذ القرار وحدك!.. أنت قدمت اقتراحًا وأنا رفضته، هذه حياتي أنا وأنا وحدي أملك حرية اتخاذ القرار فيما يخصها.. لست طفلة وأنت لست وصيًا على تصرفاتي أو قرارتي..

ضحكت..

لم أدرِ كيف أو لمَ؟..

لكنني فجأة شعرت أن الموقف مثير للسخرية، تركت يدك لأسألك بجدية:

- وما هو رأي والدك طفلتي؟.. هل يوافقك على الاستمرار في هذه الزيجة؟

كان صوتك مندهشًا وأنت تجيبين:

- ولمَ قد يعارض وليد؟.. أنسيت أنه عمك..؟ مثل والدك؟.. ويعلم جيدًا كيف حدث الأمر، بل ويسعى لشفائك؟

تنهدت.. أي نوع من التنهيدات كانت هي لا أعلم!.. فقط كانت حارقة متعبة، في حسم أخبرتك:





- أنا اتخذت قراري شهد.. لم يعد هناك شيء قد يثنيني عنه، أنت مازلت صغيرة، وحتى أعود كما كنت فأنا خارج حياتك منذ هذه اللحظة.. هذا إن عدت..

فجأة وجدتك تصرخين فيّ!..

لم أفهم من كلامك شيئًا، ولثوانٍ كنت مأخوذًا بعدها علت وجهي صدمة بالتأكيد..

كنتِ تضربين بقبضتيك صدري بعنف، وأنت تهذين بحروف غير مترابطة..

في الواقع شعرت أنك قد أصبتِ بالجنون، لتأتي والدتي على صوت صراخك وتنتزعك من أمامي وأنا على دهشتي وصمتي.. صوتك ابتعد ببطء وأمي تحاول تهدئتك حتى لم أعد أسمعك..

وضعت رأسي بين كفيّ وقهرًا وللمرة الثانية سالت من عيني دمعة..

***

متى تعلمت القسوة "وليد"؟..

أي نوعٍ من الرجال أنت!..



كنت دوما أتطلع إليك كبطل مغوار.. فارس قوي.. شجاع مقدام.. حتى حدث ما حدث، لأجدك كتلة من الخنوع والخضوع.. ساكن مستسلم لمصير اخترته بنفسك، تعمل على إقصاء كل من يحبونك من حولك، وتبغي الحياة وحيدًا بعيدًا باكيًا على حالك تنشد قصائد الرثاء في بقاياك..

في ذلك العام الدراسي بعد حادثتك وبعد آخر لقاء أخبرتني فيه أنك اتخذت القرار؛ ابتعدت بالفعل..

لم أكن أريد لقاءك، كنت أخشاه بشدة.. ومرت الشهور وانتهت اختباراتي لتظهر نتيجتي التي حصلت عليها لأول مرة في حياتي بهذا الشكل..

تراجع مستواي ونحل جسدي وانتفخت عيناي من كثرة البكاء وأنت على صمودك وصدك وتجبرك..

مرت أكثر من ستة أشهر على الحادثة ووفاة والدك وأنت كما أنت..

حاول والدي البحث عن طبيب ماهر ومشافي متقدمة هنا وفي الخارج لأجلك، وأنت منطوٍ على نفسك في كل يوم أكثر من السابق له.. ولأول مرة يجد والدي طبيبًا متخصصًا في حالات مشابهة لك..



كان ألمانيًا أخبره عنه طبيب آخر مصري صديق لوالدي، أرسل إليه بتقارير حالتك وأخبره أنه يمكن المحاولة فقد تكون النتيجة عودة بصرك، ولو بنسبة بسيطة..

أخبرك والدي وأنت مازلت على رفضك، كنت تمزقني كل يوم، تبعدني وتصدني وتنتزعني من حياتك بصمت ووحدة وعزلة..

طلب مني والدي محادثتك وعلى الرغم من خوفي وقلقي من لقائك إلا أنني استجبت له، كنت أريد منك قليلًا من الصبر، بعض العزم وقوة الإرادة، ممتزجين بغيْضٍ من أمل..

أقدم خطوة لأعود فيها، وأمام غرفتك وقفت مترددة.. انعزلتَ بشدة حتى التصقت بغرفتك لا تغادرها إلا لمامًا..

استجمعتُ شجاعتي وطرقتُ الباب ليأتيني صوتك الذي افتقدته بشدة، وبتردد مددت يدي أدير المقبض ومعه قلبي ينقبض كأنما هو من أعتصره بين أصابعي..

التوتر يغزوني وأنا أقترب منك، رأيت ابتسامة تسلية تحمل بعض السخرية ترتسم على شفتيك بعدها قلت بنبرة لم أفهمها:



- مرحبًا شهد.. وأخيرًا طلت الأميرة على الفقير المسكين..

لم أدرِ كيف عرفت أنه أنا!.. لكنك أجبتني دون سؤال:

- خطوات قدميك الصغيرتين وترددك ووقوفك لدقيقة كاملة أمام بابي في خوف، من يمكن أن يفعل ذلك غيرك!.. أنا فقدت بصري لا عقلي وأذنيّ شهد..

نحيت كل ما قلته جانبًا، لم أظهر شفقة أو أسأل حتى عن حالك.. بل قلت مباشرة:

- لمَ ترفض السفر؟

كان ردك ساخرًا يحمل بعض الدهشة:

- هكذا دون مقدمات؟.. كيف حالك!.. أو أوحشتني.. أو أي شيء تعززين به موقفك!..

وردي حازمًا:

- لا وليد.. لا تذلل أو شفقة، لست صغيرًا أو ضعيفًا، أنت رجل وتعلم أين صالحك!.. فيكفي تصرفات الأطفال تلك، تعقل وابحث عما يفيدك..



لويت شفتيك غير راض عما قلت، رددت بعدها:

- ولأنني رجل كبير وأعرف صالحي لا أحتاج لوصاية من أحد.. ولا لبحث الآخرين عن علاج لي، يمكنني البحث بنفسي إن أردت.. وحينما أريد سأفعل..

شر طردة هي تلك التي طردتني بها من حياتك..

تعنفني بقسوة وتعاندني وترفض فقط كطفل صغير، اقتربت منك أكثر مهادنة على الرغم من غضبي وحنقي:

- وليد.. فقط استمع إليّ، أنت تعلم أنني أحبك ولا يهمني أي حال أنت عليه!.. لكن أيضًا يهمني رؤيتك سعيدًا، يهمني ابتسامتك التي افتقدتها، ضحكتك التي لم أعد أسمعها.. حيويتك ونشاطك، حتى هواياتك التي كنت تمارسها بحب.. جرب ولن تخسر شيئًا.. جرب لأجلي، لا تتخلَ عني بهذه السهولة، لا تكسر قلبي وتبعدني.. جرب لأجل وجودنا معًا ولا تفقد الأمل أبدًا، سأكون معك خطوة بخطوة.. لم أطلب منك الكثير من قبل، فلا تخذلني هذه المرة..



علا الصمت فكان له دويّ موجع.. حتى أنفاسك لم أعد أسمعها، ويقتلني الانتظار كمحكوم عليه بالإعدام في انتظار عفو غير متوقع..

طال صمتك أكثر فاقتربت منك، طبعت قبلة حانية على رأسك يا طفلي وهمست بتوسل:

- لأجلي.. بل لأجلنا معًا وليد..

لم ترد.. فتراجعت بهدوء وبطء علّك تناديني، حتى غادرت الغرفة وغيوم الحزن تجتمع في سمائي من جديد.. وأملي يخبو ببطء..

***

كنتُ جالسًا أسترجع رجائك الباكي..

آلمتِني بدون أن تدري "شهد".. اعترفتِ بنقصي، بحاجتي للاكتمال..

أتراني أحابي نفسي وأقسو عليك؟..

لا أعلم.. فقط وافقت على طلبك والعم وتم تحديد كل المواعيد وسافرنا، قلق وخوف وانتظار لنعود خاليّ الوفاض.. والمحصلة لا شيء كما ظننتُ!..



ربما ظني واعتقادي بهذا الشكل خاطئ، لكنني في وقت شعرت فيه بضعف غريب لم يكتنفني من قبل، ورغبة في الاستسلام والسير حسب ما يلقي بي التيار، حتى لو كان مصيري الغرق..

بعد عودتنا كنت قد حسمتُ أمري بشكل نهائي، واتخذت القرار بشأن زواجنا..

عزمت على الطلاق في بداية الأسبوع التالي قبل بدء الدراسة بشهر، حتى يمر عامك الأخير هذه المرة على خير..

أخبرت والدتي أنني أريد محادثتها لتفاجئني هي الأخرى برغبتها في إخباري بشيء ما!..

بدا صوتها قلقًا متوجسًا، لكنني لم أعلق الأمر في ذهني إلا لبضع ثوان حتى نجلس ونتحدث بشكل جدي..

وحان الوقت وحانت معه الضربة التي قصمت ظهري مرة أخرى!..

لم أخبرها برغبتي في الانفصال عنك، أخبرتها أنني سأستمع إليها أولا لأجدها تقول في خفوت وارتباك:



- وليد.. عمك يريدنا أن نذهب لنعيش معهم في منزلهم ونبيع هذا المنزل بكل ما فيه وما يحمله من ذكريات قاسية..

لم أفهم ما تعنيه بالضبط، كيف سنعيش عندكم؟.. ووالدتي؟..

ترجمت سؤالي لصوت مسموع لتجيبني والقلق يملأ أحرفها، التي انطلقت كسهام موجهة نحو عقلي وقلبي معًا:

- لقد عرض عليّ عمك عبدالله الزواج منه..

هل تتخيلين معي؟.. أمي تتزوج من عمي؟..

ووالدي ذُبِح منذ حوالي سبعة أشهر فقط؟..

وهي عمَ تبحث؟..

زواج؟..

رجل آخر يؤنس وحدتها؟.. ومن؟..

والدك أنت؟.. عمي؟.. شقيق والدي؟..

المتهم بقتله؟..

فجأة نبضت الكلمتين الآخيرتين في عقلي وتوهجتا بشدة؟..



عادت كلمات الضابط تقرع أذني بعنف..

"وكما أخبرتك بوفاتكما الميراث والثروة لهما ونصيب والدتك يسهل حل مشكلته سواء بحل قانوني أو غير قانوني.. لن يشكل فارقًا"..

أهذا هو الحل؟.. أهذا هو ضمان الثروة؟.. هو يتزوج أمي وأنت تتزوجينني؟..

طال صمتي.. طال كثيرًا حتى شعرت بأمي تقترب مني وتربت على كفي بحنان أشعرني بالتقزز:

- وليد.. أنت تعلم ما أنا فيه.. أنا خائفة!.. أشعر بالعجز والقلق، نحتاج لوجودنا مع عمك، رجل يحمينا ويقوم بأعمالنا، أنت... أنت لن تذهب لعملك، وحياتنا توقفت.. أحتاج لمن يساندني ويساندك معي، قل شيئًا يا ولدي..

وقتها لم أجد ما أقوله..

اجترت مرارة انهزامي ويأسي وتجرعتها دفعة واحدة بطعم العلقم لتحرق صدري.. هل شاركتهم أمي جريمتهم؟..

أم أنك مغدورة مثلي؟..



كاد عقلي يجن وينتفض خارجًا من رأسي تاركًا إياي في لوعتي وحيدًا.. وتضاعف شعوري بالقهر والعجز وقلة الحيلة، تضاعف غضبي واشتعل لهيب رغبتي في أن أذيق أمي وعمي وأنت لهيب ومرارة الفقد..

كيف تفكرون؟..

وأنت يا أماه؟.. كيف واتتك الجرأة؟..

قلبك الذي سكنه والدي بسرعة رغبتي في تمليك غيره منه!.. رجل آخر سيحتل مكانته في حياتك، ويتملك منك ومني معك!..

في كل ثانية كان غضبي يشتعل أكثر، وقلقها يبدو واضحًا على صوتها وهي تنادي اسمي.. كرهت اسمي وكرهت كل شيء حولي، قمت واقفًا بعنف أفزعها وصرخت فيها غاضبًا:

- والذبيح في قبره أمي؟.. لم يمر على موته سوى أشهر قليلة وأنت سرعان ما فكرتِ في الزواج من غيره؟.. ومِن مَن؟.. شقيقه؟

سمعت صوت بكاءها الشديد.. بعدها احتضنتني بقوة وهي تهتف:

- كيف أنساه يا بني؟.. أنا خائفة يا وليد، أشعر بضعف وقلق لا حد لهما، أحتاج لمن يساندني ويرعاني ويرعاك معي.. ومن أكثر منه أمانة ليفعل؟..



عدت أصرخ وكأن عماي أصبح مزدوجًا وأنا أنتزع نفسي من بين ذراعيها بعنف:

- كيف تنسينه؟.. إذًا كيف تتزوجين من بعده؟.. في هذا العمر؟.. وبعد عدة أشهر من موته؟.. ما بك أمي؟.. أجيبيني..

وبصوتها الباكي أمسكت بكفي وقالت:

- أخبرتك أنني أحتاج إلى رجل يساندني ويدعمني وليد، وعمك هو الأقرب منا.. هو والد زوجتك ولن نقلق أو نخاف منه..

كسرَتْنِي أمي عدة مرات بحديثها معي.. سألتها والحزن يتغلغل بداخلي أكثر:

- وماذا عني؟.. ألست برجل يصلح لدعمك ومساندتك أماه؟

صمتت لثوان عاجزة عن الرد، أو ربما خائفة من النطق بما يدور بخلدها!.. فأجبت نفسي عوضًا عنها:

- لا تقولي شيئًا أمي.. نعم أنا لست برجل، أنا مجرد بقايا مهترئة عاجزة، تحتاج للدعم والرعاية في كنف آخر هي أيضًا..

تشبثت بي هاتفة في لهفة:



- لا وليد.. لا تقل ذلك، ستظل أنت رجلي الصغير.. ستظل دومًا سندي في هذه الدنيا..

لم أستمع لما قالته..

شعرت بالتيه وكأنني سأغيب عن الوعي بعد قليل أوربما الوجود..

كأنني أطفو لأعلى بعيدًا عن جاذبية الأرض الحمقاء والتي تثبتني لماض بذكرياته البائسة، غشيت قلبي غيمة رمادية لأشعر بقبضة عنيفة تعتصره بشدة.. بقسوة..

وجع ينتشر في أرجاء جسدي، يسري في دمائي، يغلف عقلي بظلمة جديدة..

مارد غاضب انطلق من عقاله..

مارد سيدمر الكثير في طريقه..

لقد وضحت اللعبة؛ إن لم تحصل على ما أردت في المرة الأولى، جرب مرة ثانية وتحايل كما يحلو لك..

وبالنسبة لي فإن النهاية ستكون كما البداية تماما.. بالدم!..



وأعرف جيدا بدماء من ستكتب.. لقد انطلق المارد ولن يوقفه شيء..

مارد الانتقام..



(١٤)

أيام تتشابه..

تتساقط متتالية كأوراق شجرة ذابلة في موسم خريفي خانق..

صممت أذني عن حديثها، عن محاولاتك للاقتراب مني أو التفاهم معي، عن خجل يعتري كلمات عمي وهو يحادثني.. قُضي الأمر بداخلي وأصبحت الصورة بأوضح ما يكون..

عقلي قارب الجنون، وقلبي غلفته قسوة عنيفة..

الشك ملأ رأسي وتملك مني شيطان الهوى..

أسبوعان هما.. فاتحني العم في أمر زواجه من أمي، لم يجد مني ردًا سوى السكوت، وكما فهم فهو علامة الرضى!..

تذللت لي والدتي وحاولت استرضائي بشتى الطرق، وأنت تغيبين وتعودين بسؤال وحيد..



"كيف حالك؟"

لتحصلي على لا شيء.. وبينكم جميعًا كنت أنا.. محطم، يائس، مستسلم لمصير حالك الظلمة، وبداخلي انفجر بركان الغضب.. صب حممه بتلذذ على خلايا عقلي، أحرقها، صهرها، أذابها..

ومن مكانها نبتت خلايا شيطانية، قتلت فيَّ رجلا كنته في السابق، وخلقت ماردًا غاضبًا يستسيغ القسوة ويرتوي بالألم وينهض بالعنف ويكبر كلما ذاق الضعف أكثر..

وضعفك أنت "شهد" كان هو طعامه الأشهى والأفضل مذاقًا..

تراجعت عن قرار انفصالنا، عامك الدراسي سيبدأ في غضون أيام، حدد عمي موعد عقد قرانه على والدتي قبل دراستك بيومين.. بعدها سننتقل لنعيش معكم ونترك منزلنا بذكرياته الحلوة والمرة..

بآلامه ولحظات سعادته..

بدماء سالت في إحدى غرفاته وبقايا رجل تهيم فيه كشبح وحيد..



وحان الوقت، حضرلي والدك غرفة في الطابق السفلي لتكون أكثر أمانًا لأعمى مثلي لن يتحمل سقطة من فوق درجات سلم.. وانتقلنا، وتزوج العم من أمي..

أهي قصة عشق؟.. أهي خيانة؟.. أهي طعنة غدر؟.. أكان السبب ثروة؟.. أم امرأة أرادها لنفسه بعد عزلة سنين طويلة؟.. وأزال المانع لينالها الآن؟..

هل شاركتِه "شهد"؟..

أم أنك بريئة كطفلة غافلة؟..

الشك يعصف بي ويتقاذفني كموجة خلفها إعصار مدمر، عقلي بالفعل منهك ومادري ينتظر اللحظة المناسبة ليمارس هوايته التي تدرب وسيتدرب على مدار ذلك العام من أجلها..

هواية موجهة نحو مهمة واحدة ومحددة..

الانتقام من والدك "شهد"..

فيكِ أنت..



لن يشفع له أولك بقايا عشق احترقت بحمم القهر والحزن، ولن يشكل فارقًا دموعٍ تراق على وجنتيك بسببي.. بل ستكون هي غذائي، وسأمتصه منك بكل قوتي..

ستذبلين زهرتي الصغيرة.. والموت البطيء هو نهايتك، وبين ذراعي جلادك..

***

لم أعرف ما الذي ينبغي أن أشعر به عندما أخبرني والدي برغبته في الزواج من أمك "وليد"!..

كان الأمر صادمًا، مخيفًا، وموجعًا..

أبعد كل تلك السنون من الوحدة واعتزال النساء لأجلي تتزوج ثانية؟..

ومِن مَن؟..

والدة زوجي وزوجة عمي الذي قُتِل منذ شهور قليلة؟..

وقتها تاهت مني الحروف وتلعثمت شفاهي وهي تحاول النطق بشيء مفهوم، لكن قهرًا خرجت مني الكلمات غاضبة صارخة يعتصرها الألم:

- ماذا؟.. أبي هل أنت جاد؟.. أتريد الزواج من زوجة عمي؟.. والآن؟



أغمض عينيه في ضيق من صوتي المرتفع، أعلم أنه لم يعتد مني ذلك، لكن الأمركله مثيرللجنون.. ببطء وهدوء أجابني:

- نعم شهد.. أريد الزواج منها وفاتحتها في الأمر..

بطريقته في الرد خمنت رد والدتك.. انقبض قلبي ولم أفهم، سألته وأنا أعلم إجابته وأخشاها في نفس الوقت:

- وماذا كان ردها أبي؟

بشبح ابتسامة كان رده:

- وافقت شهد..

شعرت بأنفاسي تضيع.. أغمضت عيني للحظات، فتحتهما ثانية وبدأت دموعي في الانهمارفجأة وبغزارة..

اقترب مني وضمني لصدره مربتًا على كتفي لكنني ابتعدت عنه وأنا أهتف في غضب، ليس من أجلي أبدًا:

- ووليد يا أبي؟.. ألم تسأل نفسك كيف سيشعر؟.. لقد قتل والده أمام عينيه وأنت بعد شهور لم تتعدَ أصابع اليدين تطلب من والدته الزواج، وهي توافق؟.. أي جنون هذا؟.. لم تفعل بي ذلك؟..

تطلع إليّ في حيرة وقلق، سألني:

- ماذا فعلت بك شهد؟

أجبته من بين دموعي وحروفي تضيع مني:

- وليد يريد الانفصال عني أبي.. وبفعلتك هذه، ربما سيصر أكثر..

بدت الدهشة على وجهه وهتف:

- ماذا؟.. انفصال؟.. هل أخبرك بذلك؟..

أومأت برأسي في صمت، ودموعي كالشلال لا تريد التوقف.. عاد يضمني ويهمس مطمئنًا:

- لا تخافي شهد.. بزواجي من والدته سيأتي ليعيش معنا، ولن يمكنه الهرب منك.. وليد كما تعلمين رجل قوي، صلب، عنيد ومكابر.. في لحظات ضعفه يحتاج للمودة والتذلل من الآخرين بلا تعاطف بل خطبًا لوده.. يحتاج أن يشعرونه بأنه لايزال قويًا كما كان ولم يتغير به شيء.. لا تأخذك به شفقة أو ضعف صغيرتي، بل اغضبي منه كما اعتدتِ.. ناقشيه وتشاجري معه وأظهري غيرتك عليه.. أعلم أن الأمر قاسٍ على كليكما، هو فقط يحتاج للمزيد من الوقت للتأقلم مع واقعه الجديد..

وأنت تحتاجين لمزيد من الصبر والتناسي، ومن جهتي لن أتوانى في البحث عن علاج له حتى يعود كما كان بإذن الله..

حاولت مسح دموعي بكفي وقلت:

- أبي.. لا أستطيع تخيل فكرة زواجك من أخرى غير أمي التي لم أرها، لمَ يا أبي؟.. لقد امتنعت عن النساء طوال عشرين عامًا فلمَ قرارك المفاجئ هذا وفي هذا التوقيت البشع؟

تنهد وكأن الحمل ثقيل عليه بشدة.. صمت لثوان ثم أجابني بحسم:

- زوجة عمك امرأة وحيدة.. في أشد حالات ضعفها، فقدت زوجها أخي الوحيد في حادثة قاسية للغاية، وكادت تفقد ابنها الذي خرج من تلك الحادثة رجلًا عاجزًا بعدما كان يمتلك حيوية جوادٍ ثائر.. تحتاج للدعم، للمساندة، لرجل إلى جوارها يشعرها بالأمان والمودة، تسكن إليه وتشتكي فتجد أذنيه مصغيتين باهتمام.. وأنا كما ترينني شهد، ضاع عمري وأنا أهتم بك، منعت نفسي عن كل ملذات الحياة لأجلك.. الاحتياج بيننا متبادل، أنت كبرت وستتزوجين من ابنها، وستبقى هي وأنا وحيدين، قد توقظوننا في صباح ما لتجدوننا جثتين فارقتا الحياة في بطء ووحدة قاتلة.. من حقي وحقها التشبث ببعض الأيام المتبقية لنا، من حقنا

بعض الدفء في أيامنا الأخيرة.. قد يبدو الأمر غريبًا لكنه واقع، تلمسته معها وهي لم تمانع.. ربما لأنها تشعر بنفس شعوري بالضبط، وتخشاه مثلي.. حاولي تفهم الأمر صغيرتي وامنحيني مباركتك..

تألمت.. وبشدة..

والدي الرجل الوحيد الذي نذر نفسه لأجلي، أستكثر عليه قليل من الدفء في لياليه الباردة لأنانية مني!.. خشية فقدانك أنت!..

استكنت بين ذراعيه بصمت معلنة موافقتي في خضوع، وأنا أدعو الله أن يمر الأمر بسلام..

وبالفعل..

مرت عدة أيام لأجدكما تنتقلان لمنزلنا، حضر والدي غرفة لك في الطابق السفلي، عقد قرانهما وأصبح الأمر رسميًا..

وها أنت هنا، أمامي كل يوم.. أخشى الحديث معك، وصمتك قوقعة لا تخرج منها أبدًا إلا عندما يسألك أحدهم عن شيء، فأكاد أعد أحرف إجابتك حرفًا حرفًا.. مقتضبة، باردة، قاسية، لا مبالية..





في منتصف العام الدراسي وبعد امتحاناتي وجدتك تسير في حديقة المنزل، كنتَ غريبًا!.. كأنك تحفظ طريقك عن ظهر قلب!..

وقفت أتطلع إليك في دهشة لم تلبث أن تحولت إلى فرحة طاغية بتقبلك لواقعك ومحاولة مجاراته.. أنت تدرب نفسك على المكان والحركة فيه بدون مساعدة..

كانت حركتك سلسة هادئة، ليست بالبطيئة أو السريعة، وجدتك تتجه لأرجوحتي المفضلة.. الركن الذي أقمت فيه لنا أول وآخر حفل عشاء بسبب صديقتي "سلمى" و"نادين"..

رق قلبي وجذبني الشوق إليك..

جلستَ هناك على الأرجوحة تهزها ببطء، فاقتربت منك في وجل.. قلقة، خائفة، كنت أتحاشاك طيلة الفترة الماضية، كلامنا قليل للغاية، فقط عند الوجبات أو لو تقابلنا صدفة..

أنت تسألني بطريقة رسمية عن حالي ودراستي وأنا أجيبك بحروف قليلة أكثر رسمية هي الأخرى..



فجأة رأيتك تنتبه وتعتدل في جلستك.. لقد سمعت خطواتي، صوتك الحازم زلزل قلبي، يا الله كم اشتقت إليه:

- أهناك أحد هنا؟

أجبتك بخفوت أجبرني عليه خوفي:

- إنه أنا وليد..

وجدت حاجبيك ينعقدان.. لم أدرِ أغضب أم استياء أو رغبة في الوحدة وطردي من خلوتك الصغيرة!.. وجدتك تشير إلى جوارك قائلًا برفق:

- تعالي شهد.. اجلسي..

تحركت ببطء وجلست على الأرجوحة والتي عدتَ تهزها ثانية بعد استقراري فوقها.. حاولتُ الكلام فتحشرج صوتي مما نتج عنه نحنحة غير مفهومة، وجدت ابتسامة شبه ساخرة ترتسم على شفتيك، قلت بعدها:

- هل أنهيت اختباراتك؟

أجبتك:



- نعم.. اليوم فقط..

قلت رافعًا حاجبيك:

- ممتاز.. وكيف كان أداؤك؟

مقتضبة هي ردودي أعرف، قلت:

- جيد على ما أعتقد..

وجدتك تقترب مني بشكل جعل نبضات قلبي في سباق مجنون، أمسكت بكفي ورفعته لشفتيك هامسًا:

- أوحشتني..

ونبضة أخيرة كادت توقفه..

يا إلهي "وليد" أحقا ستعود إليّ؟..

بعد قبلتك الدافئة على باطن كفي همست مجددًا:

- أريده نجاحًا باهرًا هذا العام.. ليس كالعام الماضي، حسنًا صغيرتي؟

أومأت برأسي إيجابًا بسرعة ثم انتبهت أنك لا تراني فهمست أنا أيضًا:

- سأحاول.. عدني فقط أن تشد من أزري دومًا..

وابتسامة بكنوز قارون ارتسمت على شفتيك، كم افتقدتها وافتقدتك، وإجابتك جعلت قلبي يغادر صدري ويحلق فوق رأسك في لهفة وسعادة:

- سأكون دومًا هنا صغيرتي..

لم أستطع الكلام بحق..

انحبست حروفي في صدري بقوة حتى كدتُ أختنق، لقد تقبلت ما حدث أخيرًا "وليدي".. وقررت المضي قدمًا..

وجدت ابتسامة خبيثة تتراقص على شفتيك، همست بعدها بمكر أعشقه منك:

- ألهذه الدرجة تفتقدينني؟.. لمَ كل هذا الصمت؟

وجدتني ألقي بنفسي بين ذراعيك وأنا أهتف بصوت متحشرج:

- نعم وليد.. أفتقدك، تلك الفترة الماضية كنت أموت يومًا بعد يوم لأنك بعيد عني.. ترفضني وتقصيني بعنف وغلظة خارج حياتك، والآن... الآن قلبي يكاد يتوقف بالفعل.. أنا سعيدة للغاية وليد، أكاد أموت فرحًا..

ربت على رأسي برفق فرفعت عيناي نحوك لأجد ابتسامة لم أفهم معناها على شفتيك!..



أخافتني لوهلة ثم عدت أدقق فيها لأجدها تتلاشى ببطء وأنت تهمس:

- لا تخافي شهد.. سنكون معًا للأبد..

حملتني كلماتك حملًا إلى السماء.. بين السحب وغيمات المطر، إلى جنة تخيلتها دومًا معك..

دعوت الله أن ينتهي عامي هذا سريعًا لنكون معًا كما وعدتني..

للأبد..

***

أحيانًا تمر الأيام سريعًا، لا تكاد تلتقط أنفاسك فيها فتتلاحق وتفتقر ذرات جسدك للأكسجين الكافي وتشعر بدوار ورغبة في الغياب عن الوعي..

وأحيانًا أخرى يمر الوقت بطيئًا قاتلًا يكاد يصيبك بالجنون..

مرعامك الدراسي هكذا "شهد" ربما لأنني كنت في انتظار!.. لكنني شغلت نفسي بالتدرب على الحياة الطبيعية بدون نور..

حفظت المكان جيدًا، لم أعد أصطدم بالأشياء أثناء سيري، حاسة سمعي أصبحت أقوى بالفعل، وعدت لعملي مع صديقي وعيناي اللتان أرى بهما "رمزي".. كان هو المسئول عن كل ما يخصني في العمل ويساعدني بإخلاص وحب واحتواء قلما أجد مثله..

كنت في عجلة لتملكك، ليتحرر ماردي من قمقمه بشكل كامل، ويصب جام غضبه عليك أنت طفلتي الصغيرة..

كم رسمت وخططت!.. انتويت الكثير وكنت أعلم أنني سأقوم بما هو أكثر!..

حقي وحق والدي لن تعيده قوانين، لا قصاص سوى ما سأفعله بيدي، لا تحقيقات تنتظر وقتًا طويلًا وتنتهي للاشيء..

أنا سأحقق..

سأحاكم..

وسأنفذ..

وعدًا قطعته على نفسي أمام قبر أبي المغدور، وأنت ستكونين أداة تنفيذه..



وحان الوقت..

تخرجتِ بتقدير أفضل هذا العام، وحدد موعد زفافنا.. كان عقابك الأول الهَيِّن أن رفضت إقامة حفل زفاف رفضًا قاطعًا، وبقلبك النقي تحديتِ الكل ووافقتني على رغبتي..

حفل بسيط ضمنا مع خالتك وابنها وابنتها.. ابن خالتك الوسيم الذي كان يعشقك سبقك إلى الزواج ولديه طفل جميل..

الآن لم يعد لكِ مهما فعلت بك غيري..

في الثلاثين من عمري "شهد"، رجل يفتقد لبضعة أشياء وسيعوضها من أشلاء قلبك وبقايا روحك، وأنات عذابات خططت لعام كامل أن أذيقك إياها..

أتذكرُ ذلك اليوم كأنه حدث بالأمس فقط..

يوم أن انتهكتُ حرمات قلبك الصغير، وتغلغلتُ فيه بقسوة فارضًا سيطرتي معلنًا نفسي حاكمًا على غرفاته بكل تبجح ولا مبالاة..



أرقتُ دموعك وحطمت أمانا ظننّتِني يومًا مصدره، فإذا بي أكسوكِ بعباءة القهر والخوف، وأسحب من مخزون عشقي بداخلك رويدًا رويدًا وكأنني لا أهتم إن نفذ..

قسوتُ وتعاليتُ.. تأججتْ نيران غضبي في وجهك حتى أحرقتْ فيكِ شيئًا كنت أنا مالكه يومًا..

أبكيتُ قلبكِ وتركته ينزف حد الاحتضار، ثم التفتُ بدون اهتمام وغادرتُ المكان بصمت تاركًا إياكِ تلعقين جروحك كقطة دهستها عجلات الزمن.. تكفكفين أنهار دموع كانت تصب بحممها فوق وجنتيك الورديتين حتى شارفتا على الذبول.. واحتفظتُ أنا بطاغوت ظلمي وعتمة خافقي..

إنه ذلك اليوم..

يوم تَمَلُّكُكِ "شهد".. يوم زفافنا، يوم أن ساقكِ كذبي و ادعائي لمذبح أحلامك، حيث يحين تنفيذ انتقامي.. حين أنفذ وعيدي، وأفي بوعدي الذي قطعته على نفسي لأبي..





أن أذيقك خمر الألم، وأسقيك كؤوس الانكسار والهوان حتى الارتواء، أن أزلزل حبًا رفعتِ برجه عاليًا وأدمر قلبًا لم يحمل لي في ثانية من الثواني ذرة كره..

بداية عذابك وأنينك الذي كان يطربني في كل لحظة..

أتذكر خجلك يومها وإن لم أره، يكفيني ارتجافة كفك بين أصابعي.. برودتها، نبضات قلبك المضطربة وأنفاسك المتقطعة القصيرة..

آذيتك!..

نعم أعرف.. ذبحتُ براءتك، اغتلتُ عشقك، يومها تذوقت دموعك الصامتة بين شفتي.. لم أرها، فقط مذاقها المالح بمرارة الوجع كان على لساني في لحظة..

لحظة انقبض فيها قلبي، لحظة اضطربتُ فيها، صرخ حينها ضميري، كرهت نفسي واحتقرتها، هربت فيها نبضة من قلبي تحمل اسمك، لحظة هتف فيها بين ضلوعي: "توقف"..

وليتني أنصتُ إليه وفعلت..



لحظة لم تتكرر إلا بعد أن أضعتك وفقدت ما كان يوما ملكًا لي، ومازال طعم دموعِ ألمك وشقائك على خلايا لساني أستشعره في كل ثانية من حينها.. ليذكرني كم كنت وحشًا غليظًا شرسًا يحتاج إلى سوطٍ من حنانك وحبك ورقتك ليروضه..

لكن للأسف يا بريئة..

سوطك تمزق من قسوةٍ تتغلغل بداخلي وتُغلِف عقلي بغشاوة حجبتْ عنه ملائكيتكِ، حتى اغتلتُها في لحظات..

***

كانت سعادتي لا تسعني بحق..

أحلق مع الطيور وأشدو معها بألحان العشق الحالمة، نحو السماء أفرد جناحاي، وبأمل في شمس الغد كنت أنتظر..

انتهت اختباراتي لهذا العام وظهرت نتيجة تعبي، نتيجة انتظاري، ونتيجة وجودك إلى جواري..

تفوقت هذا العام وأحرزت تقدمًا أفضل من العام الماضي حينما سجنت نفسك وسجنتني في زنزانة اليأس..

حُدد موعد زفافنا لأجدك ترفض بشدة إقامة حفل!..

ولأنني أحبك ويهمني فقط أن أكون معك، ولأنني أيضًا أعرف ما تفكر فيه فقد ساندتك ووافقت على طلبك بسرعة وبدون نقاش أو حتى تفكير على الرغم من اعتراض والدينا..

ونزولًا على رغبة والدتك أقيم حفل عائليّ صغير حضره فقط خالتي وابنها وحفيدها ابن "كريم" الذي كنت تغار منه دومًا..

حمدت الله أنه قد تزوج قبل ما يقرب من عامين، ولديه طفل جميل أسماه "إياد". تمنيت وقتها أن يكون لدينا طفل مثله يناديك أبي ويعوضك الكثير مما فقدت..

كنت أعلم أنني في كل لحظة سأسعى لرضاك وقربك وتحقيق أمنياتك، سيكون همي الأول سعادتك وراحتك واطمئنانك..

أذكر أنك صافحته ببرود كعادتك ولم ترتسم على شفتيك حتى ابتسامة مجاملة، لكن من يهمني مادمتَ أنت إلى جواري؟..

وانفض الحفل الصغير وبدأ قلبي يقرع طبول الخوف ويعزف مقطوعة القلق والتوتر..



سرت برودة غريبة في جسدي وشعرت أنني سأموت خجلًا.. عندما أغلقتَ باب غرفتنا خلفنا واتجهت نحوي كأنك تعلم أين أقف بالضبط كاد قلبي يتوق!..

كنت أعلم أنه من المفترض أن نصلي.. أن تدعو بدعاء خاص بي.. بهذه الليلة، أن تمحو خوفي وقلقي..

أنت تعشقني أعلم ذلك علم اليقين، وأعلم أنك رجلي، مصدر أماني منذ ولدت ومنذ بدأت قراءة ملامح الآخرين ومبادلتهم الابتسامات المرسومة على وجوههم.. منذ عرفت معنى العشق وحظيت به معك..

***

بعض الذكريات تُردِيك بطعنات قاتلة عند استعادتها..

طعنات غادرة غافلتك واخترقت قلبك، أدمته وتركته ينزف حتى لحظات الوداع الأخيرة.. يعاني سكرات موت لم يكن في الحسبان، فاق الخيال وأطاح بالتوقعات..

بين أصابعك ارتجفت كفي، كنت أتوقع منك تربيتة حنون وقبلة على أصابعي فجبهتي تشعرني بأبوتك.. باحتوائك.. بحبك وحنانك الذي نهلت منه الكثيروأعلم أن لديك أكثر..

لكن فجأة لم أعد أعرفك!..

تحولت ارتجافتي الخجول لرعشة خوف وذعر..

انتابتني حالة من الذهول صاحبتها دموعي الغزيرة، التي لم أعرف أني قد أسكبها يوما على الرغم مما سال منها من قبل..

هذه المرة كانت بطعم الوجع.. بنكهة الغدر.. برائحة الخوف والجزع.. بمرارة لم تدربخلدي يومًا..

وضاعت حروفي، لم أستطع قول شيء، بل لم أجد ما يقال!..

أنهيتَ ما أردت وتركتني ألملم بقايا عاشقة أُغتيلت ليلة عمرها، وفتات قلب حطمته بقسوة ثم خطوت فوقه بقدميك غيرمبال بنزفه وأنينه..

لم تقل حرفًا، لم تنبس بهمسة.. كنت وحشيًا شرسًا مخيفًا، على ملامحك غضب عنيف لم أفهمه..



لم تكن أنت ببساطة "وليد" كنت آخر لم أره من قبل وتمنيت ألا أراه بعدها..

أدرت ظهرك إلي في ثوان وتركتني أبكي بحرقة صامتة، أغرقت دموعي وسادتي وشاركتني هي ألمي وهدأت أنفاسك أنت في انتظام.. غِبت في عالم الأحلام لتتركني أستيقظ من حلمي على كابوس مريع.. على وجهك الآخر الذي لم أكن أتوقعه أو حتى يطوف بخيالي..

وعلى الأرض إلى جواري كانت بقايا ثوبي الذي أغمضت عيني وأنا أنظر إليه، تحول للون أحمر قانٍ اختلط بدماء قلبي الذبيح.. قلبي الذي قدمتَه لنفسك قربان عشق ثم وطأته بحذائك حتى توقف عن النبض..

تسللتُ من فراشك بهدوء وبطء، لم أرد أن تشعر بي فيستيقظ ذلك الوحش المجاور لي ثانية..

وأسفل الماء المنهمر فوق رأسي حاولت محو لمسات أصابعك.. بعيدًا عن جسدي، بعيدا عن عقلي وقلبي..

بهدوء المياه ودفئها زُرِعت بداخلي بعض السكينة التي دمرتَّها، وتركتُ عقلي يسبح معها باحثًا عن سبب.. أتصدق؟..



حاولت البحث عن مبررات.. غبية أنا كنت في ذلك اليوم، أي عشق هذا الذي يسكن قلبي ويعطيك الحق في نَحرِي!..

يرفض أن يكرهك، يخافك، يبتعد عنك!..

قلبي الغبي المسكين الصغير الذي تربى بين أصابعك اختلق لك أعذارًا لا نهائية.. خوفك، ضعفك، غضبك من والدي، وربما والدتك، شعورك بالعجزوقلة الحيلة والهوان..

كنت أنا منفذًا للتنفيس عن آلامك وبحبي لك ارتضيت ذلك..

كنت أريد تطييب جراحك، إشعارك بأنك رجل كامل حتى لو لم ترَني، ضمك بين ضلوعي..

تناسيت ما حدث، وقلبي يئن ويبكيني ويبكي نفسه..

فقط كنت غبية واختلقت لك أعذارًا أودت بي إلى الدرك الأسفل من القهروالعذاب والخضوع لرجل ذاق طعم القسوة واستلذ به واستعذبه، فأصبحت هي ترياقه من همومه.. وأضحت خمرًا تسكره..



(١٥)

بين يدي الله وقفت بخشوع وتذلل.. دموعي تتساقط قهرًا منهمرة بسرعة لا أستطيع إيقافها أو حتى التقليل منها بعض الشيء..

دعوته ورجوته أن ينير بصيرتك ويرزقني صبرًا على غضب يتغلغل فيك..

استجرت به وركنت إليه.. سألته لنا تمام الخير والبركة والصلاح..

كان صوتي ونحيبي يعلو وأنا أحاول منعه خوفًا من إقلاق نومك، كنت أخشى مواجهتك.. ماذا ستقول؟..

أم أنك فقط ستتجاهل الأمر؟..

وفي سجودي أطلت، أطلت حتى كدت أفقد وعيي.. وعندما رفعت رأسي كانت السكينة تتخلل قلبي برفق و الهدوء يهدهده بحنو..

قمت ببطء والتقطت ثوبي الذي ناله بعض التمزق، تطلعت إليه وبدأتْ دموعي تغادر مقلتي مجددًا، ضممته إليّ بشدة وشكوتك إليه..



هل رأيت ما فعله بك؟..

كاد يمزقك وحدث بالفعل.. ربتُ عليه كطفل صغير ثم علقته في صوان ملابسي وأغلقته عليه برفق كأنني أُوْدِعَه قبره وأترنم بأنشودة وداع أخيرة..

اقتربت من فراشك بوجل، تطلعت إليك نائمًا.. لم يكن بملامحك شيء غريب!..

كما أنت.. كما اعتدتك..

وجهك ساكن هادئ كأنك تحلق في سماء حلم رقيق، تسحب الغطاء حتى عنقك وتنكمش بداخله كطفل يشعر بالبرد..

تنهدت بعمق وخفوت ودموعي لا تريد التوقف، عيناي بدأتا تؤلمانني، كيف سأبدو في الصباح!..

يا إلهي.. وماذا عن والدينا؟.. ماذا سأقول؟.. كيف سأقابلهما؟..

حاولت كثيرًا التوقف عن البكاء ولا فائدة، توجهت لأريكة كبيرة في أحد أركان الغرفة وسحبت غطاءً من جوارك بهدوء وهناك تمددت محاولة النوم..



أذن الفجر وأنا على حالي ودموعي كما هي، لم أكن أعلم أنني أمتلك كل تلك القدرة على البكاء!.. كنت أنتحب أحيانا وصوتي يعلو خارج شفتي فأكتمهما بكفي خوفًا..

صليت الفجر وخشيت حتى محاولة إيقاظك، وأنت لم تهتم!..

جددت دعائي ورددت ورد استغفاري بنية أن يقرب الله بيننا ويريح قلبك ويفرج همك وهمي، تركت نفسي للنوم يداعب أجفاني ببطء على أريكة غير مريحة حتى الصباح..

بعد جهد جهيد انغلق جفناي عنوة.. إرهاق قلبي بلغ أشده، وجسدي الضعيف اشتكى التعب، لم أكن أعلم الوقت بالتحديد لكن الشمس كانت تنثر ضوؤها بحياء عبر ستائر الغرفة البيضاء الشفافة..

إلى متى غرقت في عالم الكوابيس لأخرج من واحد فأدخل غيره؟.. لا أعلم..

فقط أفقت بفزع على صوتك البارد يناديني بصرامة..

تبخر النوم في ثوان من عيني لأجلس متأهبة على أريكتي ولا إراديًا أضم ردائي على جسدي بإحكام وأطوقه بذراعي في خوف.. أجبتك بخفوت لتسألني:



- أين أنت؟.. لم تنامين بعيدًا؟.. هذا فراشك إلى جوار زوجك إن كنت لا تعلمين..

ترددت وعدت أرتجف من جديد ودموعي التي جفت على وجنتي عادت للانهمار مجددًا.. حاولت الرد بصوت متماسك حتى لا تشعر ببكائي لكنه خرج مني بلمحة دامعة رغمًا عني:

- لا شيء.. فقط لم أعتد ذلك بعد..

وليزداد رعبي في ثوان أشرت إلى جوارك بيدك وأمرتني بجمود:

- تعاليّ هنا..

تحركتُ من مكاني ببطء وقلبي يكاد يتوقف.. لم أكن أتخيل في يوم ما أن أخشاك لهذه الدرجة!.. أن ترتعب روحي لمجرد سماع صوتك، ويرتجف جسدي لو اقترب من هالتك!..

جلست إلى جوارك على مسافة بعيدة لتتحرك أنت مقتربًا مني، أمسكت يدي بقوة جعلت دموعي تنساب بسرعة أكبر، وجدتك تمد يدك الأخرى نحو وجهي فتجمدت في مكاني!..



شعرت أنني أصبت بالشلل وفقدت القدرة على التنفس، تحسستَ وجهي برفق غريب لتعود بأصابعك المبتلة من دموعي، وجدتك تبتسم ساخرًا فذبحت آخر أمل نبض في قلبي أن تعود لطبيعتك، وبنبرة أشد سخرية قلت:

- طفلة.. وستظلين طفلة..

لم أفهم قصدك!.. شعرت بغباء شديد وبرغبة عنيفة في الهرب من أمامك، لكنني سألتك بخفوت وقلق:

- ماذا تعني وليد؟

أطلقتَ ضحكة آلمتني أكثر ثم أجبتني وكفي مازال أسيرَ أصابعك القوية:

- ليلة واحدة بيننا.. قضيتها ساهرة، باكية.. تتصرفين كطفلة كُسِرت لعبتها المفضلة ووالدها الحبيب يرفض استبدالها..

ثم جذبتني إليك وأنت تمسكني بقوة من عنقي، عندها شهقتُ فزعًا بينما تكمل:

- أتعلمين زوجتي العزيزة؟.. بعض اللعب لا تستبدل، ولهذا ستبكين كل ليلة.. حاولي التعايش مع الموقف وتقبله أكثر، لم أكن يومًا لعبة ولن

أكون مهما كنت عاجزًا يا صغيرة.. لذلك تقبلي الخسارة بصدر رحب وأعلني فوزي فلا داعي للجدال أو الرفض..

لم أفهم مما قلت حرفًا واحدًا، ولم تعطني فرصة للفهم أو التساؤل حتى..

عدتَ ذلك الوحش الذي اكتشفت فجأة أنه زوجي بالأمس، لتتركني مرة أخرى في حالة احتضار أعاني سكرات موت اصطنعته أنت لي بكل مهار...، ولم أملك فعل شيء..

كسرتني "وليد" وأوجعت روحي بشدة، وجعًا قضى على ما تبقى مني ووضع غشاوة سوداء مظلمة أمام عيني أضاعت إحساسي بكل ما حولي وفقدت الوعي بين يديك..

لم أدرِ كم طال الوقت بالضبط!.. لكنني عندما عدت لوعيي لم تكن إلى جواري، تركتني وحدي..

أتألم.. أعاني.. أبكي.. إلى متى سأظل أبكي؟..

سحبت غطاءً فوق جسدي ولم أملك إلا الاستمرار في استدرار الدموع علَّها تغسل شيئًا من الأنين الذي يسكن قلبي..



بعد دقائق فُتِح باب الحمام لأجدك أمامي، بدوت رائق المزاج بشدة وأنت تدندن بلحن ما.. أغمضتُ عيناي لأجد صورتك مطبوعة داخل عقلي، تمتلئ عيناك بقسوة غريبة، وملامحك محتقنة بغضب مدفون لا أعلم له سببًا!..

شعرت بك تقترب، ربتَّ على وجنتي بشيء من العنف قائلًا ببرود:

- استيقظي شهد.. كفاكِ نومًا، والدينا سيأتيان إلينا في أية لحظة الآن..

ولأنني لا أريد رؤيتك أجبتك وجفوني تتعانق بشدة خشية انفلات مفاجئ:

- أنا مستيقظة..

ابتسامة ساخرة.. لهجة ساخرة مغموسة ببعض ألم.. أجبتني بها:

- حقًا!.. عذرًا فلم أرك..

علمت ما ألمحت إليه.. ولا أكاد أصدق!..

لقد تألم الغبي الصغير بين ضلوعي لأجلك، ودفع لساني دفعًا ليهمس وأنا أرفع نفسي وأمسك بكفك معتذرة:

- لم أقصد شيئًا وليد.. آسفة..



رأيتك تعقد حاجبيك.. بدوت مترددًا للحظة وبلمساتك أخبرتني أنني مجرد أداة تستخدمها كما تشاء ووقتما تريد.. وبعدما تركت وجهي الذي ضغطته بقوة بين أصابعك همست بقسوة وأنفاسك الحارة تلفحني:

- وإن كنتِ تقصدين؟.. تأكدي أنه لا يهمني، لأنني أعرف جيدًا كيف أرد لك الصاع صاعين صغيرتي..

دفعتني بعدها بقوة لأصطدم بالفراش بعنف كاد يفقدني وعيي مرة أخرى.. وثانية أتوسل للمياه المنهمرة أن تطهرني منك، ولدموعي أن تغسل قلبي الضعيف من عشقك..

***

كانت ليلة طويلة للغاية..

وأنا بوحشيتي التي نبتت من غدر لم أتوقعه وارتوت بغضب أعمى طوال عام كامل قضيت على براءة قلبك الصغير.. سددت له طعنة نافذة وتركته ينزف ببطء، وعيناكِ تشاركانه النزف حتى الصباح..

أتصدقين "شهد" أنني أيضًا لم أنم طوال الليل!..

مثلك بالضبط..

كل حركة وكل همسة وكل نفس تردد في صدرك كنت أشعر به وأسمعه بوضوح، انسحابك المتسلل من جواري وكأنك تخشين استيقاظي ثانية..

الساعة التي قضيتِها أسفل الماء وكأنك تغسلين نفسك مني..

خروجك البطيء المتوتر وصلاتك الخاشعة الباكية..

نحيبك ودعاؤك، وشكواك الطفولية لثوب زفافك..

عندما التقطت غطاءً من الفراش واتجهت للأريكة كدت أصيح في وجهك غاضبًا، لكنني سرت على خطتي كما رسمتها..

ليلتك الأولى ستكون دامية، موجعة لقلبك الصغير الذي ظننت أنه عشقني يومًا.. رعبك وقلق الانتظار و مرور الوقت ببطء قاتل؛ كل هذه أمور تستنزفك أكثر، وتهلك روحك بشدة..

وكلما تكررت كلما زاد وجعك وماتت الروح في جسدك الصغير..

حاولتُ النوم ولم أستطع.. ازداد غضبي، لقد حققت أول خطوة في انتقامي!..

أفقدتك فرحة قربي وفرحة ليلة عرسك..



لم أعطك أمانًا تحلم به كل أنثى بل استبدلته بفزع سيلازمك طوال عمرك!..

بكاؤك الصامت كان يغضبني أكثر ويثير حنقي، كنت أود سماع توسلاتك ورفضك والاستمتاع بإذلالك لأقصى درجة..

لكنك التزمتِ الصمت، وتركتني أمارس وحشيتي كما رغبت بدون حتى لمحة رفض ضعيفة..

نشيجك كان يعلو أحيانًا وأسمعه مكتومًا كأنك تحبسينه في حلقك بكفك الصغيرة، وأذن الفجر لأجدك تقفين ثانية بين يدي الله..

لم أدرِ ما الذي حدث لي؟..

لكنني منذ عماني غضبي وتمكنت منّي رغبتي في الانتقام لم أعد أنا..

تركت صلاتي وتهاونت فيها، تعرفت على أناس جدد لم أكن لأصادقهم في يوم ما، لكنهم بالتأكيد لهم فائدتهم في خطتي..

سمعت دعائك ورجاءك، وانقبض قلبي!..



على الرغم مما فعلته ومن تركي لدموعك تغرق وجنتيك طوال الليل مازلتِ ترددين اسمي في دعواتك طالبة لي الهداية والصلاح وأن يسعدني الله ويفرج همي..

تردد قلبي للحظات، نبض فيها بعشق ارتوى به منذ ميلادك طفلتي.. نهرني وأنبني، فقط ليخرسه ماردي مانعًا إياه من الحديث ثانية.. ومعلنًا أن وقت راحتك مني قد انتهى..

لم أعلم كم مر من الوقت لكنني فقط جلست في فراشي وناديت اسمك بعنف، وها هو الرعب يتجسد في صوتك مجددًا وأنت تحادثينني.. وبقايا دامعة تغلف حروفك..

كانت كلماتي عنيفة.. لمساتي قاسية آمرة.. وفي كل مرة ينبض قلبي شوقا إليك كحبيبة؛ يعود عقلي فيوقفه ويدفعني لجنون مطبق يتملكني فأؤلمك أكثر..

أحيانًا أرفض التصديق لكن كل الدلائل تشير إلى ما ينبغي أن أقنع نفسي به، لابد أن يراك والدك باكية متعبة موجوعة..

ومن سيؤذي قلبه أكثر منك ومن ألمك!..



فجأة وجدتك تفقدين وعيك بين ذراعي..

أصابني الجزع، حاولت إفاقتك لكنك لم تستجيبي، انتفض قلبي بعنف بين ضلوعي وأنبني وعنفني بشدة.. تركتك وأنا أربت على شعرك بحنو ظهر فقط لأنك كنت غائبة ولن تشعري به أو تريه..

ولأنيني الصامت سالت دمعة اختلطت بنزيف قلبي..

لم أصدق ما فعلته بك أنت طفلتي!.. معشوقتي الوحيدة!..

رق قلبي لثوان وأغلقت عيني وأنا أضمك إلى صدري بحنان افتقدت وجوده بداخلي..

آذيتك بشدة، وقبلها آذيت نفسي..

تعبت صغيرتي، حقًا تعبت..

فجأة قفزت إلى رأسي صورة والدي!..

اثنان يثبتانه وآخر يجز عنقه بتلذذ سادي.. ركلات ولكمات تُسَدد لجسدي.. طعنة شبه قاتلة وضربة قاصمة على رأسي أفقدتني بصري..



وكأن شيطاني أبى إلا أن يعيدني لأرض الواقع بقسوة، فتركتك ورحت أطفئ بعض لهيب يشتعل في رأسي..

وأسفل الماء البارد كدت أصرخ أن كفى.. لكن لا فائدة، فمهما صرخت وتألمت ما حدث أصبح من الماضي، ولا سبيل لعودته..

لذا فالحل الوحيد هو السير للأمام.. هو المضي قدمًا في خطتي..

وأقسمت ثانية لأذيقنك صنوف عذاب لم تطف بخيالك مني أبدًا زوجتي..

عندما خرجتُ علمت أنك قد أفقت!.. أنفاسك عالية غير منتظمة قلقة متوترة، لكنني ادعيت العكس.. حاولت إيقاظك بقسوة وبعد ردك أنبتك بطريقتي وفجأة وجدت اعتذارك!..

ماذا تفعلين بي؟.. وماذا تريدين مني؟..

أتظنين أن إدعاء البراءة سيؤثر بي مرة أخرى؟..

حتى وإن كنت بريئة فمنذ متى يسمح لأدوات التعذيب باتخاذ قرار!..

نعم أنت أداة تعذيب والدك وأكاد أتحرق شوقًا لرؤية ردك عليه عندما يسألك عن حالك ويرى آثار البكاء على وجهك..



عندما وقفت تصلين الظهر سمعت سؤالك الهامس المتردد:

- وليد.. ألن تصلي؟

عقدت حاجبي.. كيف تجرؤين؟.. أجبتك وقتها بخشونة:

- لا شأن لك بي..

قابلني صمتك بعدها لأعلم أنك دخلتِ في صلاتك متضرعة باكية كما كنتِ طوال الليل.. وتناهي لمسامعي همسك باسمي بنبرات متوسلة جعلتني أغمض عيناي والألم يعتصرني..

أتسألين الله خيرا لأجلي ثانية صغيرتي؟.. هل أستحق اهتمامك ودعواتك؟.. أفقت من شرودي على صوتك الخافت:

- وليد.. متى سيأتي أبي؟

اعتدلت في دهشة، لمَ تسأليني؟.. يمكنك سؤاله بنفسك، وهذه كانت إجابتي الغليظة على سؤالك:

- اسأليه شهد..



ترددتِ.. من صوتك المتقطع بدوت كأنك تريدين النطق بشيء ما ثم تعودين للصمت..

فجأة شعرت برأسك فوق ركبتيّ وأنا أجلس على الأريكة!..

كان هذا معناه أنك جالسة أمامي على الأرض.. لم أفهم لمَ فعلتِ ذلك!.. وقبل أن أنطق أو أغضب منك سمعتك تقولين:

- أنا خائفة وليد..

كلماتك الثلاث طعنتني وذبحتني من الوريد.. لكن ردي كان باردًا لا مباليًا:

- ممَ أنتِ خائفة؟

التصقتِ بركبتيَّ أكثر كطفلة صغيرة وأنت تهمسين ببراءة:

- منك!

وطعنة أخرى سددتِها لقلبي.. أغمضت عيناي في ألم لثوان وأنا أزم شفتي بقوة، ثم كان جوابي الفظ ليؤلمك أكثر:

- يجدرُبك أن تخافي شهد..

بالتأكيد صُدِمتِ من جوابي..



بعدها وقفت بسرعة لأبعدك عني واتجهت للفراش، تمددت هناك لأسمع طرقات خافتة على باب جناحنا الخارجي..

برقت عيناي وقتها وأنا أعتقد أنه والدك!..

لكنها للأسف كانت خادمتكم بطعام الإفطار، كيف واجهتها بعينيك الباكيتين صغيرتي؟.. لا أعلم.. سمعتك تقولين بخفوت:

- لقد أرسلت والدتك فطورنا وليد..

اعتدلت وسألتك:

- أين هو؟.. أكاد أموت جوعًا..

لا مبالاة وبرود وقسوة..

كنت أعلم أنك في الغالب لن تضعي شيئًا في فمك، وأنا على حق..

في الواقع لم تكن بي شهية أنا الآخر لكن أمامك كان لابد من إدعاء وجودها..

التهمت طعامي في نهم ولم أهتم حتى بسؤالك إن كنت قد أكلتِ أم لا!..

بعدها عادت خادمتكم لتخبرنا أن والدينا سيأتيان لنا بعد قليل، وأنا في شوق للقاء باكٍ بينك وبين والدك..

وأتى الزوجان السعيدان!..

كنت تضحكين بسعادة غريبة، تجيبين الأسئلة في مرح، تتعاملين بشقاوة طفولية محببة!..

وأنا متجمد في عدم فهم.. كيف؟..

على الأقل تبدين مختلفة؟..

أين آثار دموعك طوال الليل؟..

أين حزنك وشكواك لثوبك السخيف؟..

أنا من كنت غريبًا وإجاباتي مقتضبة باردة وابتسامتي باهتة وضحكاتي بلا معنى..

وجدتك تجلسين إلى جواري وتلتصقين بي بلطف كقطة صغيرة.. لم أتحرك من مكاني أو أحاول حتى الاقتراب منك..



الذهول اكتنفني.. كيف واتتك القدرة على حبس آلامك ودموعك طيلة ساعة قضياها معنا!..

كيف لم تشكيني؟..

كيف لم يلاحظا عيناك المتورمتان بالتأكيد؟..

ألم تتخلل إحدى ابتساماتك!.. دمعة!.. شيء من الانكساروالحزن؟..

أتحبسين كل هذا بداخلك لأجلي؟..

أم لأجل والدك؟..

لم أفهم شيئًا.. لكن العقاب سيكون وخيمًا، مؤلمًا بشدة وقاسيًا حتى تفقدي قدرتك على الكتمان وتصرخين من الوجع..

بعد رحيلهما ناديتك فأجبتني بخوف، سألتك بوضوح:

- ألم تقولي أنك خائفة مني؟.. لمَ لم تذكري ذلك لوالدك؟.. لعله يعطيني بعض النصائح في طريقة التعامل مع صغيرته المدللة..

وجاءتني إجابتك الصادمة.. لم أكن أتصور أن يهديكِ تفكيرك لهكذا تصرف لكنك فعلته:



- ما بيننا يخصنا فقط وليد.. لن أترك أحدًا يتدخل في حياتي أو يحل لي مشاكلي، أنا كفيلة بها.. وإن لم أستطع فقربي منك يكفيني وإن آلمتني..

لم أجد ردًا..

فقط انتظرت حتى حل الليل وعدت أخيفك مني أكثروأكثر..

وأتلذذ بدموعك ونحيبك الصامت، وأزرع كراهيتي في قلبك الصغيرلعلك تصرخين بها يومًا.

***

كان الأمر صعبًا..

أطلب منك بعض اطمئنان فتجيبني بأنه ينبغي لي أن أخافك!..

حسنا لقد نجحت "وليد".. أنا أخافك.. بل أرتعب بمجرد المرور من أمامك، أرتجف عندما تناديني..

عندما علمت بصعود والدينا انتابني القلق!..

تطلعت لوجهي في المرآة.. الإرهاق يرسمه، عيناي محمرتان وآثار الدموع لاتزال هناك.. بل حتى الحزن يظهر جليًا على ملامحي..



لم أكن أريد أن يعلم أحد عما حدث بيننا، أنني قضيتُ ليلتي الأولى معك باكية، صباحي الأول خائفة منتحبة.. ستسوء صورتك أمام والدينا.. ستحزن والدتك ويتألم والدي وربما يغضب منك ويعاتبك!..

حبست كل ما أشعربه بداخلي.. حبسته بعيدًا عن عيني..

وأمام مرآتي ارتديت شيئا يليق بعروس، وتزينت وبلمسات مناسبة أخفيت أثر البكاء.. ابتسمت وضحكت، التصقت بك كزوجة عاشقة، وأنت الجمود يرتسم على وجهك..

ابتساماتك باردة صغيرة مجاملة فقط، وبعد اطمئنانهما ورحيلهما سألتني لمَ لم أشكو؟..

الغرض من سؤالك ومضمونه كان واضًحا لكنني أوضحت لك جانبًا واحدًا فقط من الأسباب التي منعتني.. بدا الغضب على وجهك وليلتها علمت أن غضبك يصب في اتجاه واحد فقط..

هو أنا..

(١٦)

تمر الأيام.. بعضها طويل والبعض الآخر ينتهي سريعًا فلا تكاد تشعر به، وأنا أصابني بعض الملل!..

استكانتك واستسلامك وضعفك يغضبني، لم أعد أشعر بلذة في إهانتك أو قسوتي التي أذيقك إياها يومًا بعد يوم..

شهر مر على زواجنا وبعد أسبوع فقط كنت في عملي!..

كان الأمر غريبًا لكنني لم أهتم، وعلى الدوام علاقتنا كانت برغبتي وقتما أريد أبدأها ووقتما أريد أنهيها..

في بعض الأحيان كان يغلبني شوقي إليك كزوجتي، المرأة التي أحببتها وعشقتها منذ الطفولة.. كنت أغالب نفسي كثيرًا لألا يسيطر على ذلك الاشتياق، فأنا مازلت رجلًا له رغباته كأي آخر..

وكلها كانت موجهة نحوك..



لكن تحقيقي لها لم يكن في مرة بحب، طوال شهر في كل مرة اقتربت فيها منك كان قلبي في واد وعقلي في وادٍ آخر وجسدي يتبع عقلي بتجبره وقسوته..

وأنت فقط تتألمين في صمت، تبكين حين تظنيني نائمًا، لم تنقطع دعواتك لي في صلواتك، أو حتى تخبري أحدًا عني وعن إيذائي لك..

وحشٌ خُلِق بداخلي وارتوى بوجعك وسكونك، في كل يوم ينمو أكثر، ويمارس وحشيته معك أنت..

بعد الشهر حان وقت تنفيذ جزءً آخر من خطتي..

لن تعيشي طفلة مدللة للأبد، في كنف والدها مطمئنة بوجوده!..

كنتُ قد رفضتُ بيع منزلنا واحتفظت به لغرض يفيدني، قبل مرور الشهر اتخذت بضع إجراءات تجاهه، قمت بهدم الطابق الثاني تمامًا، فأصبح المنزل مكونًا من طابق واحد وحديقة ذابلة لم تجد من يرعاها..

جددته وجهزته لعروسي الصغيرة، وأخبرتك بقراري بدون اهتمام برأيك:

- شهد.. حضري كل متعلقاتك وكل ما يهمك لأننا سننتقل من هنا..

سمعت صوتك مصدومًا:



- ماذا؟.. ننتقل؟.. سنترك والدينا؟.. إلى أين؟..

بحزم قاطع أجبتك:

- لمنزلي القديم شهد.. قمت بتجديده وهدمت الطابق الثاني، أنا لم أتزوج طفلة تريد العيش إلى جوار والدها للأبد.. سيكون لنا منزلنا المستقل، أنت سيدته، تديرينه وتهتمين بكل شئونه صغيرها قبل كبيرها.. هل فهمتِ؟

ترددتِ، صمتك جاوبني لبضع ثوان.. ثم سمعت اعتراضك المتخاذل الخائف:

- وليد.. لا أريد ترك منزلنا هنا، لا أريد العيش هناك؛ بين الذكريات والآلام..

في ثوان اقتربت منك، ومعصمك كان بين أصابعي أضغطه بعنف سمعت بعدها تأوهك، ليكون كلامي حادًا، قاطعًا.. نهائيًا لا يقبل المناقشة:

- انتهى الأمر صغيرتي.. سننتقل في أقرب وقت وسأعلم والدينا بالأمر، حضري نفسك فقط، وكوني على استعداد للقيام بكل شئون المنزل كما



أخبرتك.. فلن تكون هناك خادمة تخدمك أو تطهو طعامك، هل ما قلته واضح بما يكفي؟

ولم أنتظر جوابك، بل انطلقت خارجًا لأبلغهم قراري، ولتتجدد الصدمة معهما أيضًا..

اندهاش والدك وتساؤلات والدتي، من سيرعانا؟..

و"شهد" الصغيرة.. كيف ستتحمل مسئولية منزل كامل وحدها؟..

لكن لم يكن ليثنيني شيء عن أي خطوة رسمتها في خطتي.. انتقلنا بالفعل، وأصبحت معي وحدك، واستيقظ ماردي ثانية بعد غفوة قصيرة شغلته عنك، وهو يمتلئ بالنشاط ليمارس عمله الانتقامي بكل طاقته..

***

وشهر آخر يمر على زواجنا "وليد"..

كم الحزن الذي كنت أتوسده كل ليلة في زيادة مطردة، وغطاء قلبي من الألم يضعفه في كل لحظة ونبضاته تخفت في صمت..



بعد إصرارك على انتقالنا لمنزلكم القديم، ورفضك القاطع لأي محاولات من والدينا للبقاء معهما؛ وجدتك قد حضرت غرفتين منفصلتين لنا، ولو تدري كم أراحني ذلك!..

نعم كنت أحبك ولا أدري لمَ كان عشقك مازال يسكن قلبي!..

لكن الابتعاد عنك ولو لوقت قصير كان يريح روحي من عناء قربك القاسي..

وكما في كل ليلة بعد زواجنا، تصاحبني دموعي لأحلامي، فأظل أبكي هنا وهناك..

طيلة هذا الشهر لم تقربني.. كان الأمر غريبًا لكنه أراحني أيضًا، فقد سئمت تملكك وأنانيتك وتسلطك..

أيضًا طوال أيامه كنت تذهب لعملك باكرًا، وتعود في وقت متأخر للغاية، أتناول وجباتي وحدي، أعيش في المنزل وحدي، لا أحد يعمل هنا و على عاتقي وقعت المسئولية كاملة..

وفي المرة التي قررت فيها تناول الغذاء معي في المنزل، لم تكمله وصرخت في وجهي غاضبًا:



- تعلمي الطهي شهد.. هذا مقزز..

ثم تركتني وخرجت بلا كلمة أخرى..

كنت تكذب، كنت فقط تقسو وتعاند لتؤلمني أكثر..

أنا أتعلم الطهي منذ أكثر من سنتين وهذا لأجلك أنت، طهوت عشاءك في يوم كنا فيه عاشقين لو تذكر.. قبلت أصابعي بعدها إصبعًا إصبعًا وأنت تمدحني، لكن اليوم انتهى وقت المديح والكلام المعسول..

فقط غضبك هو محركك، صراخك الدائم وحنقك هو وقود حياتي معك..

ينهكني العمل في المنزل طوال النهار، وأستيقظ من ساعات نوم قلقة متقطعة أكثر إنهاكًا وتعبًا.. وكلما زارنا والدانا جلستَ صامتا معظم الوقت، تعابير وجهك باردة جامدة كأنك تعيش معي أسوأ أيام عمرك..

معك كانت تمر الشهور ببطء قاتل، شهر تلو الآخر وأنت كما أنت.. لم تتغير إلا للأسوأ، تزداد قسوة وشراسة وتبلدًا..

كلماتك معدودة، وجودك نفسه في المنزل شبه معدوم، لم أكن أدري أين تقضي كل هذا الوقت، حتى رأيت ما أنبأني بما تفعل في سهراتك الليلية!..

في تلك الليلة عدت باكرًا نوعًا ما.. لم تذهب لغرفتك بل فجأة وجدتك أمامي في غرفتي!..

بدوت سعيدًا وابتسامتك التي أحبها تكلل شفتيك، ورغما عني ابتسمت أنا أيضًا.. سمعتك تناديني بنبرة مبتهجة فأجبتك بخفوت قلقًا من هدوء ما قبل العاصفة الذي اعتدته.. لأجد ردك:

- أنا جائع.. أريد عشاءً فاخرًا..

نبض قلبي بعنف، أنت تبدو سعيدًا!.. عدت تقول:

- تعالي معي لغرفتي أحضري لي منامة وحضري لي الحمام حتى تنتهي من تحضير العشاء..

لم أجد ما أرد به.. فقط تبعتك في صمت وأنت تدندن بلحن قديم، اتجهت لحمام غرفتك وتركت الماء ينساب في المغطس ثم عدت للغرفة لأجدك قد خلعت سترتك وبدأت في خلع قميصك..

أحضرت لك منامتك التي طلبت وأنت ترمي القميص بإهمال على الأرض، مع أن تلك الطريقة تضايقني لكنني لم أهتم، فالسرور البادي على وجهك كان يكفيني..



اتجهت أنت للحمام وانحنيت ألتقط قميصك وسترتك ليفاجئني السبب!..

انقبض قلبي الذي ابتهج لثوان معدودة، أظلم صدري الذي انشرح للحظات..

هناك بالقرب من ياقة قميصك، طلاء شفاه بلون مثير بدا وكأنه يتحداني ليخبرني أن صاحبته أكثر إثارة منه.. وعطرها النفاذ الذي يفوح من القميص يدلل كم هي لعوب!..

قفزت صورتها لذهني فجأة، لم أستطع تخيل أخرى مكانها، مساعدتك الجميلة "ضحى"..

سمعت صوتك من خلف باب الحمام تغني بسعادة، ومن جديد يتمزق قلبي وتبدأ دموعي في الانهمار.. لم تمر سوى أربعة أشهر على زواجنا وأنت تبدأ في خيانتي "وليد"!..

لم أكن أتوقع في عمري شيئا كهذا، وبعد تجبرك وظلمك لو تخيلت أنه يمكنك فعل شيء، لما تخيلت أن يكون بهذه السرعة!..

وخيانة!..

مع أخرى غيري!..

توجهت للخارج لأحضر لك عشاءك، لثوان راودتني أفكار جنونية بأن أضع لك سُمًّا أنهي به حياتك البائسة..

سأقلتك وأستريح، أو ربما أتسلل الآن وأذبحك بسكين المطبخ في حوض الاستحمام لتسيل دماؤك وتختلط بالماء وتنتهي في بالوعة الصرف..

أو أحرق المنزل بما فيه، أنا وأنت!..

فجأة قفزت لذهني فكرة طفولية أراحتني.. ربما أنت لم تفعل، ربما فقط تحاول إغاظتي وزيادة حزني وألمي، واسيت نفسي بتلك الفكرة وعاملتك ببرود وكأنني لم أنتبه لشيء..

وبعد الانتعاش الذي كان باديًا عليك ظهر الحنق على ملامحك وبدوت غاضبًا للحظات وأنت تصرخ في وجهي طالبًا كوبًا من الحليب البارد..

لم أهتم أو أبالي بصراخك، وبجوار ألمي وحزني كنت أنت تتأرجح بين سعادة مفتعلة وغضب رغمًا عنك يظهر للسطح..

في تلك الليلة وكأنك تعاقبني على تجاهلي للأمر حبستني في غرفتك وكعادتي تقبلت ما حدث في صمت..

لم أعد أبكي عندما أكون معك كما كنت في السابق.. شعرت أنني تحولت لآلة باردة لا مشاعر لها، تأخذ مني ما تبغي ثم تتركني في لحظات مبتعدًا بسرعة وتذهب بعدها في نوم عميق..

أتسلل بعده أنا من جوارك لأعود لغرفتي وهناك تنهمر دموعي وأشكو لخالقي منك ثم أنام بضيق يعشش في خلاياي معانقة وسادة أصابها الملل من كثرة حديثي إليها..

***

مجموعة أصدقائي الجديدة كانت فعلًا مميزة ومختلفة!..

طوال عمري كنت انطوائيًا هادئًا ولم يكن لي أصدقاء سوى "رمزي"، صديقي الوحيد الهادئ الملتزم الوفي..

لكنني وخلال عام ونيف مضى تعرفت على أناس جدد، بعضهم من خلال العمل، والبعض الآخر عن طريق العملاء..

عمل أيضا لكنهم فقط لا يتعاملون معي، وبالطبع في كل لقاءاتنا كانت "ضحى" الفاتنة هناك.. تلحق بي أينما ذهبت وتتعامل معي بطريقة لم أحبها لكنها كانت ترضي غروري وتدللني بشدة..



أحيانًا كنت أتركها تفعل وأوقات أخرى كنت أوقفها لكن مع ترك الباب مواربًا لمحاولات جديدة..

من أين تعلمت خبث الرجال ومكرهم في اصطياد النساء؟..

لا أعلم.. يبدو أنه أمر في جيناتنا، ونحن من نتحكم فيه، فنتركه يضمر كعضو مهمل أو ننميه فنصبح خبراء لا يشق لهم غبار..

لكنني وعلى الرغم من ذلك كنت مبتدئًا و الجرأة منهن تربكني بعض الشيء حتى أعتادها.. "رمزي" العزيز كان يتضايق كثيرًا من تلك اللقاءات والسهرات، ينصحني أن أبتعد عنها معللًا بأنها لا تشبهني ولا أشبهها..

لكنني وببرود كنت أستمع إليه ثم أتجاهل ما قاله بعد خروجه..

مر على زواجنا أربعة أشهر يا صغيرة..

طوالها لم تشتكي ولو لمرة واحدة وأنا أكاد أجن بالفعل، أرهقك بالعمل في المنزل، أرمي ملابسي غير النظيفة في كل مكان، حتى جواربي أوزعها منفردة في الأركان لتبحثي عنها..



أسكب القهوة على المائدة، أصرخ في وجهك بأن طعامك اللذيذ سيء وأتركه مرغمًا لأغضبك، أخرج باكرًا وأعود متأخرًا كضيف يحل على المكان لساعات قليلة ويرحل..

ولفترة طويلة لم أحسبها ابتعدت عنك كليًا وكأنني أعلن أنني مللتك كأنثى، وما أغاظني أنك بدوتِ مرتاحة سعيدة فعدت أطالب بحقي منكِ لأقهرك ثانية..

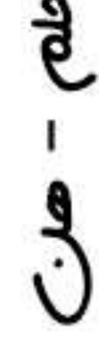
والجديد أنك تتركيني أفعل ما أشاء ثم تنصرفين عني عائدة إلى غرفتك بسرعة كأنك كنت تؤدين واجبًا ثقيلًا على نفسك؛ وهذا أحنقني أكثر!..

لا تشتكين.. لا تبكين.. وأمام الجميع أنت العروس السعيدة العاشقة لزوجها..

في تلك الليلة كنت جالسًا مع رفقاء السمر أفكر شاردًا في طريقة جديدة أغضبك بها عللكِ تصرخين في وجهي أو تذهبين باكية شاكية لأبيكِ..

عندما ظهرت هي!..

العطر الأنثوي الساحر يسبقها، الضحكة الناعمة المتدللة، لم أرها ولم أعلم كيف تبدو لكن من اهتمام الرجال المحيطين بي علمت أنها فاتنة..



جلست على مسافة غير بعيدة مني وإلى جوارها "رؤوف" بجواري وأبعد منه قليلًا " ممدوح" .. زير نساء وماجن آخر، اهتمامهما بها دل على أهميتها حتى سمعت صوتها الرقيق يسأل "رؤوف":

- رؤوف.. ألن تعرفنا على صديقك؟

لم أكن أعلم أنها تقصدني حتى ربت هو على ساقي مجيبًا بفخر:

- هذا هو وليد السيوفي.. رجل الأعمال الوسيم، ملك حفلاتنا الليلية الصامت الغامض..

سمعتها تقول بدلال غريب:

- امممم.. وليد، كيف حالك؟.. أنا نيرمين..

ابتسمت لها ورددت مرحبًا:

- أهلا بك نيرمين.. كيف حالك أنت؟

ليضحك الرفيقان بشدة ومرح طفولي جعلني أضحك أنا الآخر، فجأة وجدتها تخاطب "رؤوف":

- رؤوف.. لمَ لا تحضر لي مشروبًا؟.. اتركني مع وليد قليلًا لأتعرف إليه..

وبالفعل لبَّى الرجل طلبها بسعادة غامرة أما هي فقد اقتربت مني وشعرت وكأن عطرها التصق بي.. تكلمت بصوتها الجذاب:

- حسنًا وليد.. عرفني عليك..

ابتسمت رافعًا أحد حاجبي وقلت:

- اسألي وأنا أجيبك..

وجدتها تستند إلى كتفي بذراعها وتهمس:

- أليس من السيء أن رجلًا وسيمًا مثلك لا يمكنه رؤية امرأة مثلي؟

اندهشت لما قالته!.. أغضبني وأوجعني، لكنها استطردت بدون اهتمام بما تلفظت به:

- ألا تريد أن تعرف كيف أبدو؟

وازدادت دهشتي.. لم أجد ردًا فصمت، عادت هي تهمس في أسف:

- هل أغضبتك؟.. لم أقصد، أعني أنه مؤسف ألا ترى كيف أنظر إليك!.. وكيف أبدو!.. فقط أريدك أن تتخيلني وأنا أتحدث معك..

تجاهلت الأمر، وفي خبث قلت:



- لا تهتمي.. حسنًا، كيف سأتخيلك إذن؟.. هل سأسأل أحد الرجال هنا عنك، كيف تبدين وماذا ترتدين؟.. وهل ياترى سيصفك بطريقة صحيحة؟

أطلقت ضحكة ماجنة وأجابتني وهي تلتقط كفي فجأة وتضعه على وجهها:

- وصف الرجال سيأخذك لمجالات أخرى لا أريدها الآن.. تحسس ملامحي وتخيل في ذهنك صورتي وقل لي ماذا ترى؟

ارتبكت للحظة..

تخيلي أنه طوال عمري وطوال الأشهر الماضية من زواجنا لم ألمس امرأة أخرى غيرك "شهد"!..

ولم تكن بي رغبة حتى في تجربة كتلك، لكنها كانت جريئة فأمسكت بيدي ووضعتها على جبهتها هامسة:

- ابدأ من هنا وقل لي ماذا ترى؟

وقررت خوض التجربة للنهاية!..

فحتى وإن لم تريني فيكفي علمي بأنني أفعل شيئًا يغضبك ويحزنك..

تلمست طريقي عبر ملامحها، وأنا أهمس بتركيز:

- إمممم.. جبهة عريضة نوعا ما وغرة تزينها، وجنتين مرتفعتين بنعومة، أنف حاد صغير يرتفع في شموخ، رموش طويلة كثيفة.. أهذه طبيعية؟

أطلقت ضحكة أخرى وردت في دلال:

- كلي طبيعية.. لا شيء اصطناعي هنا..

اتجهت للأسفل ولمس إصبعي شفتيها ليعلق به طلاؤهما الناعم، سحبت يدي بسرعة وأنا أعتذر:

- آسف يبدو أنني أزلت بعض طلاء شفتيك..

أجابتني بصوت مبتسم:

- لا تهتم.. كيف تراهما؟

قلت في خفوت وفكرة ما تقفز إلى عقلي:

- فم صغير وشفتين مكتنزتين بطلاء شفاه بنكهة الكرز..

قلتها وأنا أتشمم إصبعي، فضحكت ثانية وردت:

- ممتاز وليد.. حسنا ما رأيك؟.. هل أنا جميلة؟..



بحركة غير واضحة مددت إصبعي الملوث بنكهة الكرز نحو عنقي ومسحت الطلاء العالق به قرب ياقة قميصي وأنا أجيبها:

- تبدين فاتنة.. ما لون شعرك وعينيك؟

قالت بهدوء:

- بني.. الاثنين..

عدت أسأل:

- وهذا العطر؟.. ما اسمه؟

أجابتني بسؤال:

- يعجبك؟

رددت بابتسامة:

- نعم.. جدًا..

شعرت بها مبتهجة..

فعلى الرغم من كوني أعمى لكنني لاأزال محط أنظار الجميلات.. غني، وسيم، ضعيف..



كل واحدة منهن تظن أنه يمكنها ببساطة تملكي لتحصل مني على ما تريد، ولن تتضايق لتلك الدرجة.. فبتلك الطريقة لن أرى عيوبها، سمعت صوتها الناعم وهي ترد بدلال:

- Poison من ديور Dior..

أومأت برأسي وأنا أحتفظ بالاسم في ذاكرتي لأكمل خطة الليلة.. فجأة وجدتها تمسك بيدي اليسرى هاتفة في دهشة:

- أأنت متزوج؟

لتأتيها الإجابة من "رؤوف" الذي عاد أخيرًا بمشروبها:

- يمكنك أن تقولي أنه عريس.. منذ أربعة أشهر فقط والفتى يسهر معنا كل ليلة..

كانت مندهشة للغاية وهي تسألني:

- وعروسك لا يهمها الأمر؟.. هل تحبها؟

أجبتها بابتسامة ساخرة على الرغم من صدق كلماتي:

- أعشقها..



ليضحك "رؤوف" وتملأ الدهشة صوتها هي مع بعض الغيرة وهي تسأل ثانية:

- هل هي جميلة؟

ورغمًا عني ارتسمت على شفتيّ ابتسامة حالمة وأنا أتذكر ملامح وجهك آخر مرة رأيتها.. عيناكِ اللامعتين، ابتسامتك، خجلك ورقتك.. لأجيب بنفس اللهجة:

- لها من اسمها نصيب كبير..

ليوضح لها "رؤوف" ضاحكًا:

- اسمها شهد.. ونعم هي جميلة للغاية نيرمين..

عقدت حاجبي غاضبًا.. الفتى الأحمق يتغزل فيكِ أمامي، أما هي فقالت ممازحة:

- احذر رؤوف.. لقد أغضبته، يبدو أن السيد وليد يغار بشدة..

شعرت بالحنق فقمت واقفًا، وقلت بحزم:

- سأذهب الآن.. أراكما لاحقًا..





وبدون وداع لأحدهم غادرت المكان..

أمرت سائقي أن يمر بنا على أقرب مكان لبيع العطور واشتريت العطر، لأكمل أركان خطتي..

أوصلني السائق حتى باب المنزل الداخلي وهناك فتحته واتجهت بسرعة نحو مكتبي، زخات بسيطة وخفيفة على قميصي ثم أخفيت الزجاجة في درج محكم الإغلاق وأتيت إليك باسًما مبتهجا لأفهمك فقط أنني سعيد لأنني كنت مع أخرى غيرك!..

ورد فعلك لم يكن هو المتوقع، لم تغضبي أو تصرخي أو تبكي حتى، بل أنا من كاد يكسر أي شيء تطاله يداه، ولأنني كنت غاضبًا فقد نفست عن غضبي معك كالمعتاد لأتركك حزينة متضايقة كارهة لنفسك..

بعدها رحلت إلى غرفتك في صمت، تتبعتك لأسمع نحيبك وبكائك لثوان ثم عدت لغرفتي والنشوة تتملكني..

ها أنا أريق دموعك من جديد، ولن يطول صبرك للأبد يا صغيرة..



(١٧)

مؤلم أن تضطرك الظروف للكذب!.. وعلى أقرب البشر إليك.. أحنهم، أكثر من يشعرك بالأمان والحب..

بسببك أنت "وليد" كذبت على والدي، رسمت البسمات على شفاهي، اصطنعت الضحكات، وكلما سألني ما بك؟.. عينيك ذابلتين وتبدين حزينة!..

كذبت وألفت قصة بلهاء عن زوجة عاشقة تفتقد زوجها!..

ليضحك أبي ويوصيني بك.. ينصحني أن أتحمل وأصبر لأن العمل بالنسبة لك أهم ضعفين أو ثلاثة مقارنة بغيرك من الرجال..

يسألني هل هناك أخبار عن حفيد في الطريق؟..

فيتمزق قلبي وأجيب ضاحكة أن لم يحن الوقت بعد، فأنت لا تهتم بل وحتى يبدو عليك أنك لا ترغب في أطفال مني، أما أنا فأخشى أن أرزق بطفل منك.. يشبهك ويرث شراستك، يتشبع بقسوتك..



من أدراني أنك لن تؤذيه يومًا؟..

لأنه فقط ابني.. أنا الذليلة دومًا بين يديك، أحيانًا أخطط وأرسم وآمر قلبي بقليل من الجلد والقسوة.. قد يستجيب، لكن فور غيابك تبدأ لحظات الانهيار وتغادر الدموع الحبيسة سجنها بين مقلتي.ز

وكلما ظهرت انفراجة في جدار همومي أسرعت بسدها بهَم جديد..

عندما سافر والدي لقضاء بعض الأمور المتعلقة بالعمل شعرت بانكسار أكبر لولا قدوم والدتك لقضاء أيام غيابه معنا بعد رفضك القاطع أن نذهب نحن إليها.. وكانت أقسى أيام أعيشها..

فبدلًا من رسم البسمة على شفاهي لساعة أو ساعتين أقضيها معهما، أصبحت مرغمة أن أضحك وأبدي سعادتي بقربي منك طوال اليوم..

ولمدة أسبوع كامل!..

رأتني والدتك في صباح أحد الأيام والدموع تسيل بصمت على وجنتي، كانت ليلة غضب أخرى ملاذ الخلاص منه هو أنا.. اندهشتْ هي وعندما حاولتْ السؤال هربتُ من أمامها، فلم تكن بي طاقة لحديث أو حتى شكوى..



***

شهرين آخرين مرا على زواجنا..

في كل يوم أزداد قسوة وتجبرًا وإهمالًا لك، وأنت لم يتوقف نحيبك وتوسلك في صلاتك في ليلة منهما..

وكلما راودني قلبي على نبضة عاشقة تهرب منه على حين غرة، تغافله لتمنحك قبلة على الجبين، أو تربيتة حنون على رأسك أثناء نومك، أعود فأقهره وأخرسه..

كما كنت أقسو عليك تشبع هو بطاغوت ظلمي..

تتوجعين ويقابل هو أنينك بانقباض عاصر يدميه، أتجاهله فيؤلمني أكثر، لكنه دومًا كان الخاسر في ذلك النزال بيني وبينه.. بين قسوتي وحنانه، بين تجبري ورفقه، بين ظلمي ومغفرته..

بعد الشهرين سافر والدك لأمور تخص العمل، وهنا ازداد تجبري، كأنني أخبرك بكل وقاحة أن من تحتمين به ليس موجودًا مع أنك لم تلجئي إليه في مرة..



وكل ليلة أستمتع وأستمع بنشوة لبكائك كلما مررت من أمام غرفتك، لم يهمني أن تسمعك أمي التي أتت للإقامة معنا لتلك الأيام المعدودة..

بل بالعكس!..

كنت أتمنى أن ترى وتسمع حزنك وقهرك وانكسارك لتعلم أنك ضحيتها هي ووالدك.. لأكسر قلبها كما كسرتْ قلبي، كأنني أعاقبها وأعاقب والدك ونفسي فيكِ أنت!..

حتى أتى ذلك اليوم في منتصف الأسبوع، كنت أقف أمامها.. شعرتُ بها مترددة!.. أنفاسها مضطربة وكأنها تود السؤال عن شيء لكنها تخشى عاقبة سؤالها!..

نعم كنت مبعث رعبك أنت وهي، حتى أمي الحنون التي أنجبتني كانت تخافني وتخشى غضبي، بعد صمت طال سألتني:

- وليد.. ما بها شهد؟

اصطنعت الدهشة وسؤالي كان ردًا على سؤالها:

- ما بها أمي؟

تَرَددتْ مرة أخرى.. ثم اندفعت كعاصفة:



- أنت تؤذيها وليد.. الفتاة ذبلت، ضعفت، لا تكاد ساقاها تحملانها.. أشعر أنها ستسقط في أية لحظة.. ماذا تفعل بها بني!.. كن صريحًا لعلي أصلح ما بينكما..

إذًا فذبولك واضح للعيان!..

كنت أود رؤيته.. يالا سعادتي وأمي تخبرني عن الشقاء الذي يغلفك، كدت أضحك بنشوة لكني تماسكت بصعوبة.. عدت أسألها متغابيًا:

- لا أدري أمي.. بالطبع لم أؤذها، كيف أفعل وأنت تعلمين ما تعنيه لي؟

جابهتني وأصرت على معرفة الحقيقة:

- وليد.. الفتاة تبكي كثيرًا، أسمعها في غرفتها وحدها تئن وتتوجع وتشتكي لله منك.. ألا تخشاه ولدي؟.. وبالأمس رأيتها دامعة قبل أن تنتبه إليّ وتختفي هاربة من أمامي..

ارتبكت للحظة.. أخشاه؟..

آه يا أمي لو تعلمين!..

قُدَّ قلبي من صخر، قسوة الموت والدنو من الموت والعجز، قتلت فيه شيئا لن يعود، اصطنعت عدم الفهم بإصرار:

- وما الذي فعلتُه أمي لأُعَاقَبَ عليه!.. اسأليها لمَ تبكي؟

شعرتُ بأمي تراقبني في صمت.. كنت أود رؤية عينيك يا من حملني رحمها، لكن قسوة من خنتِ أبي معه حرمتني نور عيني وكادت تحرمني حياتي.. عادت تردد:

- وهل هي ستجيبني وليد؟.. على الرغم من يقيني بأنك تقسو عليها وتؤذيها، لم تشتكي منك لي مرة واحدة.. على الرغم من نحيبها الذي يخترق الجدران ليصلني، لم تطلب مساعدتي، أو حتى والدها.. أهذا جزاء عشقها لك وليد؟.. تحطمها!.. تكسرها!.. تتركها تشكوك لخالق لا تخشاه؟

جن جنوني أمام أمي العزيزة.. أفلتت الكلمات مني بعنف:

- وجزاء والدي الذي تدله بحبك هو خيانتك أمي!.. ألم تتزوجي عمي بعد رحيله بأشهر تخطت عدتك بقليل!.. هل كنت تنتظرين موته؟.. أم خططت له مع عمي العزيز؟..

شعرت بصدمتها وذهولها، وفي اللحظة التالية شعرت بنيران كفها على وجنتي..



أتصفعينني أمي؟..

لمجرد أن عريتُ الحقيقة أمام ناظريها، صرختْ في وجهي بألم مختلط ببعض الأسى ولمحة ندم، لم أدرِ ما سببها؟.. هل لصفعتها؟.. أم ندمًا وحزنًا على والدي المغدور؟..:

- لقد جننت حتما وليد، كيف تجرؤ؟.. تتهمني أنا وعمك الذي رعاك وتكبد الكثير في سبيل شفائك!.. عمك الذي سلمك طفلته الوحيدة المدللة لتعلمها قسوة الزمن وتطبع على قلبها عنفك وكرهك وندوب نفسك المريضة؟

صمتت للحظة مفكرة على ما أظن.. وأنا أرتجف غضبا أمامها وأعتصر قبضتي بشدة..

أعلم أنني سأنفس عن غضبي من أمي فيكِ أنت "شهد".. وسيكون يومك قاسيًا للغاية صغيرتي..

عادت تقول في صدمة كأنها لا تصدق ولم يدُر بخيالها مطلقًا:



- أتنتقم منا في زوجتك وليد؟.. ألهذا أسمع بكائها كل ليلة؟.. كيف تؤذيها يا من أنجبت وربيت؟.. هل أعمتك شهوة الانتقام وغضبك اللامبرر فحكمت ونفذت كقاض ظالم وجلاد قاس على الصغيرة التي تعشقك؟

ابتسامتي الساخرة واجهتها بها، وفي أنفي عبير مدللتها أنت.. علمتُ أنك استمعت إلينا أو على الأقل لآخر ما قالت أمي..

تركتها وتوجهت للخروج من البيت، أصطدم بأشياء لم أرها، غضبي أعماني أكثر فتهت عما كنت أعرفه مسبقًا..

خرجت للحديقة صارخًا بانفعال شديد وأنا أحطم كل ما تطاله يداي.. في النهاية انهرت على أريكتي هناك ودموعي تعاندني وتأبى الخضوع لأمري..

فجأة شعرت بلمسة كفك الصغير "شهد" على كتفي.. وعبيرك داهم أنفي..

جئت في وقت غير مناسب، أو ربما هو الأنسب!..

وجدتك تجلسين إلى جواري ويدك تنتقل من كتفي لكفي وتربت عليه بحنو لا أستحقه.. سمعت صوتك الدافئ يسألني:

- ما بك وليدي؟.. لمَ تتشاجر مع أمي؟





أتقولين "وليدي"!.. آه يا عزيزتي، هل تبغين ترويضي!.. هل سوط حبك كاف!.. أم أن رقتك ستنكسر بسهولة أمام قسوتي!.. أجبتك حينها غاضبًا:

- سمعَتْ بكائك شهد وتعاتبني فيك.. لمَ تبكين؟

توترتْ يدك وقبل أن تسحبينها بعيدًا كنت قد أمسكت بها بكفي الذي أصبح ككلابة حديدية تعتصر أصابعك الصغيرة.. اقتربت منك هامسًا في جنون مطبق:

- لمَ تبكين شهد؟.. هل أؤذيك؟..

كنتِ تحاولين سحب أصابعك من كفي، أكاد أجزم أنك ترتجفين رعبًا..

كدت أضحك ساخرًا..

ولكن فجأة فقدت رغبتي في الضحك وطفت على السطح رغبتي في إيذائك من جديد.. رغبة تولدت من قسوة تملكت مني بشدة حتى أنستني من أنا!..

وأين أنا!..

استجبت لها ولم أتوانى أو أتأخر..



كنت تبكين بين ذراعي، نشيجك يعلو بشدة وربما لأول مرة منذ أن عرفتك، تدفعينني بقوة لا توازي شيئًا أمام قوتي عصفورتي الرقيقة، ودموعك بمذاقها المالح العذب تنعشني أكثر.. رفضك أسعدني، ها قد عادت قطتي الصغيرة تخمشني بأظافرها..

فجأة صرختِ فيّ:

- وليد توقف.. أكرهك..

لم أدري ما كان سر تلك الصرخة؟..

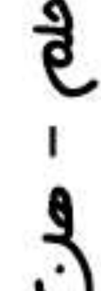
وما الذي جمعته حروف تلك الكلمة لتثبتني في مكاني كتمثال بارد!..

تكرهينني صغيرتي؟..

اِنسَبتِ من بين يدي بسرعة تلملمين أشلاء قلبك المحطم وبقايا ثوبك الممزق..

بعدها سمعت خطواتك التي تتسابق مع بعضها البعض عائدة للمنزل وصوت نحيبك يتردد في أذني..

تجمدت كلوح من الثلج، قلبي ينتفض بداخلي بعنف، هل فقدتُ حبك الآن؟.. هل أضعتُ عشقك؟..



هل تخلصتِ من مرضك بي؟..

حيرة انتابتني وألجمتني وتاه معها عقلي والخافق بين ضلوعي يبكيكِ و ينوح بقايا هوىً كان يومًا يسكنك..

***

لم أعلم "وليد" كيف خرجت تلك الأحرف من بين شفتيّ!..

بدت للحظة هي الخلاص من بين براثن شراستك وقسوتك، وهذا ما حدث بالفعل..

صرختُ بها فتجمدتَ لثوان كانت كافية لأهرب فيها..

أحتوي كرامتي المهدرة..

وأجمع أشلاء قلبي المكسور..

وأضم بقايا ثوبي على جسدي المهان..

كل ما رغبت فيه أن أخفف عنك آلامك على الرغم من محيط آلامي، فكان جزائي مزيدًا منها على يديك أنت.. معشوقي الوحيد..





رأتني والدتك وأنا أهرول للداخل بسرعة أداري خجلي ودموعي، وقفتْ أمامي للحظات طالت كدهر، ثم تركتُها مولية أدباري مدحورة مهزومة..

وقبل غيابي لمحت في عينيها دمعة.. آلمتني أكثر..

***

رحلتِ صغيرتي لتسحبي النقاء من هوائي معك..

شعرتُ باختناق بعد هروبك مني، بعد كلمتك الصارخة في وجهي، كأنني على شفا الموت..

وبعد سكون طال فجأة وجدتُ أمي تجلس إلى جواري..

صامتة هي!..

كدت أجزم وقتها أنها تتطلع إلى وجهي في نوع من الصدمة والذهول.. هل رأت ما فعلتُه بكِ للتو؟..

ربما.. لم أعد أرى أو أعلم شيئًا.. فقط أحيا في جحيم انتظار الآخرين أن يخبروني بما يعرفونه، وأنا عاجز في مكاني.. نعم كانت ذاهلة وهي تهمس:

-وليد.. أهكذا تشبع انتقامك؟



أدرتُ وجهي للناحية الأخرى.. طفى على السطح بداخلي بعض الخجل الممتزج بالغضب.. فظاظتي معك كانت دومًا بين جدران غرفتنا وعندما أتت لحظة جنون تملَّكتْ مني رأتها أم!..

مددت يديّ في بطء أعدل من هندامي والخجل يشيع بسخونته على وجهي..

بقايا إنسان وُجدِت في هذه اللحظة ألجمتْ لساني عن الرد أو الصراخ مجددًا، عادت تخاطبني:

- وليد.. هذه شهد.. حبيبة قلبك، من حملتَها وهي طفلة وضمدتَ جراحها وأهديتَها اللُعب التي تحب.. من كنتَ تترك كتبك ومذاكرتك لأجل اللعب معها، من كان طلبها بالنسبة إليك أمرًا.. أميرتك المدللة، أتتذكر هذا اللقب؟.. ما الذي تفعله بها أيضا؟.. ألهذا لا يوجد في منزلكم خادمة واحدة تساعدها!.. ألهذا صرفت الخادمة التي أحضرتها لكما والطاهي وحتى المسئول عن حديقتك؟.. أجبرتها على القيام بتلك الأعمال؟.. وماذا أيضا يا بني الذي لم أعد أعرفه؟.. أهذه وصية عمك لك بابنته الوحيدة؟.. تفكر وتخطط وتقرر وتصدق نفسك وفي النهاية تهوي بنفسك



من حافة الانتقام لسعيره؟.. أهذا أنت حقًا وليد، طفلي الصغير؟.. شكاك سيء الظن، ظالم، قاس، فظ، غليظ القلب؟

لم أجد إجابة.. هل هي محقة؟.. أم أنني أصم؟..

أكملت هي بدون انتظار لإجابتي:

- وليد.. ألديك بضع دقائق تستمع فيها لوالدتك؟.. علني أطفئ لهيب غضبك ولو قليلا رحمة بتلك المعذبة بالداخل..

أدرت وجهي نحوها وما زال الخجل يكتنفني..

لم أعلم ما الذي تريد الحديث عنه، لكنها بالتأكيد ستحاول إثنائي عن انتقامي، ستحكي لي قصة ما.. وما المشكلة!.. فلنمرح قليلا..

هكذا فكرت وقتها، شعرت باستجابتي فبدأت تحكي:

- هل تعلم كيف تزوجت والدك بني؟.. والدك وعمك كان والدهما من معارف والدي المقربين.. ونتيجة لتلك العلاقة نمت بيني وبين والدك وعمك رابطة طفولية بريئة عبارة عن لعب ومرح وانطلاق، حتى كبرنا وبدأت السنين ترسم ملامحنا ومشاعرنا بشكل مختلف.. حجبني والدي بعيدًا عنهما، وتجاه أحدهما بدأت تتكون بداخل قلبي قصة عشق..

وبداخل قلبيهما كانت قصتي تكتب!.. لم أكن أعرف أن كلاهما يعشقني، أن أحدهما يعرف بعشقي له وبعشق أخيه لي!.. وأنه أصدر حكمه بأن يأخذ القرار نيابة عني ويضحي بقلبه وقلبي من أجل أخيه الحبيب..

بدا الاهتمام على ملامحي، ونبض قلبي بقوة، ما الذي تقصده بالضبط؟.. رأت اهتمامي فأكملت وحروفها تنطق بالألم:

- كان هذا عمك "عبد الله".. من أحببت يا ولدي..

لم أعلم كمَّ الصدمة على ملامحي إلا عندما أمسكت أمي بكفي وهي تتنهد بصعوبة وتهتف في:

- وليد.. لا تفقد ثقتك بي أبدًا، لمَ تبدو هكذا؟.. قل شيئًا..

وما الذي يمكنني قوله أماه؟..

تصارحينني بعشقك لعمي، ما الذي تتوقعين مني قوله؟.. أمسكت وقتها بمعصمها بعنف حتى كدت أكسره وأنا أصرخ في وجهها:

- أهذه جرأة أم ماذا أمي؟.. أتثبتين خيانتك أمامي؟.. بقصة عن عشق قديم؟..





أعلم أنني كنت على وشك تلقي الصفعة الثانية.. لكنها تماسكت، سمعت صوتها دامعًا وهي تهمس في ألم:

- أنت غبي وليد.. أناني كوالدك تمامًا، تفكر فيما يهمك وتتناسى قلوب الآخرين، عمك الذي تكرهه بلا داعي وتتهمني بالخيانة معه، ضحى بحبيبته ليسعد قلب أخيه الصغير المتعلق بها على الرغم من معرفته بحبها له هو.. أخ أقدَمَ وكان الأسرع فنال ما تمنى، وآخر ألجم قلبه وارتدى كساء الحزن وتوارى بعيدًا في صمت.. لم أكن أكره أباك وليد، بل على العكس أحببته واقتربت منه، وهو كان رجلًا رائعًا بمعنى الكلمة.. يبذل قصارى جهده ليسعدني، وعندما رزقنا بك ازدادت سعادتنا وتعلق قلبي به وبك أكثر.. واستمرت بنا الحياة، تأخر عمك في الذرية حتى أتت أميرته الصغيرة "شهد" بعد عناء سنين وحرمان طويل.. أتت ليسلمها لك وهو يظنك حبيبها، درعها، أمانها!.. فإذا بك مصدر كل ألم تعيشه، وإذا بك تقطف زهرتها بقسوة وترميها على طاولة عندك بدون حتى كوب ماء بسيط لتعيش فقط لفترة أطول.. أنت تتعمد موتها، تتركها لتذبل وتنزف بريقها وحيويتها أمامك في كل يوم لأنك غبي طائش أسود القلب..

وددت لو أشرح لها..





هي لا تفهم شيئًا!.. لا تشعر بما في داخلي، فقط تبرئ ساحتها من الخيانة ولا تعلم شيئًا عن واقعي الذي أحياه لحظة بلحظة أسفل رداء الظلام..

وبسبب من عشِقَتْ هي!..

لقد أثبتت التهمة على عمي، الرجل الذي كان يعيش وحيدًا، الذي أراد امرأة عشقها قديما وسبقه إليها شقيقه.. ثروة وحبيبة، أي دافع أكبر من هذين؟..

تركتني بعدها ورحلت، كلمة أخيرة همست بها من بين دموعها:

- لا تسيء الظن بنا وليد.. أنا لم أخطئ وعمك لم يخطئ ووالدك كان نعم الزوج، في حالتي بعد وفاته وإصابتك كنت أشبه بريشة ضعيفة تتقاذفها الرياح حتى ألقى هو لي بطوق نجاة، وكان لابد لي من التمسك به.. فكر جيدًا بني، ولا تترك زهرتك تذبل فتموت وتضيع منك للأبد..

قالتها ثم ابتعدت.. تركتني أجتر مرارة آلامي وأحزاني، ولهيب انتقامي يزداد بعدما عرفت قصة العشيقين القديمة..

لهذا إذًا تزوجتْه!.. وبسرعة!..





رغبتْ في إحياء قصة حب ماتت بسبب أبي وبسببي، توقيتك غير مناسب بالمرة والدتي الحبيبة..

وضحيتك هي أميرتك المدللة..



(١٨)

أحيانا يشاء القدر أن تتوجع، وبشدة..

أن يأخذ منك شيئًا عزيزًا ويهدم جدارًا كنت تستند إليه وتستظل بظله في استكانة واطمئنان.. بصورة مفاجئة وفي وقت غير متوقع وقتما تكون الحاجة إليه أشد، ووجوده أكثر أهمية..

حينما تتألم ويكون قربه هو دواؤك!..

سافر أبي..

سافر ولم يعد!..

وافاه الأجل بعيدًا عني ليتركني وحيدة بين براثن وحش سلمتُ نفسي إليه طواعية..

حتى لو لم أكن أشتكي إليه أو أتركه يمسح دموعي فقد كان قربه وحنانه وابتسامته فقط تكفيني.. أن أشعر به حولي فيطمئن قلبي ويمدني بالأمان، وبعد الرحيل ومعانقة تراب القبر صرت أكثر خوفًا وقلقًا..

انكمشت على نفسي أكثر وفقدت الرغبة في الحياة، تمنيت اللحاق به علني أدفن بين دفء ذراعيه..

حادثة سيركانت فيها نهايته!..

حادثة من آلاف الحوادث التي تقع بشكل اعتيادي كل يوم وكل شهر وكل عام، لكنها بالنسبة لي لم تكن عادية.. لقد اختطفه الموت مني، وضِعتُ أنا من بعده..

لم أستطع الصراخ، فقط هي دموعي الصامتة وأنين وجع يغزو القلب بعنف، فقدان وعي ليومين كاملين..

وخشية استيقاظ على وجهك القاسي!..

زوجته.. والدتك، فقدت زوجها فيما يقرب من عامين.. من لنا أنا وهي سوى رجل شرس تغلغل الغضب بداخله حتى تملك منه وأصبح عُصابة تعمي قلبه، وغمامة تظلل سمائه..

لم تقترب مني أو تحاول مواساتي، لم أشعر بتربيتة حانية من يدك أو ضمة اطمئنان بين ذراعيك..





تركتني في أحضانها هي، تضمني وتبكي وأشاركها الدموع لكن اللهيب في القلب لا ينطفئ أبدًا..

كان يتمنى رؤية حفيده فغادر الحياة قبل أن يولد في أحشائي حتى، حُرمتُ منه وحُرمتُ طفلا يؤنسني ولا أدري السبب وأخاف حتى أن أطلب منك بحثًا في الأمر..

ربما أنت نفسك لا تريد!.. فكيف سأتجرأ على طلب طفل أنت والده، أمر أخشاه وأريده، أتطلع إليه ولا آأمن حدوثه..

آه لو تعود لـ "وليد" القديم ولو لدقائق..

أرغب في البكاء على صدرك كما كنت أفعل سابقًا، أن تربت على رأسي بحنان وتمسح دموعي بأصابعك وتهمس "أحبك"..

أن أغفو شاعرة بالراحة وأنت تضمني إليك برفق، ولكن حتى الأحلام أصبحت معك بعيدة المنال.. غير قابلة للحدوث، ولا أجد سوى استسلام جعلني أمامك أكثر ضعفًا، هوانًا.. وقلة حيلة..

***

لم أصدق ما حدث "شهد"!..





مات والدك.. فجأة!..

بعد ما حدث بيننا وبعد حديث أمي وقصتها عن عشقها القديم، مات العشيق وعادت وحيدة باكية حزينة، وأنت فاقدة للوعي نائمة في فراشك ضعيفة، خائفة، وحيدة..

تألمت لأجلك..

وفجأة طغى على قلبي شعور قاهر بنوع من الشماتة!..

لقد فقدتِ السند وأصبحت أنا كل ما لديك في هذه الدنيا، ومرار وجودك معي سيكون أقسى وأعنف..

عاد بعدها قلبي يؤنبني.. أتشمت في موت عمك؟.. هل فقدت إنسانيتك لهذه الدرجة الوضيعة؟..

وأعود فأقول لقد طلب مني ألا أؤذيه في قبره بك!.. لكنني سأفعل..

بل سأتفنن في ذلك..

وهكذا ظللت لمدة أسبوع كامل بعد وفاته في شد وجذب بين عقلي وقلبي وظلماتي التي أحيا بداخلها..



في الليلة الأولى سهرت إلى جوارك، يومها كل ما تملك من قلبي كان الخوف، خشيت أن أفقدك!.. أن تضيعي مني أكثر!..

مازالت كلمتك يتردد صداها في أذني كل لحظة..

"أكرهك"..

توقف بي الزمن.. كلمة وعلى الرغم مما أفعله معك لم أتوقع خروجها من بين شفتيك، أن أسمعها بنبرات صوتك الرقيقة الحزينة دومًا..

ضعفتُ أمام ضعفك وليومين متتاليين كنت تنامين بين ذراعي.. كأنني أعوضك عما مضى وما هو آت..

أهمس في أذنيك بقصائد عشقي القديمة، وبصوت أعلى أقولها..

"أحبك، لا تتركيني"..

أنا مجنون صغيرتي..

مس شيطاني أصابني فتركني هائمًا تائهًا لا أعلم من أنا أو ماذا أريد أو إلى أين سأصل؟..



وكأن ضعفك وغيابك يستدعي حناني وولعي بك فيأخذ منهما رشفة ثم عندما تفتحين عينيك يتمكن الوحش الرابض بأعماقي مني ثانية وينهض ماردي مغادرًا قمقمه ومكملًا عملًا كان قد بدأه من قبل..

ثم أحيانًا يعميني غضبي أكثر فأطيح ببقايا العشق وألقي بها في نيران قسوة وعتمة ثأر وجهامة جلاد غاشم.. دونما اكتراث لنتيجة جور أصبح رفيق أعمالي وتصرفاتي..

غلظة تنتاب القلب فتخرسه وتكبله بأصفاد القهر والخوف والضعف فيتوارى بعيدًا وحيدًا في ألم..

وأصبح أنا كإعصار عاتٍ اقتلع في طريقه براءتك وطهرك ونقاء قلبك الصغير بمنتهى الشراسة واللامبالاة..

***

معك تمر الأيام بلا عدد.. بلا اهتمام.. بلا إحساس..

فقدت معنى الوقت ولم أعد أكترث له، رحل الغالي وتركني لك، تستأثر بي وتصنع معي ما تشاء..

ولضعف يشملني استسلمت!..



حتى بقايا المقاومة والرفض وعنفوان طفلة عنيدة كانت بداخلي اختفت وتلاشت، ضاعت مع من رحل ودفنت معه في ظلمة قبره..

ربما لشهر أو اثنين لا أعلم غبت عني..

تركتني أحيا وسط أحزاني وحدي..

رفضتْ والدتك أن تعود لمنزلنا.. منزلها القديم.. ورفضتَ أنت ذهابنا للإقامة معها..

تركتَها وحدها، وأنا وحدي..

تجاهل تام منك أراحني، لامبالاتك وبعدك يسعداني، حتى يتملك منك الغضب مرة أخرى، فتعود لمصب نهره.. أنا!..

الضعيفة بلا سند سواك..

تقتلع منها راحة طفيفة تسللت إليها، وتمحو طمأنينة غمرت قلبها ولو لساعات، وفقط عندما تهفو أنت إلى ذلك..

هكذا كنت في مرار انتظار سقيم حتى تلبستك نوبة شراسة جديدة وكالعادة دونما سبب أعرفه..



أتذكر تلك الليلة "وليد"؟..

عدتَ للمنزل من سهرتك الصاخبة مع أصدقائك أو ربما صديقاتك والسخط والاهتياج يتنافسان على رسم ملامحك.. ابتسامة قاسية حُفرت على شفتيك، كنت أعلم أين ستصب جام غضبك!..

من غيري ضعفها يشعرك بالنشوة وتستأسد فوق أشلاء قلبها؟..

آلمْتَنِي يومها كثيرًا.. ليس فقط في جسدي الصغير بين يديك، ولكن في قلبي ونفذت بجبروتك لأعماق روحي، انتزعت منها قطعة أحرقتها ثم خطوت فوق بقايا رمادها بقدميك..

ليلتها كنتَ غريبا لم أعتده ولا أعرفه حتى!..

و في الصباح التالي بعد غفوة لا تسمن ولا تغني من جوع، أفقت على شعور ممض بالاختلاف..

نعم لا تستغرب!..

فلكل لمسة منك وجع مغاير، ولكل ألم آهة ذات دويٍّ منفرد..

وبعد شهر ونيف تأكدت..



تلك الليلة لم تكن كأي ليلة، لقد تركت بداخلي شيئًا، شيئا ظننتُ أنه في يوم ما سيشكل فارقًا بيننا.. معك أنت "وليد" لكن و يا لا كُربتي كان ظني خطأً..

تركتَ في ذلك المساء بأحشائي بذرة صغيرتي "غفران"!..

أتذكُرُ عندما أخبرتك؟..

كان الجمود يعلو ملامحك، يغلفها بغلاف بارد قاس، لم تبد أي انفعال مطلقًا، لم تغضب أو تثور، لم تفرح أو تنتشي بهزيمة جديدة لي أمامك..

فقط كان الصمت هو الحاكم بأمره وقتها، ثم تركتني وانصرفت، غبت لأيام عدت بعدها لتقف أمامي وبكل قسوة تأمرني:

- شهد.. تخلصي من هذا الجنين، فورًا..

فقدت القدرة على النطق حينها!..

تطلعت إليك ببلاهة وغباء شديدين، لم أفهم.. أتريد قتل ابنك؟..

كان جسدي يرتجف بشدة.. خوفًا، غضبًا، حزنًا وقهرًا.. وقفت في وجهك وصرخت:



- ماذا؟.. هل جننت وليد؟.. أتريد مني قتل طفلي؟..

بابتسامة ساخرة ولهجة باردة أجبت:

- ليس طفلًا بعد زوجتي العزيزة.. أطيعي أمري شهد وإلا ستندمين..

ولأول مرة أشعر بالقوة.. كأن البذرة في أحشائي تساندني، تحميني، تشد من أزري وتقويني.. بصرامة وحزم ولهجة قاطعة قلت:

- لن أقتل طفلي وليد.. سيكون هو كل ما لي في الدنيا، إن لم تكن تريده فلا شأن لك به لكنني أبدًا لن أتخلص منه.. ويكفيني عمري أكفر به عن سوء اختياري لوالده..

برقت عيناك في غضب مخيف وقتها..

ابتعدتُ عنك بسرعة في رعب.. قد تؤذيني أعلم أنك لن تتوانى عن فعل ذلك!.. صرختَ في وجهي وأنت تقترب مني وأنا في تراجع مستمر:

- لا أريد أطفالًا منك شهد.. وإن لم تتخلصي منه برضاكِ فسأتصرف بنفسي..

تركتني بعدها وخرجت من الغرفة.. أطحت في طريقك بمقعد كاد يسقطك أرضًا وأنت تدمدم في غضب..

أغلقتُ غرفتي خلفك بمفتاحها وانكمشت في فراشي في خوف أرتجف وأبكي، أنشد أمانًا لا مصدرله في حياتي..

***

صغيرتي "شهد"..

في ليلة حانقة أخرى، تملك مني وحش الغضب من جديد..

كنت ابتعدت عنكِ قبلها لفترة.. تركتك تلملمين بقايا ما حطمته أنا بداخلك..

أغاظتني إحداهن في إحدى حفلاتي الليلية، وأنا أجلس صامتًا على وجهي بدا بعض الحزن..

الأصدقاء ليلتها لم يتركوا الأمر ليمر، تضاحكوا واتخذوا مني موضوعًا لمزاحهم حتى قالت إحداهن أنك تتدللين.. وأنني لم أعد أنا القديم، وكأن الذنب ذنبك!..

نفست عن ثورتي فيكِ.. عينايَ معك لم تعودا تشكلان أي فارق، يكفي فقط أن أستشعروجودك من حولي حتى أصل لما أريد..

قسوتي يومها كانت طاغية!.. أعلم ذلك..



هذه المرة لم أتذوق دموعك.. لم تكوني تبكين، لكن نزيف قلبك كان ماثلًا أمام عيني.. لم أكترث له، ومنذ متى أفعل؟..

كنتُ قاسيًا وبشدة.. أعترف بذلك، وكنتِ أنت ساكنة ضعيفة، صرخت في وجهك وقتها:

- لستِ بجثة شهد.. تعلمين كم أكره ذلك!..

شعرتُ بنحيب قلبكِ فزادتْ نشواي وابتهج قلبي أكثر..

دومًا كانت تغبطني لآلئ مقلتيكِ، لكن نزف قلبك كان الأفضل مذاقًا و عذاب روحك هو الأشهى..

كم كنت وحشيًا في اشتهائي لأنين وجعك..

قاسيًا في شغفي برفضك..

لكن مع الوقت ومع منحي ما أردت دونما اكتراث فقدتُ جزءً من متعة اللعبة!..

كيف أحقق انتقامي وأنتِ مستسلمة ضعيفة؟..

كنتُ أود قهركِ وكسر روحكِ، فانكَسَرَتْ بسهولة أفقدتْنِي لذة المغامرة..



بعد تلك الليلة تغير شيء فيك!..

لم أدرِ كنهه إلا بعد مرور أكثر من شهر، عندما كانت الفرحة تطغى على صوتك وأنت تخبرينني بجزء مني ينمو بجوار قلبك ويستمد قواه من جسدك الهش.. يمتص من دمائك غذاؤه، يستمع لصوتك الحنون، يهدأ بترتيلك للقرآن، يؤنس وحدتك..

لا أخفيكِ سرًا.. وقتها ارتبكت مشاعري، غضبتُ أن حملتِ طفلي وستصبحين أمه!..

وددت يومها لو تركت كفاي وقدماي يجوبون أنحاء جسدك صفعًا وركلًا حتى أتخلص منه..

وأبهجني أن كائنًا صغيرًا هو بضعة مني سيهلك جسدك وروحك وقلبك أكثر فأكثر..

لكن قراري كان التخلص منه!..

كم سأسعد بطفل صغير من معشوقتي، ولأنني أنا وبشخصيتي، وبعماي وغضبي وانتقامي فلم أرغب في طفل يحمل معي عقدي.. ومنك أنتِ!..

سيضعفني.. سيتحمل الأذى معك ويشاركك إياه، وهذا ما لن يحدث أبدًا..

لكنك رفضتِ، عاندتِ، غضبتِ، وصرختِ في وجهي لأول مرة منذ زواجنا، أردتِ الاحتفاظ به..

لم أعلم ألأنه مني؟.. أم ليؤنس وحدتك بعد رحيل والدك؟..

ولأنني اتخذت قراري ولن أعود فيه وأنت أبيت وبشدة فقد انتويت التخلص منه بنفسي..

في اليوم التالي كنت في مطبخك الصغير لأقلبه رأسا على عقب، أخرجت كل الأواني وبعثرتها، حطمت الكثير من الأطباق والأكواب، سكبت الماء والطعام على الأرض وتركته لك واتجهت لمكتبي أتسمع خطواتك منتظرًا رد فعلك تجاه مفاجأتي الصغيرة..

وكعادتك لم يكن هناك سوى الصمت، بكاء في غرفتك، وحدة وانعزال..

توالت الحوادث كل يوم، كنت أرهقك أكثر وأزيد أعباء يومك، حتى عدت في يوم من عملي لأجد والدتي في انتظاري..

أخبرتني أنها كانت تزورك وقبل أن ترحبي بها سقطتِ مغشيًا عليك فجأة!..

نادت خادمتها وحملتك لغرفتك وأتى الطبيب ليخبرهم بمدى الإرهاق الذي يغزو جسدك لتتمتمي أنت بخبر حملك في خفوت..

قالت أنها طارت من الفرح وعندما اتجهت للمطبخ لتحضر لك طعامًا أصابتها حالته بصدمة!..

ولأنها تعلم بخبايا نفسي فقد فهمت ما يحدث لأجدها تستجديني قائلة:

- وليد.. اتركها لحالها، كفاك إيذاءً، الفتاة يتيمة الأبوين وأنت تقسو وتقسو وفي النهاية تريد قتل طفلك أنت!.. فقط لأنها والدته.. ألا تريد طفلًا يحمل اسمك واسم والدك؟.. والدك بني؟..

والدي!..

اعتصرت قلبي قبضة باردة قاسية.. طفل يحمل اسمه وأمه ابنة قاتله!..

أي بذرة أسوأ من ذلك؟..

لكن أمي على حق، التخلص من الطفل ليس هو الطريق الوحيد للإذلال، يمكنني تركه ينمو بداخلك، وأنت تعلمين أنك فقط مجرد وعاء.. لابني أنا!..



عرضتْ عليّ أمي الانتقال لمنزل والدك ثانية وهذه المرة لم أمانع، فهناك بين جدرانه ستهاجمك ذكريات أشد حزنا وألما على والدك الحبيب..

هناك سأتخلص من كل ما يذكرك به، وبأي لحظة حب قضيتها معي أو معه!..

وانتقلنا.. بدأت أهتم بك بشدة وأجبرك على تعاطي دوائك والعناية بطعامك، مع حرصي في كل مرة أن تعلمي أن كل ذلك لأنك تحملين طفلي فقط.. هذه هي فائدتك صغيرتي وهذا هو سر عنايتي بك لا أكثر فلا تأخذك الأحلام بعيدًا أو تحلق بك الأمنيات..

لأنك في النهاية ستسقطين وتحطمين عنقك حيث طرتِ عاليًا في عالم خيالي..

تركتك تعيشين بضعة أيام في سعادة.. لفترة طويلة من حملك لم أقربك، خوفًا ربما، جفاءً!.. سببًا لم أتبينه حتى أتت نوبة غضب أخرى كادت تُضَيّع منك طفلتك..

يومها سعادتي كادت تبلغ عنان السماء وأنا أستمع لتوسلاتك بأن أتركك..



خوفك علي جنينك جعل منك كتلة من الضعف والخنوع زادت من سروري، وتكرمت أنا بالفعل وتركتك.. كسيرة الفؤاد من جديد..

وبممحاة وحشيتي محوت أثر البهجة بجنينك من صوتك وقلبك، تركت فقط ندبة الخوف تعشش بداخلك يومًا بعد يوم حتى كادت تقتلك في انتظار إحدى نوبات جنوني مرة أخرى..

وما أوجع الانتظار صغيرتي!..

رهبته أشد وأقسى من وقوع ما تخشينه..

***

قاس.. عنيف.. غليظ.. حاقد.. يتناقص مخزونك بداخلي رويدًا رويدًا..

أنا!..

ضعيفة.. وحيدة.. خائفة.. تعذبني، ترهقني، تريد التخلص من ابنك.. لأنني أمه!..

دمرت المنزل وأنا أعدله ورائك حتى نال مني التعب و بلغت حدًا من الإنهاك لم أصل إليه من قبل.. زارتني والدتك فبين ذراعيها استكنت فاقدة للوعي، علمتْ بحملي..

ولأول مرة أشعر بقدر من السعادة لرؤية البهجة على وجهها المتغضن، حفيد سيحمل اسم زوجها، ومن ابنة زوجها الآخر..

هي تحبني أعلم ذلك، هي من ربتني وتولت مهام الأم في حياتي..

علمتُ أنها تحدثت معك وأقنعتك بالاحتفاظ بالجنين، لكنك دومًا تتميز بلمستك الخاصة..

أتخلص منه وأكسرك، أو أحتفظ به وأقهر قلبك!..

عنايتك واهتمامك زاد عن الحد فقط لتخبرني في كل مرة أنك تهتم به فقط وتفعل ذلك لأجله.. وكان هذا يكفيني مادمت سأحتفظ به..

أخبرتك بعدها بعدة أشهر أنها هي..

أنثى.. جميلة صغيرة، ثم أخبرتك بالاسم الذي اخترته لها، سخرت مني، قلت لي في قاموسك لا معنى لهكذا اسم.. لكن الإصرار بداخلي كان أقوى مني، ولا مبالاتك حققت لي ما أريد..

وأتت "غفران" الصغيرة لدنياي..

تحمل بهجة الدنيا داخل عينيها الصغيرتين، وانتفاضة حب بين جوانحي عندما تمسك بإصبعي فيملأ كفها الصغير..

يومها رأيتُ وجهك عندما حملتها لأول مرة!..

شيء ما تبدل فيك للحظات قصار، بعدها عدت كما أنت "وليد"..

كما أنت على الدوام..

***

أشهر أخرى مرت..

كثيرًا ما كنت أتمنى رؤيتك.. طفلتي الصغيرة ببطن منتفخة متكورة تحمل ابني أنا..

كانت تغافلني ابتسامة في أحايين كثيرة وأنا أحاول تخيل شكلك..

بالتأكيد تبدين مضحكة، جميلة، بريئة وملائكية كعادتك..

ترى كيف يبدو وجهك الآن؟..

هل انتفخت شفتاك؟.. هل تضخم أنفك؟.. ووزنك؟.. كم ازداد؟..

لحظات رائعة ضاعت مني بسبب..

وها هي الذكرى..



دومًا تعود في منتصف لحظات السعادة التي تتسرب لروحي في أوقات معدودة لتقتلها وتحيلها جحيمًا مستعرًا مخصصًا لأجل إحراقك أنت..

عندما أخبرتِني أنها مثلك أنثى، اكتنفني القلق.. ماذا لو!..

لحظة أفاق فيها ضميري من غفوته لكن شهوة انتقامي خدرته من جديد، قلتِ لي وقتها:

- جميلتي سأسميها غفران..

ضحكتي الساخرة هي ما وصل لأذنيك، كان ردي:

- أوتغفرين عزيزتي؟.. أم تبغين مغفرتي أنا؟.. في قاموسي لا توجد تلك الأحرف مجتمعة في كلمة واحدة..

أصريتِ:

- ما دمتَ لا تبالي بالاسم.. فهي غفران إذًا..

هزة كتف باستخفاف، ليَّة شفاه ساخرة، وصمت مني منحك الجواب.. لا أهتم عزيزتي، فاصنعي ما شئتِ..

وأتت واحدة من أهل الجنة لتُدخِل شيئا من البهجة الضائعة لحياتنا..



كنت أختلس من خلف ظهرك لحظات أقضيها معها، فأحلق عاليًا بعيدًا عن منغصات انتقامي..

عندما أحملها.. صغيرة للغاية!..

أتشممها.. ندية بريئة، بنقاء أفقدتك إياه.. أقبل وجنتها الناعمة وتمسك بإصبعي الكبير لينتفض قلبي حبا..

معها فقط كانت ترتسم الابتسامة على شفتي وقلبي وعقلي..

معها فقط كانا العدوين بين جوانحي يتفقان..

أتت لتحمل معها فرجة في جدار آلامك الذي بنيته أنا ومازلت أبني فيه يومًا بعد يوم..

بعدها أحضرت لها مربية تعينك في أمورها.. فأنت مثلها مازلت طفلة حتى وإن ساعدتك أمي..

كنت أعلم أنك شاكرة، وقدر من سعادة ضئيلة بدأت تتغلغل داخل قلبك الصغير..

لكن عندها عدت لتوحشي مرة أخرى.. لا تنسي القسوة عزيزتي فمن رحمها ولدت أنا..



لم يوقفني أبدًا بكاء جميلتي الصغيرة، ولا استجدائك أن أتركك تذهبين إليها..

سوى مرة واحدة لم تتكرر!..

بعدها كنت دومًا أصرخ في وجهك، أنها ستشب و أمها هي مربيتها، أما أنت فمجرد أداة للتخلص من عذاباتي..



(١٩)

ستة أشهر مرت..

قطعة السكر الذائبة ظهر لها سنان صغيران في فمها، تمسك بإصبعي لتعضه برفق فترتسم البسمة داخلي قبل حتى أن تصل لشفتي..

كم وددت أن أراها.. عندما سألت والدتي كيف تبدو؟..

قالت أنها تشبهك كثيرًا.. فازداد حبي لها..

مناغاتها وضحكتها البريئة وأصوات دلالها وحتى بكائها هي أفضل معالم يومي.. كنت أجلس معها وأحملها برفق، أداعبها وأنا لا أراها أما هي فتضحك أحيانًا مستجيبة لمداعباتي..

أقبلها بحنين لرؤياها فتمسك بأنفي لتشده.. فأضحك أنا..

ستة أشهر "شهد" لم تكوني فيها سوى أمًا..

لم أعرف لمَ ابتعدتُ عنكِ؟.. لكنني فقط فعلتها..



ضحكة أخرى من ملاكي الصغير وهي تحاول التملص من بين ذراعي لأعرف أنك هنا وهي تريدك.. وقفت أحملها فسمعت همسك:

- لا تدللها كثيرًا.. يمكنها البقاء معك لبعض الوقت..

كنت أكره مراقبتك لي معها..

أمامها ينتابني ضعف لا أستطيع السيطرة عليه، فأمرح وأضحك وألعب، لتضبطيني أنت في كل مرة بالجرم المشهود..

أسلمها لك بسرعة وأهرب منكرًا جريمتي.. هذه المرة ناولتكِ إياها قائلًا في صرامة:

- ولمَ لا أدللها؟.. هي طفلتي، إن كانت تريدك فرغبتها أمر، هيا خذيها..

وجدتكِ تتناولينها مني برفق، لمسة سريعة غير مقصودة بين أصابعنا أيقظت بداخلي اشتياقي إليك والذي تجاهلته طويلًا!..

قربي منك لهذه المسافة القصيرة جعل عطرك الرقيق يتغلغل مقتحمًا ثنايا قلبي، ليوقظ حواسي كلها دفعة واحدة!..

بقيتْ الصغيرة معلقة بيننا أنت تأخذينها وأنا أتشبث بها كأنها آخر خيط يجمعنا..

سمعت همسك المستغرب:

- هل مازلت تريدها؟

وبدون أن أعلم ما أقول، همست بدوري:

- بل أريدك أنتِ..

أحمق.. غبي، متسرع، كيف نطقت بتلك الكلمات؟..

ظلت هي معلقة بيننا تضرب أيدينا بأصابعها الصغيرة، وغمرنا الصمت بثوبه..

لم أدرِ هل ظهرت مشاعري في جملتي تلك أم أنها كانت مقبضة باردة كما أنا معك دوما؟..

طال صمتك لأدفعها نحوك أكثر وأسحب يدي، وقفتُ للحظات أريد قول شيء لا أعلم ما هو، حتى أتاني صوتك باردًا جامدًا:

- حسنًا زوجي العزيز.. أعتقد أن ستة أشهر أكثر من كافية، لقد صبرتَ كثيرًا، سأضعها في فراشها أو أتركها مع والدتك وآتي إليك في غرفتك..

اشتعل غضبي فجأة..

اللعنة.. لم يكن هذا ما قصدته أبدًا، وأكاد أجزم أنك فهمتني جيدًا لكنك ادعيتِ الغباء..

هل تخشين السقوط في هوة أمل زائف بقرب عاشق كنته يومًا؟..

رفض قلبي الأمر بعنف، أمرني أن أبتعد، أو حتى أغادر المنزل، لكن شيطاني الذي يتحكم بي حرر لساني من لجام صمته لتخرج الأحرف الثلجية من بين شفتي:

- سأنتظرك.. لا تتأخري..

تحركت من أمامك خطوة ثم عدت ثانية لأنحني نحوك وأترك شفتي تخبر وجنتك الباردة أنك ملكي مهما حاولتِ..

التفت بعدها متوجهًا بالفعل لغرفتي ولهيب الغضب يستعر في أعماقي و شعلة القسوة تتأجج من جديد..

***

عندما تكون معها تصبح شخصًا آخر..

أكاد أغار منها "وليد"!..





تحملها برفق وحنو كأنك تحمل قطعة من الكريستال الرقيق تخشى أن تكسرها بين أصابعك، تداعبها بأبوة جامحة وهي تضحك معك.. هي تحبك على الرغم من أن ما تقضيه معها من وقت يمكن عده بالدقائق، لكنها وقعت أسيرة سحرك، عشقتك وتعلقت بك كما فعلت والدتها من قبل..

منذ عدة أيام أتمت شهرها السادس وقبلها بحوالي شهر أتممت عامي الثالث والعشرون..

عندما أتطلع لنفسي في المرآة أشعر أنني في الثالثة والأربعين، أرى ذبولا وعينان منطفئتان، بشرتي شاحبة وازداد جسدي نحولًا..

قد أبدو أفضل بقوام ممشوق بعد حمل وولادة، لكنني لم أكن أنا!..

كلما وجدتك تأخذها وتتجه لمكتبك، أو غرفة المعيشة لتجلس معها على أريكتك المفضلة تتبعتك بهدوء شديد..

أظل أراقبك وأستمتع بلحظات "وليدي" القديم..



ملامح وجهك تتبدل كليًا، تصبح أقل حدة، تشيع الابتسامة على ثناياك بل وضحكتك الخافتة تصل لأذنيّ.. شفتاك المضمومتان في حزم دائم تنفرجان عن أسنانك اللؤلؤية في حنان باسم..

تتعلق هي بك بذراعيها الصغيرتين، تداعب وجهك وتندمج معك بشدة حتى تقع عيناها عليّ، فتفهم أنت أنني أتيت.. تناولها لي وتهرب بسرعة كأنك ضُبطت ترتكب جرمًا!..

في تلك الليلة كنتَ تبدو سعيدًا للغاية..

وسعادتك انتقلت إليّ و أنا أنظر إليكما، نبض قلبي لك من جديد، للغرابة لم أعنفه أو أوقفه.. تركته يهتف باسمك ويأمل في بعض حنان من الذي تغدقه عليها..

عندما وقفت لتناولني إياها مقررًا أن رغباتها أوامر لمست أصابعي..

لم أدرِ أكان عن قصد أم بدون!..

في الحقيقة لمستك لم تؤثر بي لكنك بدوت واجمًا للحظة وأنت تتشبث بها..



وعندما أخبرتني أنك تريدني أنا انتفض قلبي بين ضلوعي.. لهجتك كانت غريبة لم أعتدها منك أبدًا، لم أخف أو أهرب من أمامك، لأنك بدوت للحظات مختلفًا!..

بعدها ارتسمت الحيرة على وجهك، كأنك تؤنب نفسك على ما قلته، تسرعتَ وأردتَ الفرار.. تركتَها بين ذراعي ووقفتَ صامتًا، أوجعني قلبي بشدة..

لمحة أمل كالعادة اغتلتَها قبل أن تظهر، لم تتراجع في كلمتك لكن المشاعر المرتسمة على وجهك أعلمتني أنك تريد زوجتك فقط.. لا حبيبتك القديمة، فكان ردي البارد عليك لتعود لتجهمك وصلفك وتخبرني أنك تنتظرني وبتملك..

وقفت لثوان أفكر فيما قلتُه.. أكان خطأً؟..

هل كنت ستتبدل للحظات؟..

هل أنا من أضعتها؟..

غبية..

كان يمكنني التشبث بها ولو لمرة واحدة..



نفضتُ تلك الأفكار عن عقلي بعنف وتوجهت لغرفة الصغيرة، أطعمتها حتى هدأت ونامت، ثم عدتُ لغرفتك..

وأمام بابك وقفت.. قلبي يدق بقوة، كأنها المرة الأولى، نظرت لنفسي وما أرتديه.. شعري.. لم أهتم بمظهري ولو مرة لأجلك وأنت لم تبالي كيف أبدو!..

أنت لا تراني فكان هذا بالنسبة لي شيئًا مريحًا.. خاصة أنها أبدًا لم تكن بحب!..

لم أكن محل اهتمامك ولو لثانية..

لكن مع وجود "غفران" تغير فيك شيء، قررتُ استغلال ذلك التغيير ولو ليوم واحد..

عدت لغرفتي، اغتسلت وتعطرت ثم ارتديت شيئًا مناسبًا.. بعض لمسات خفيفة من طلاء شفاه وحمرة على وجنتي، بعدها كنت أطرق بابك برفق وخجل، سمعت صوتك يأمر بالدخول..

نعم كان آمرًا حازمًا..





ترددتُ للحظات أخرى ثم فتحت الباب ودخلت، أغلقته ورائي بإحكام، لأجدك تجلس على أريكة في الغرفة وتبدو غارقًا في التفكير..

اعتدلتَ فجأة لتهمس باسمي فأجبتك، قمتَ واقفا بسرعة وتوجهتَ نحو الباب حيث افترضتَ أنني أقف.. وبالقرب مني توقفت..

أخذتَ نفسًا عميقًا وأنت تتساءل همسًا باستمتاع:

- تعطرتِ لأجلي؟

أجبتك بخفوت وأنا أكاد أذوب خجلًا ولا أدري لمَ:

- نعم..

تجمدتَ لثانية ثم عدتَ تتمتم:

- يعجبني هذا..

لم أعرف إن كنت غاضبًا أم راضيًا، لكنك كنت مختلفًا بالتأكيد..

وعندما لمست ما أرتديه أطلقت صفيرًا مندهشًا ومعجبًا بنفس الوقت، وبهمسك شديد الخفوت سألتني مجددًا:

- حرير شهد؟..





بخجل شديد بادلتك همسك:

- نعم..

في مكر قلت:

- لا كلمات أخرى سوى نعم؟

مزاجك رائق.. غريب!..

لكنه مبهج لقلبي..

آه يا "غفران" لمَ تأخرتِ لهذه الدرجة؟..

لقد بدلتِ شيئا في والدك فعاد بعض منه القديم..

لم أجد إجابة على سؤالك فاكتفيتُ بالصمت..

اقترابك مني هذه الليلة كان مختلفًا، مميزًا.. ولأول مرة أستشعر معك أحاسيس لم أجربها من قبل..

ربما تكافئني على اهتمامي بنفسي لأجلك، ربما كنتَ مشتاقا إليّ بالفعل، وربما ستعود "وليدي" العاشق الصغير..



هذه المرة لم تتركني.. بل وضعت رأسي على صدرك وأنت تتمتم بكلمات لا أفهمها، لكنك بدوت راضيًا سعيدًا، وقبل أن أقول شيئا سمعت بكاء صغيرتي.. سألتني باهتمام:

- هل مربيتها معها؟

أجبتك بالنفي لتأمرني:

- إذًا اذهبي إليها..

بالفعل تركتك أنا هذا المرة وتوجهت نحو غرفتها.. عندما أمسكت بمقبض بابك ناديتني لتسأل بلهفة حاولتَ إخفاءها لكنني لمستها ورأيتها جيدًا:

- هل ستعودين؟

نبض قلبي بعنف.. التفت أنظر إليك، وبادلتك بسؤالك سؤالًا آخر وابتسامة أمل ترتسم على شفتي:

- أتريدني أن أعود؟

لمحت ابتسامة خبيثة على شفتيك وأنت تجيبني:



- نعم..

رباه كم أسعدتني ابتسامتك، ولهفتك، ورغبتك في عودتي!..

كنت أود الاقتراب منك وضمك بشدة لكنني شعرت بالخجل، والخوف أيضًا.. فاحتفظت بابتسامتي وأنا أجيبك:

- حسنًا.. سأعود..

رأيتك تتنهد بخفوت في ارتياح وأنت تستند بظهرك على وسادة خلفك وتشبك ذراعيك أسفل رأسك مغمضًا عينيك في سكون وسلام..

ذهبت لغرفة صغيرتنا.. ضممتها لصدري بحنو، وأنا أطبع على وجهها وكفيها الصغيرتين قبلات متتابعة شاكرة على لحظات كانت هي سببًا فيها..

ربما لأنني متأكدة وبشدة أنها لن تدوم.. بل لن تتكرر..

***

طرقات خافتة على باب غرفتي نبهتني بقدوم أحدهم..

كنت أعلم أنك ستأتين ولكنني كنت غاضبًا، منك ومن نفسي..

لقد تغيرتْ لهجتي معك لثوان وعبرتُ عن اشتياقي!..



تلك الساعة جلست أفكر كيف حدث ذلك؟..

هل بالفعل افتقدتك لهذه الدرجة؟..

مجرد لمسة صغيرة من أصابعك وعطر ناعم تخلل أنفي يتركاني بهذا الشكل!..

كأنني غبت عن الوعي لدقيقة حلقت فيها معك، بعدها سحبتني أنت لأرض الواقع بعنف وبرود.. أنا السبب أعلم، لا يمكنني لومك فقد اعتدتِ جرحي وقسوتي، من الطبيعي أن تقلقك لمحة عشق قديم تظهر فجأة على السطح، أو فلنقل تخيفك!..

خرج صوتي آمرًا عندما سمحت لك بالدخول.. لم أكن أريد ذلك لكنها أصبحت عادة، ومع دخولك وإغلاقك للباب خلفك اقتحمني عطرك القوي هذه المرة..

هذا ليس العطر السابق أبدًا..

ذاك عطر أنثى متوهجة لا طفلتي الصغيرة..

اعتدلت هامسًا باسمك لتصلني نغمات لطيفة بنعم من أحبالك الصوتية، أهذه أنت حقًا؟..



كدت أقفز إليك لكنني تماسكت قدر استطاعتي واقتربت منك..

واقفة خلف الباب ونبضات قلبك المتوترة تكاد تصلني، سعادة غريبة هبطت عليّ من السماء فجأة.. منحة ربانية بقلب نابض عاشق، عودة لذكرى اعتقدت أني محوتها فإذا بها تقتحمني محطمة قيودًا كبلتُ بها قلبي منذ أمد طويل..

سكون اعترافي لأعلم أن العطر لأجلي.. والحرير لأجلي.. بل وطلاء شفاه مشمشي النكهة لي أنا!..

هذه أول مرة تفعلينها "شهد"..

ربما لم أعطك فرصة من قبل فوقتما أردتك أتيت إليك ونِلت مآربي منك ثم انطلقت، لكن هذه المرة كنا كزوجين حقيقيين..

وعلى الرغم من أنني لن أراكِ مهما فعلتِ فقد أسلمت ابنتنا للنوم و تزينت كأي امرأة لأجل زوجها وأتيتني..

كل شيء كان مختلفًا، مميزًا، متفردًا، ورائعًا..

أنا.. أنت.. ما حدث بيننا..



لم أتحدث كعادتي على الرغم من همسات العشق التي كان قلبي يتلوها على قلبك لكنني تركته هذه المرة يقود الطريق إليك..

خدرتُ عقلي قليلا وحلقت معك في سماء الهوى..

كنت أريد نطقها ولو لمرة..

أحبك، بل أعشقك "شهد"..

لكن لساني كان مشلولًا، وحروفي منسية خلف قضبان سجن بنيته أنا..

عندما ضممتك لصدري كنت رجلًا آخر، قهره قلبه هذه المرة وتمكن منه، وأنا راض بذلك ولو ليوم واحد..

تمتمات بعشق تفلتت من بين شفتيّ لم تكن واضحة لكن يكفي أنني أعلم ما تفوهت به..

بكاء صغيرتي التي كانت سببًا في ذلك اللين الذي أصابني أخرجني من حالة العشق التي تلبستني.. قبل ذهابك إليها رغبتُ في عودتك، أعطيتني وعدًا أنك ستعودين، وصل لأذني سعادة في صوتك أنستني نفسي للحظات..

بقيت في انتظارك ودفء الغرام يحتويني برقة، وشغف بذكرى دقائق مضت وأخرى قادمة يغزوني..

في الصباح الباكر استيقظت لأجدك نائمة بين ذراعي..

هادئة، ناعمة، رقيقة..

انقبض قلبي فجأة.. تمنيت لو أمكنني رؤيتك الآن، تخيلت شكلك وشعرك الطويل يعانق وسادتي، عينيك العسليتين مغلقتين في هدوء، حلم جميل يرسم نفسه على ملامحك..

تملك مني شيطان غضبي ثانية.. هذا خطأ، ما حدث كان خطأً كبيرًا..

أنا فقدت كل شيء بسبب والدك، حرمت من رؤياك، من التمتع ببراءة ملامح طفلتي، من التطلع لابتسامتها وأولى خطواتها وتاج الكستناء على رأسها..

نسيت دماء والدي حتى وإن تغاضيت عن حادثتي أنا لأجل ليلة حب!..

لا.. طويلة صرخ بها عقلي فنفضتْ قلبي ذعرًا..

قمت من جوارك بسرعة وبعدها بنصف ساعة كنت في الشركة أكاد أصدم رأسي بمكتبي غاضبًا حانقًا، كيف سولت لي نفسي؟..

كيف نسيت؟.. بل كيف استسلمت لأنثى هي أنت؟..



طوال ذلك النهار كنت أصيح بغضب في الكل، أصرخ وأعاند وأكاد أسبهم جميعًا..

جاءني "رمزي" فجأة محاولًا تهدئتي وهو يحمل نبأً جديدًا بقدر ما أسعدني فقد أرعبني..

طبيب آخر وأمل جديد..

تناسيت أمرك.. تجاهلت الضعف الذي مر بي، عدت كما كنت بل وأقسى..

وفي ذلك اليوم محوت الليلة السابقة من ذاكرتك باقتدار..

لأنام ملء جفني وأنا أعلم جيدًا أن دموعك عادت تبلل وجنتيك مجددًا وتستقر بمرارة الوجع عند شفتيك الصغيرتين..

حتى "غفران" الحبيبة أجبرت نفسي أن أبتعد عنها حتى لا تتسبب في ضعفي ثانية، ها أنا مارد انتقام غاضب من جديد..

بعد إلحاح من صديقي ووالدتي.. بعد صمتك وتجاهلك، قررت خوض تجربة العلاج مرة أخرى..

وكالتي سبقتها، كان الفشل ذريعًا وكما ذهبت عدت..



وحشًا استنفر كل قواه، بركانًا صب حممه، في وجه صغيرة ظنت نفسها عاشقة في وقت ما..

لكنها أخطأت!..

فقد عشقت جلادًا يحمل سيفًا يقطع به عنقها في كل يوم، وهي فقط تنزف في صمت..

***

كما توقعت تمامًا..

لا جديد تحت الشمس كما يقولون..

تلك كانت ليلة واحدة تغيرت فيها لتعود وحشي الشرس في اليوم التالي، وكأنك اكتشفت مدى خطأك وعدت تصلحه، بإتقان وتفان وإخلاص..

في ثاني يوم بعد ليلة حالمة وعالم أحلام أغلقت عيني لأغوص فيه ودفء ذراعيك يغريني بنوم آمن مطمئن استيقظت لأجدني وحيدة..

لم أفكر في الأمر كثيرًا فهذا ما كان ينبغي أن يحدث.. رغمًا عني كنت أفكر بك طوال النهار..



أذكر همهماتك الحنون، لمساتك الدافئة، همسة "أحبك صغيرتي" التي اقتحمت عالم أحلامي فجأة فابتسمت..

كنت متيقنة أنك همست بها لكنني أقنعت نفسي أنها مجرد حلم!..

لأنني أعلم أن استيقاظي سيكون على كابوس..

ليلتها عرفت أنه بالفعل كان حلمًا، سأحتفظ بذكراه للأبد فهو لن يتكرر..

سافرتَ بعدها لإجراء عملية أخرى، قبلها كنت صامتة أظهر عدم اهتمامي، فربما ترفض الذهاب فقط لتعاندني.. للأسف عدتَ كما ذهبت، وبركان غضبك في حالة ثورة دائمة، وأنا مجرى مصبه الوحيد..

شهرين آخرين..

تبتعد وقتما ترغب وتقترب حينما تريد..

وفي النهاية لم يبقَ لي في الدنيا سوى أنت وطفلتي الصغيرة..

رحلت والدتك في هدوء، كأن قلبها تشبع بالحزن واكتسى بالألم، فاق الأمر احتمالها فسكن الخافق في صمت..





بكيتها كأنها أمي، فهي بالفعل أمي.. ربتني وأحبتني وساندتني ودعمتني، حملت طفلتي كأنها أنا، وأمامك كانت معي..

الآن من لي غيرك!.. من سيحميني منك؟..

قلبي ممزق ودموعي لأسبوع كامل لم تجف، شعور طاغ قاس بالوحدة والاغتراب واليتم يتملك مني من جديد..

في الليلة الثالثة على رحيلها مررت على غرفة ابنتي لأطمئن عليها قبل ذهابي للنوم، وجدتك جالسًا على الأرض بجوار فراشها الصغير.. تحملها بين يديك وتضمها بحرص إلى صدرك، ولمعة دامعة على وجنتيك..

آخر مرة لمحت دموعك كانت في فترة عقد قراننا.. والآن رحلت والدتك لتبكيها هي الأخرى..

طاف بعقلي فكرة غريبة!.. نحن الاثنان لم يعد لنا سوى بعضنا البعض، فهل ستتغير؟..

هل ستصبح مصدر أماني وأنا أمك وحبيبتك من جديد؟..



لم أعلم فاكتفيت بالصمت وتركتك تفرغ انفعالك مع ابنتك لا أنا.. اقترابي منك قد يحرقني كما اعتدت، خوفي تملك مني فآثرت الابتعاد في صمت وقلبي يتمزق لأجلك..

***

ها هي ترحل..

في صمت وسكون.. رقيقة هادئة كما هي دومًا، لا تسبب ذعرًا أو ألمًا، فقط في لحظة كانت هنا، وفي التالية أصبحت في القبر..

الآن أعلم كيف تشعرين "شهد" بعد موت والدك!..

على الرغم من كوني رجلًا كبيرًا ناضجًا إلا أنني شعرت أنني طفل يتيم..

كنت أنتظر منك مواساة، ضمة حنون، أن تمسحي بأصابعك دموعي التي سالت في خنوع..

لكنك لم تقتربي ولو لثانية..

كانت هي هناك تتلقى دموعي في صمت وأنا أضمها برفق بين ذراعي..



كنت أود اعتصارها ودفن رأسي في دفء جسدها الصغير لكنها رقيقة مثلك، قد أؤذيها وهذا ما لن أحتمله..

داعبتني ورغبت في اللعب، مدت يدها نحو وجهي لتتحسس دموعي فازداد بكائي..

رغبت في إلقاء التهم فوق رأسك، أن أترك غضبي يوجه كسكين حاد نحو صدرك.. أن ألومك، لكنني ببقايا عقل وقلب كنت أعلم أنني السبب..

لا حق لي في طلب الحنان منك أو المواساة وأنا لم أمنحهما لك في يوم.. على الأقل لم تريهما مني..

لم أحتمل البقاء فقررت السفر لعدة أيام وحدي، صحبني "رمزي" وطفله وزوجته..

تركتك وحيدة باكية حزينة وذهبت أدفن أحزاني في عمق البحر بين السكون والصمت وموج خائن تمنيت أن يبتلعني في يوم وتنتهي حياتي..



(٢٠)

ما يقرب من خمس سنوات عجاف مرت على زواجنا!..

وأنت كما أنت..

مات أبي، ولحقت به والدتك.. لكن أن يقل غضبك؛ هذا لم يحدث أبدًا!..

أعَمَاك هو السبب؟..

أم تشبثي في إكمال حياتي معك حولتك لذلك الوحش الذي هو زوجي؟..

لا أعلم.. فقط هو بركان عاصف أعيش في كنفه، أحترق بحممه كل يوم، يحبسني خلف قضبان تبدو للناظر كأنها ألحان عشق وردية، لكن لي أنا مجرد آلام متجددة مستمرة ومبتكرة صممتها خصيصًا لأجلي أنا..

لم تتغير البتة خلالها بل ربما ازدادت قسوتك ونما تجبرك..

طاغيًا جائرًا تتحكم في كل ما يخصني ويخص حياتي معك..

خلالها انقطعت عن خالتي الوحيدة، علمت أنها سافرت لأكثر من سنتين مع ابنتها التي أنجبت ثلاث توائم دفعة واحدة.. بقيت معها في غربتها وابنها هنا في رعاية زوجته مع طفله..

بالطبع لم أكن لأتصل به فأنا أعرف كم تغار منه!.. حتى وإن لم يعد العشق يسكنك فتملكي لايزال يحركك..

صديقتاي الوحيدتين، بعد زيارات قليلة ومقابلات منك مخزية باردة نأيت بنفسي.. أصبحت معك وحدي، لا أسرة لي سواك ولا أصدقاء..

حياتك تغيرت بشدة، حتى طفلتنا أصبحتَ تقضي معها وقتًا أقل، تسافر كثيرًا وأحيانًا تبيت خارج البيت لا أعلم أين!..

وما حطم قلبي ما فعلته بالمنزل بعد عودتك من سفرك عقب وفاة والدتك بأقل من شهر..

كإعصار أعمى هائج كنت تطيح بكل شيء، كل ما يخص ذكرياتي مع أبي اختفى فجأة من المنزل، أرجوحتي وركني المفضل الذي قضينا فيه أول وآخر حفل عشاء بيننا كحبيبين دمرته وشوهت ملامحه..

كأنك تمحو كل ما بقي لي من ذكريات حلوة متعلقة بك أو بأبي..



تتركني أعيش حاضرًا لا ماضي له..

حاضر قاس، متجمد كقلبك القطبي..

نقطة النور الوحيدة كانت صغيرتي "غفران".. أصبحت شقية تجري هنا وهناك، تنطق كلمات متفرقة أولها "بابا"!..

يا لها من خائنة!..

يومها ما حدث لملامح وجهك لا يمكن نسيانه، فقط حُفِرت بداخلي وكلما قسوت استدعيتها من بين ثنايا ذاكرتي لتطمئنني إليك مرة أخرى..

ابتسامة شعت سعادة غير عادية، فتحت ذراعيك لها وهي في ثوان كانت بينهما.. ضحكة من القلب نقية حبيبة لأذني خرجت من بين شفتيك، والغالية تتعلق بعنقك في فرح..

لا تعلم أنني أراقبك لذلك كنت بطبيعتك.. أبًا رائعًا، فوضويًا، ضاحكًا.. تحملها لأعلى وتلاعبها كما كنت تفعل معي في طفولتي..

عندما تغيب عنها تعود لتجهمك المعتاد ولهجتك الباردة وكلماتك الجافة، حفلاتك الساهرة ازدادت وما آلمني أكثر أنك نقلتها لمنزلنا!..

لوثته بها..





أصدقاؤك من رجال ونساء، صخب وسهر ورقص، أراقبك دومًا من بعيد كأنك في عالم آخر.. أصبحت أفهمك كثيرًا زوجي العزيز، كل ما تفعله ليس لأجل متعتك ورغبتك، بل لأجل إحراقي أكثر..

لتثير ضيقي وتقهر قلبي كما اعتدت..

أصابني بعض التبلد معك، جف قلبي وشارف معون حبي على النضوب، ستفقدني عما قريب "وليد" فأرجوك لا تتمادَ..

ازداد الحمل وفاض الكيل بي أما قلبي فلم يعد يحتمل..

***

ها هي ذكرى ميلادك السادسة والعشرين تقترب..

خمس سنوات تقريبا وأنت زوجتي.. دومًا بالقرب مني، طفلتي تخطت عامها الثالث..

أصبحت تجري وتناديني بأبي..

لم نحظَ بأطفال غيرها ولا أعلم ما السبب!..



مازال الظلام يحيط بي ورداء الديجور يتلبسني قسرًا، بعض الخمول أصابني، ابتعدت كثيرًا..

سافرت أكثر، تغابيت معك بشدة ومنعتك كل متنفس..

لا أقارب، لا صديقات، لا آخرين سواي أنا..

صبرك كطود لا ينهار، وغضبي أصابه بعض البرود!.. اكتسب معك منحىً جديدًا، هو للسخرية ولإثارة ضيقك أقرب.. كأنني زوج أبله يغيظ زوجته الغير مهتمة..

حنق يصيبني، غيظ ينال مني، لكنني أعود في كل مرة بفكرة جديدة تغضبك وتسبب لك الحزن..

وهذه المرة كانت ذكرى ميلادك..

قررت أن يكون يومًا حافلًا، قبلها أعددت لحفل من حفلاتي التي لا تطيقينها، أيضًا أعددت لك هدية مفاجئة أعلم جيدًا أنها ستغضبك بشدة..





أتى يوم الحفل، يومها تركتهم يمرحون كما يريدون، فهي حفلاتي الصاخبة التي تكرهينها للغاية.. تصاحب ألمك وتمنع عنك الهواء، تحبسين نفسك في غرفتك وألهو أنا حتى الفجر..

بين أصدقائي وصديقاتي.. نعم صديقاتي!..

تحولات قاسية رافقت رحلة ظلامي "شهد".. تقلبات قتلت أشياءً لتنبت مكانها قساوة سامة غيرت مجريات أموري وحولتها للنقيض..

لم أكن أقيم تلك الحفلات لأستمتع بها، فلم أفعل حقيقة.. فقط أقيمها كي أضايقك، وأحضرها بعيدًا عنك لمزيد من الضيق في قلبك..

أعلم أنك تكرهينها وتكرهين ما يحدث فيها، تبغضين الاختلاط الفاضح والرقص، تمقتين تحركات الأصدقاء بل ووجودهم نفسه في مملكتك الصغيرة.. لكن لم يكن بيدك حيلة أبدًا صغيرتي..

فقط كنت أسمع دعواتك في صلاتك بهدايتي وصلاحي، ودومًا شيطاني الغاضب الأعمى كان يسد أذاني عنها.. يغلق قلبي دونها..



حتى صديقي الصدوق الناصح "رمزي"، لم أكن أستمع إليه أبدًا وكان هو يعزف عن الحضور، فلم يكن ذلك اللهو ليغريه.. يكتفي بنصحي وفي بعض الأحيان نهري ثم يبتعد بعدها في صمت داعيًا لي هو الآخر..

وعلى العكس كانت تحضرها دومًا مساعدتي الحسناء "ضحى"!..

أنت تكرهينها بشدة وتغارين منها أعلم، كثيرًا ما كنت تطلبين مني صرفها وكنت سأفعل لكن بعدما حدث، أصبحت ورقة رابحة في انتقامي الذي ألعبه معك، ورقة أس تنتصر عليك على الدوام..

وهي لم تكن لتهتم أو تمانع..

في ذلك الحفل جلست وحدي شاردًا بعيدًا عن ضوضاء أصدقائي الغوغائيين، كنت أشعر بنوع من الاختناق.. جاءت هي فجأة لتجلس إلى جواري، عطرها الأنثوي النفاذ اقتحم حاسة الشم لدي اقتحامًا، هي أبدًا جريئة لا تقبل إلا بالظهور الصاخب اللافت.. وجدتها تمسك بكفي بنعومة هامسة:

- تبدو حزينًا وليد.. زوجتك تراقبك بألم..



لم أحرك يدي، فقط انتبهت لما قالته.. كنت تراقبينني صغيرتي؟.. والحزن يملأك؟.. سألتها وأنا أقترب منها:

- أحقا تراقبني؟

شعرت بها تبتسم وهي تجيب:

- نعم.. وبعد نظرة الألم.. الآن نظرة غضب، تكاد تتعلق بعنقي وليد وتنتزعها عن جسدي..

ضحكت بخفوت ساخر، ثم اقتربت منها أكثروأنا أقول في مكر:

- فلنعطها شيئًا جيدًا لتراقبه إذًا..

سألتني بسرعة:

- ماذا تعني؟

لم أجبها..

فقط مددت كفي أتحسس به شعرها المنساب على كتفيها وأنا أجذبها إليّ، ثم أقدمت على ما كنت أعلم أنك لن تحتملي مشاهدته ولو حتى لثانية واحدة..





بعد ثوان ابتعدت عنها بمقدار ملليمترات لأتركها لاهثة مبهوتة وسألتُ بلؤم:

- هل مازالت تستمتع بالعرض؟

انتفضتْ فجأة وسحبت كفها، لتهتف فيّ بشيء من الدهشة:

- ماذا؟.. أكنت تفعل ذلك لتغيظها؟

كانت منفعلة.. كدت أطلق ضحكة وبالفعل تسللت ابتسامة ساخرة لشفتي وأنا أجيبها بصراحة وقحة امتزجت ببعض القسوة:

- وهل تظنينني أفعله لأمر آخر؟

شعرت بها غاضبة..

كنت أود رؤية ملامحها على هذا الوضع، أعتقد كانت لتبدو كلبؤة اختطف أحدهم منها صغارها، سمعت صوتها الساخر بعدها:

- حسنًا.. لقد فزت وليد، أغضبتها للغاية..

ارتسمت ابتسامتي بوضوح على شفتي وقلت:

- رائع.. أنت تصلحين لكل المهام المستعصية ضحى..



ولم تغضب الفتاة.. فقط قالت بشيء من الحزن لم أفهمه:

- لمَ تفعل ذلك بها وليد؟.. أنت تعلم أنها تحبك، وأنت تعشقها.. وأيضًا تعلم أنه يمكنني أن أكون طعمًا في مصيدتك لقهرها.. لكنها صغيرة ورقيقة، بالفعل شعرت بالشفقة لأجلها.. أنت قاس وليد..

لم أهتم بما قالت، فقط تحسستُ طريقي لكفها فأمسكتها لأطبع عليها قبلة دافئة وأنا أهمس لها:

- أنت لست طعمًا ضحى.. أنت حورية نارية لا تقللي من شأنك، ولا تهتمي لأمرها..

كلماتي المنمقة أسعدتها فتناست أمرك سريعًا وعادت لمرح الحفل وهرجه منتشية بمجاملة كاذبة وإطراء لم يتخطَ لساني عند نطقه..

***

للألم منك "وليد" نكهة خاصة.. تحمل مرارًا لا يحتاج لتذوق، يكفيك أن تستنشقه من بعيد، ليذبح قلبك بسلاح بارد لا تعرف حتى اسمه.. فقط لتنزف ببطء وتحتضر بعد عناء سنين..

كأنني بعدما رأيت فِعلتك مع مساعدتك الحسناء!..



أصبحت عجوزًا في جسد صغير.. أوشك قلبي على مخاصمة نبضه ومعانقة الكفن..

أنت تنتشي بآلامي ووجعي وتزيد فيهما كيفما ترغب..

أتعمدت ذلك أم فعلته لرغبة؟.. أكنت تعلم أنني أراقبك؟..

رأيتها تهمس لك قبل أن تقدم على جريمتك، أكنت تريد قهري أكثر!.. ذبحي حتى النهاية!.. تبغي نزف الفؤاد وذاك البريء الذي احتواك يومًا!..

ولمذلة أكبر لايزال يحتويك..

ربما هو غبائي، ربما هو ضعفك وألمك، لكن وصل الأنين بي حد الاكتفاء، كفاك "وليد"..

حقًا كفاك..

***

مر الحفل بسلام.. وحان وقت الهدية، لكنها صغيرتي لم تكن لك!..

هدية قيمة غالية، مغلفة بعناية، معها بطاقة موسومة بكلمات العشق، لا اسم هنالك، فقط الإهداء..



أخبرتك أنني أحتاج لملف هام من مكتبي، وأمرتك بالبحث عنه، وهي كانت هناك واضحة والبطاقة بالحروف فوقها أكثر وضوحًا.. دخلتِ للمكتب، تأخرتِ قليلًا فتأكد لي أنك رأيتها وقرأت ما بها..

ها قد أصابك السهم وظننتِ أنها لك!..

عدت إلي بالملف فتناولته منك بلا اكتراث ثم ألقيته إلى جواري، بعدها بما يقرب من ساعة كنت أصيح غاضبًا وأنا أصرخ في جميع من في المنزل متسائلًا عن الهدية التي تركتها على مكتبي ثم اختفت..

أسقطتها عامدًا أسفل المكتب ودفعتها بقدمي لأبعد زاوية، والجميع يهرول باحثًا لكنني اخترتك أنت.. صرخت باسمك آمرًا:

- شهد.. أنت من دخلتِ المكتب آخر مرة، كانت هناك.. أين ذهبت؟

شعرت بك متوترة لكنني لم أهتم، وصلني جوابك الخافت المرتبك:

- لا أعلم وليد.. أنا لم ألمس مكتبك أو ألمسها، سنبحث عنها لا تقلق..

عدتُ آمرك:

- ابحثي بنفسك.. تأكدي من كل مكان حتى أسفل المكتب..



سمعت تحركاتك الصامتة من حولي لأعلم أنك تبحثين بجِد، فجأة هتفتِ بانتصار فرحٍ:

- ها هي.. وجدتها وليد..

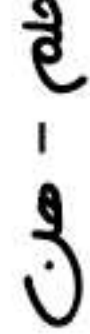
توجهت نحوك متلهفًا بشدة وتلمست طريقي إلى كفيك لألتقطها بحرص، وفي نفس اللحظة أختار أحد أرقام الاتصال السريع من هاتفي متظاهرًا بطلب رقم ما لا تعلمين صاحبه..

تعمدت أن أتحرك من أمامك بطريقة مريبة مثيرًا الشك في نفسك، آملًا أن تتبعيني لتعلمي من أخاطب.. وخرجت الكلمات مني لهاتفي الأصم بنبرة عاشقة، متدلهة، كأنني أخاطب مليكتي:

- مرحبا حبيبتي... افتقدتك بشدة... لا تقلقي أعلم أنني أغضبتك لكنني أعلم كيف أراضيكِ تماما!..

تحولت نبراتي لتكتسب خبثًا لا يصدر إلا من رجل لامرأته وأنا أكمل بعد ضحكة ماكرة:

- بالضبط... أنت تفهمينني أكثر من أي شخص، لا تغضبي مني وعندما نتقابل سأصالحك بطريقتي ولن أتركك حتى أنال... أنت تعرفين ... حسنا



أتيتك بهدية ستعجبك.. على ذوقي الذي اختارك، فقط لتتأكدي من قيمتها... حسنًا أراك بعد قليل..

كنت أسمع خطواتك وأنفاسك المضطربة أثناء لحظات صمتي.. ما أغاظني أنني لم أسمع نحيبًا أو صوت بكاء..

لم أعد أهتم به كثيرًا فقط يكفيني أن أكسر قلبك لتعلمي أنك لم تعودي الوحيدة، ربما كنت الأولى!..

لكنك لست الأخيرة..

***

انتهى الحفل بصخبه، وقل مخزون صبري عليك بعضًا منه..

ماذا تبغي أكثر زوجي القاسي!..

خيانات، نساء أخريات، علاقات لم تهتم بسترها بل تفعلها أمام عيني، إلى متى سيستمر هذا الأمر؟.. لقد اكتفيت..

وصغيرتي التي تشد من أزري لم تعد كافية لأتحملك أكثر.. أنت تظلم وبشدة، باستمرار، لا تتوقف، لا تبالي، بارد، جامد، تغيب متى ما أردت وتعود متى شئت..

هل لا يزال عماك حاجزًا بيني وبينك..؟ هل لو تعافيت وعدت كما كنت ستعود "وليد" الفارس الذي عشقته؟.. أم سيستمر طغيانك أبدًا؟..

لم أمني نفسي كثيرًا.. دومًا ما أحاول التماسك ولو حتى أمامك، انهياري بيني وبين نفسي أقل مهانة، لن يشبع غضبك وهذا يسعدني.. على الرغم من حدوثه قسرًا رغم إرادتي، فلم أمتلك ذلك القلب القاسي بعد.. لكني يكفيني غضبك أنت واستياؤك عندما لا تجد مني رد فعل يوافق توقعاتك..

أحيانًا تتسلل ابتسامة شقية لشفتي عندما أراك حانقا مغتاظا بسببي، وأنا فقط وأنت نعلم أنه بسببي على الرغم من أنك تصب جام غضبك على الكل، حتى جدران المنزل ستشتكي قريبًا..

أحيانٌ أخرى كنت أعود تلك الطفلة المشاغبة التي تغيظك، وتغضبك، وتشعل نيرانك..

وهنا فقط أبتسم وبصدق، لكن منذ متى تستسلم يا وحشي الصغير؟..

أقمت حفلًا ساهرًا، وأمام عيني ملكت أخرى من شيء يخصني ويعلم الله من غيرها تملكته!.. وفي اليوم التالي وعندما ظننت أن انفراجة ستشق



جدار حياتنا البائسة، بكل همة ونشاط سددتها لأعلم أنني أعيش في عالم الخيال..

دخلت مكتبك تبعًا لأمرك، مترددة، حائرة، حاولت البحث بسرعة عن الملف المطلوب لتقع عيناي على الهدية الصغيرة الأنيقة والبطاقة فوقها..

لم أحاول لمسها، كذلك لم أستطع مقاومة فضولي، انحنيت ببطء أقرأ الكلمات على البطاقة.. كلمات عاشق يحاول استرضاء معشوقته:

- أعلم أنني أغضبتك كثيرًا، لكن اعذريني فقلبي غضب مني أكثر.. وها أنا أطمع في قلبك من جديد، فقط لو أذنتِ لي ومنحتني فرصة أخرى لأعوضك عما حدث.. أحبك..

الكلمات مبهمة، غريبة، بسيطة لكنها مست قلبي، يا ترى أهي لي؟..

ولمن تكون إن لم تكن لي؟..

أنا من أغضبتها لسنوات، من أحزنتها وأبكيتها وتستحق التعويض، من يفترض أن تطمع في قلبها بعد ما كدت تخسره!..

أتبحث عن فرصة "وليد"؟..

رغمًا عني ابتسمت..

"أحبك" منذ متى لم أسمعها منك؟..

انتبهت لحالي فقد تأخرت عليك، عدت إليك بأوراقك لتتناولها مني دونما اهتمام، بعد ساعة ارتفع صياحك الغاضب لأعلم أن هديتك الصغيرة اختفت!..

غضب وصراخ وحنق، في النهاية أمرتني بالبحث بنفسي، وجدتها لك لتلتقطها بلهفة أب يحمل طفله الوليد خارجًا من الغرفة بحرص مجريًا محادثة هاتفية..

تتبعتك رغمًا عني لأجد كلماتك العاشقة تبثها أنثى غيري!..

أنا التي لم أنلها منك بعد زواجنا ولو لمرة، ارتوت بها أذنا أخرى حتى الثمالة..

طعنة أخرى تسددها لقلبي بلا مبالاة.. لم أبكِ، دموعي جفت منذ زمن، وأنت لم تعد تستحق واحدة منها.. حتى قلبي الغبي الذي لايزال على العهد باقيًا لم يعد يستحق..

أنت خائن وهو أيضًا..



هو خانني معك، ملكك من نفسه دون إرادتي، وعلى الرغم من محاولاتي المستميتة لاستعادته مازال ينبض باسمك.. سبابه والغضب منه لم يعد يجدي، الصبر والصمت لا فائدة ترجى منهما، أي حيلة جديدة قد ألجأ إليها في حالتك هذه؟..

هل ألاعبك بطريقتك؟.. أثير غيرتك؟.. أشعرك بنقصك؟.. أكرهك؟.. وهل يمكنني ذلك فعلًا؟..

تجاهلت أمرك وكل ما فعلت كعادتي مؤخرًا، لتغضب أنت من جديد، وأنال عقابك، وبعد ما امتنعت عني لفترة طويلة جفت فيها مشاعري نحوك، عدت تذكرني بقسوة تركت أثرها ليس على روحي وقلبي فقط، بل على جسدي أيضًا..

ظلت الكدمات تؤلمني لأيام عدة عندما تلقيت منك خبرًا جديدًا..

بميلاد أمل آخر..



(٢١)

آخر مرة حاولت العلاج كانت والدتك على قيد الحياة..

"غفران" وقتها كان عمرها ستة أشهر فقط، والنتيجة تساوت مع الصفر في العلاج وتضاعفت كثيرًا في الغضب الحي بداخلك..

هذه المرة عاد الأمل وبقوة..

طبيب جديد شهير بالولايات المتحدة الأمريكية عالج الكثير من الحالات التي تسبب في عماها حوادث مشابهة لحادثتك.. أقنعك "رمزي" بالسفر ولأول مرة منذ زمن تحدثت معك أنا أيضًا محاولة بث الحياة بداخلك..

رفضت وغضبت وعاندت، استهزأت وسخرت وتناسيت، في النهاية استجبت لنا وأخذت قرار السفر والمحاولة من جديد..

لم أدرِ ما الذي دفعك لتغيير رأيك لكنني سعدت بذلك وتمنيت أن تنجح هذه المرة..



لو عدتَ "وليد" القديم سيتغير الكثير بيننا، فأنا أيضا سأعود "شهد" الطفلة التي كانت تثير جنونك وغضبك، تشعل فتيل حنقك وغيظك..

انتظرت طويلًا لأصل لهذه اللحظة ودعوت الله أن يتمم شفاءك ومن ضمن أسبابي أنني اكتفيت حقًا..

لم تعد بي طاقة لتحمل قسوتك وتجبرك، ولم تعد بي رغبة في أن تكون أنت كل ما لي في هذا الكون..

أصررت هذه المرة على السفر معك، وفي مقابل إصراري كان عنادك ورفضك القاطع..

كالعادة وحتى آخر لحظة تسبب لي الألم..

رغبتي لا سبب لها سوى قلبي الغبي الذي أراد مساندتك والتواجد حولك في لحظات ضعفك، لربما تتغير في يوم وتعود لسابق عهدك، لكنك بالطبع لم تتح له أولي الفرصة..

كعادتك ولا شيء يثير الدهشة..

استسلمت للأمر الواقع حتى سافرت، كان القلق يأكلني ببطء وأنا أفكر بك وبحالك، بعد سفرك بأقل من أسبوعين علمت أنني وللمرة الثانية ودون سابق تخطيط أو حتى رغبة..

أحمل طفلك بداخلي!..

وكأن كل أطفالك دومًا نتاج ليال قاسية تملكك فيها الجنون ووحش الغضب!..

أصابني الحزن وانتابني الرعب، من سيحميني هذه المرة منك؟.. أم ربما ستتقبل الأمر ببساطة لأنك تعشق طفلتك؟..

حيرة وقلق، خوف وشعور بالعجز والشلل حتى أتاني اتصالها..

خالتي العزيزة، فجأة وجدت صدرًا حنونا أرتمي بداخله، يشعرني بالأمان، يبث حولي دفئًا أفتقده.. اطمئنانًا ضاع مني في غمرة سنوات بغيك، ولأنك لم ولن تهتم أو تسأل، فقد توجهت إليها من فوري..

لا لم أبكِ على صدرها أشكوك، فقط كنت أبحث عن بعض سلام بين ذراعيها، قليل من طمأنينة لا مصدر لها، كأنني في مأمن بعيدٍ عنك..



هناك عرفت أخبارهم جميعًا.. عن ابنتها وصغارها الثلاث، قابلت غريمك "كريم" وزوجته الرقيقة "هبة" وابنه اللطيف "إياد"..

أخبرتهم بحملي وتعرفوا على طفلتي، حتى زوجته نصحتني بطبيبتها الخاصة ورافقتني إليها، زرتها مرتين فقط أثناء سفرك وفي كل مرة كنت أترك "غفران" في رعاية خالتي وابنها تلعب بمرح مع حفيدها الذي يكبرها بأكثر من سنتين..

بعض سعادة لمعت في الظلمة الحالكة التي أحياها معك، ترفقت بقلبي وإن كانت حتى لساعات معدودة قليلة..

عندما يلاطف ابن خالتي زوجته التي يحبها أو يغازلها أمامنا كان الحزن ينغز قلبي بقسوة..

لم أكن أغار، فقط أفتقد شيئا أعلم جيدًا أنك تملكه لكنك تبخل به علي..

ظللت في انتظارك على أمل في شفاءك، لأن الكثير من الأمور ستتغير "وليد".. لدي من يساندني، طفلتي، جنيني، خالتي..



"شهد" القديمة ستعود وبقوة، لتذيقك بعضا من كأسك المر.. فعد كاملًا من فضلك..

لقد حان دورك لتلقي العقاب..

***

أمل جديد لاح في الأفق..

فقدته منذ فترة واستكنت لواقعي البهيم كليل بلا قمر، لكنه عاد يتردد مقتحمًا خلوتي مع أحزاني وقتامة انتقامي وغضبي المكفهر دومًا..

رفضت وعاندت، غضبت وصرخت، ولرغبة وبقايا طامحة في عودة ما ضاع استسلمت.. تتبعت خيط الأمل وسافرت..

رفضت حضورك معي رفضًا قاطعًا على الرغم من إصرارك، حضرت ما يلزمني وودعت طفلتي وعلى أول طائرة محلقة لأرض الحلم كان مقعدي.. معي فقط صديقي الوفي "رمزي"، بين السحب على جناحين من المعدن ومحركات صلبة دعوت الله أن يرحمني هذه المرة لأنني اكتفيت من الدُجْنة التي أحياها كل لحظة..



شعرت بنوع من الخجل من نفسي، كيف أدعوه رغم ما أفعله معك؟..
هل سيستجيب لي؟.. هل أستحق؟..

ويتمرد شيطاني مرة أخرى متهمًا إياك.. أنني على حق، أنت يجدر بك العقاب، تستأهلين غضبًا أبديًا جراء جرائم والدك التي ربما شاركتِه فيها..

حماقات وترهات، شد وجذب، حتى وأنا أطير في السماء، تمنيت الشفاء لأراكِ..

تساءلت: هل لو عدت، وبصري عاد معي، ورأيتك، ابتسامتك، براءتك، ملامحك الطفولية الناعمة، طفلتنا، ضحكتها؟..

هل سيؤثر ذلك بي وأعود ذلك العاشق الذي دفنته يومًا في مقبرة سخطي وحقدي!.. في غياهب دجى عماي، ليس فقط بصري، بل أيضا بصيرتي؟..

تساؤلات شغلتني ولم أجد لها جوابا إلا الدعاء..

علَّ قلبي يستكين ولو لنزر يسير من الوقت، بعض شفاء أطمح به لصدري لا عيناي فقط..

هدوء ضئيل يتسلل لنفسي التعبة المرهقة وروحي المنهكة التائهة..

***

عند الانتظار تتصارع بداخلك الأفكار ويشلك القلق..

ينبض قلبك بعنف والتوتر يغزوك..

لقد سافرت منذ حوالي شهر "وليد"، رفضت حضوري معك، أبيت أن أرافقك، وامتنعت حتى عن مهاتفتي..

قلقي وصل لأوجه لكن عقلي الذي بدأ يعلن تمرده ألجمه ومنعه، لم أكن أعلم متى ستعود؟.. وهل نجحت عمليتك هذه المرة أم كسابقتها، ستفشل وتصب جام غضبك فوق رأسي كعادتك!..

في اليوم الحادي والثلاثين على سفرك اصطحبتُ صغيرتنا "غفران" ومربيتها وجلسنا في حديقة منزلنا.. تركت طفلتي تلاعب المرأة في مرح وأنا جلست على أرجوحتي الجديدة التي ابتعتها بعدما دمرتَ السابقة..

كنت أتطلع إليهما بابتسامة حالمة تعلو شفتي، وأفكاري تحلق إليك، أغمضت عيني واستندت برأسي على مسند الأرجوحة الخلفي وعدت بذاكرتي إلى الوراء..



لسنوات الطفولة والمراهقة الشقية، لفترة عقد قراننا ورومانسيتك وعشقك الذي دومًا ما أحطتني به.. شريط الذكريات يمر في مخيلتي بلا توقف لأبتسم تارة، وأضحك تارة أخرى..

تخلل صوتك الساخر فجأة أحلامي هامسًا بشقاوة:

- خذي قرشًا مقابل كل فكرة تضحكك وأخبريني عنها..

جفناي افترقا بسرعة الضوء بالفعل..

لأجدك واقفا أمامي بكامل أناقتك ووسامتك المعتادة، على شفتيك ابتسامة ماكرة، وصورتي هناك في عينيك السوداوين!..

أنت تنظر إليّ "وليد" وبعينين لامعتين لئيمتين!..

لم أصدق نفسي، أنت بالفعل تراني!..

طال صمتي لتمد يدك وتجذبني محيطًا خصري بذراعيك هامسًا في أذني:

- أين ترحيبك زوجتي العزيزة؟

بالفعل فقدت القدرة على النطق، انتزعت نفسي بعيدًا عنك لتنظر إلي بسخرية ممتزجة ببعض الدهشة..



حركت لساني بصعوبة لأنطق بضع كلمات لا داعي لها، مجرد سؤال أبله إن دل على شيء، فإنه يدل على صدمتي وذهولي فقط:

- هل تراني؟

وانطلقت ضحكتك الساخرة عالية مجلجلة، بعدها قلت:

- ما هي الإجابة المتوقعة صغيرتي؟

كانت عيناي تجوبان وجهك.. أنفك الشامخ، شفتيك المنفرجتين بسخرية، فكك العريض المضموم بشدة مع نظيره.. بدوت غاضبًا للحظة لكنني استقريت هناك، بين أهدابك السوداء الطويلة.. لمعة عينيك ساخرة قاسية!..

حسنًا "وليد" وقت الحب والشفقة والعطف قد انتهى..

لقد عدت كما كنت، العاشق القوي والرجل الكامل، فلنرَ كيف ستكون الأمور!..

سأنفذ خطتي التي اتخذت القرار الخاص بها منذ هذه اللحظة، علت شفتاي ابتسامة تشبه ابتسامتك وإن تخللها بعض اللامبالاة، همست وأنا أقترب منك:





- حمدًا لله على سلامتك زوجي العزيز..

ورفعت نفسي لأطبع قبلة باردة على وجنتك المتصلبة وأنا أكمل:

- مبارك لك..

كنت أجزم أن الدهشة تملؤك ولكنني لم أهتم، عقدتَ حاجبيك في تساؤل لم تصرح به.. بل سألتني عوضًا عنه:

- أين غفران؟

أشرت خلفك في صمت، التفت لتجدها تلعب في مرح مع مربيتها، وجدتك تضم قبضتيك بشكل لم أفهمه!.. خمنت توترك، همست ببرود:

- هيا.. اذهب إليها..

عدت تلتفت إليّ وفي عينيك بقايا نظرة حنون تختصها هي بها..

محوتها في لحظة وابتسمتَ في سخرية ثانية ثم اتجهت نحوها، رأتك هي فجرت نحوك وتعلقت برقبتك..

بدأت تلاعبها في عاطفة أبوية لم أرها من قبل، وهي متعلقة بعنقك وتضحك في مرح..



على الرغم من سِني عمرها التي تخطت الثلاث بقليل لكنها تعشقك حد الجنون وعلى الرغم من غيابك لشهر كامل مازالت تحتفظ بصورتك في ذاكرتها بقوة..

بعد دقائق من مشاهدة مرحك شعرت بالاختناق!..

خطتي تعتمد على برودة أعصاب لم أمتلكها في يوم لكنني سأحاول استنباتها في قلبي وعقلي معًا..

تركتكما وتوجهت لغرفتي، كنت أشعر بالاشتياق الشديد إليك، والفرحة تغمرني بتمام شفاءك، أود التعبير عنها قفزًا في الهواء ورقصًا..

أتعلق بعنقك كطفلة صارخة بسعادة، لكنني اكتفيت من قسوتك وظلمك الذي يغرقني في كل لحظة، ولابد له أن يتوقف، حناني وحبي الذي استبحته لم يعد ملكا لك..

ينبغي أن تشقى للحصول عليه مجددًا، وسبب ضعفي قد زال، فآن أوان تعليمك درسًا جديدًا عن قواعد الحب الحقيقي الذي سقط منك في غياهب ظلامك..



قبل أن أغلق باب غرفتي أعقته بقدمك، رفعت عيناي لأجدك.. بصلفك وسخريتك!..

تركتُ الباب وتوجهتُ للداخل لتتبعني مغلقًا إياه خلفك، شعرت باقترابك مني فالتفت إليك وقبل أن تضمني ابتعدت..

رأيت انعقاد حاجبيك الغاضب في غير فهم، اقتربت مني ثانية وسألتني:

- ما بك؟.. ألن ترحبي بزوجك كما يجب؟.. لقد عاد لتوه من السفر بعد عملية جراحية ليست بالهينة أو البسيطة..

ابتسمت لك وكدت أرى الثلج يتساقط من ردي البارد:

- لقد رحبت بك في الأسفل.. أنسيت؟

لويت شفتيك كعادتك، لم يعجبك ردي، ولم تهتم له حتى.. اقتربت ثانية وأنا أنظر إليك بجمود، لم تحاول لمسي فقط وقفت أمامي متسائلًا:

- حسنًا وإن قلت أن هذا الترحيب لا يكفي؟.. ألم تشتاقي إليّ!..

بسخافة كان جوابي:

- بالطبع اشتقت إليك، كما اشتقت إليّ تمامًا..



برقت عيناك وأنت تمد ذراعيك وتجذبني بينهما هامسًا:

- إذًا فأنت تحترقين مثلي بالضبط؟

جذبت نفسي ثانية وأجبتك:

- أوه .. هل أنت تحترق؟.. يبدو أنني أسأت فهمك، إذًا فاشتياقي لا يعادل اشتياقك.. يالا الأسف الشديد!

رفعت أحد حاجبيك بطريقة كادت تُفلت مني ضحكة بسببها وأنت تقترب ثانية قائلًا بنبرة احتوت بعض الغضب:

- أحقًا!.. إذًا أي نوع من الشوق هنا؟

ووضعت إصبعك على موضع قلبي، هززت كتفي بلامبالاة مجددًا وأنا أقول:

- شوقي لم يعد هنا، ولن يكون هنا بعد اليوم وليد.. لقد عدت كاملًا كما اعتقدتَ دومًا، والشوق لا محل له من الإعراب بيننا بعد الآن..

ربما لم تفهمني أو ربما فعلت لكنك تجاهلتني، المهم أنك فقط اقتربت وطوقتني ثانية وعدت تهمس في أذني بعدما طبعت قبلة على شعري:





- حسنًا.. لكنني بالفعل اشتقت إليك.. كثيرًا، جدًا..

وكعادتك توقفت عن الكلام وأردت فقط الحصول على ما تبتغي، ولأنني لن أتركك تصل لمبتغاك مني بعد اليوم فقد دفعتك بكل ما أوتيت من قوة لتنظر إلي في دهشة.. فأملت رأسي هامسة في لؤم تعلمته منك:

- ليس بعد الآن وليد..

في حركة تمثيلية مضحكة وضعت كفك على قلبك هامسًا في ضعف:

- أوه.. قلبي الصغير شهد، هل تمنعينني حقي؟

كدت أضحك بالفعل لكنني استعضت عنها بابتسامة ساخرة باردة وأنا أجيبك في تحد:

- نعم وليد.. أمنعك..

عدت تقترب وأنا أتراجع وكما في كل مرة وجدت الحائط في ظهري وأنت أمامي، وضعت ذراعيك حولي..

كنت بالفعل أشتاق إليك.. لـ "وليدي" من عهد مضى..



لكنك لم تعد أنت، وبالتالي تغير الشوق، وقل الافتقاد، اقتربت بوجهك مني متمتمًا في مكروبنبرة أعلمها جيدًا:

- هل يمكنك ردعي الآن؟

رفعت عيناي أجابهك ببرود، وبقسوة أجبتك بسؤال:

- وإن لم أستطع!.. ماذا ستفعل؟.. هل ستقهرني كما اعتدت وليد؟

غامت عيناك فجأة بغضب مكبوت لكنك لم تبتعد، أكملت أنا:

- لم تعد شهد كما كانت.. ولن تتركك تلعب بها كدمية ثانية، لم تعد قطة صغيرة تتمسح في مداعبة ونظرة رضى منك.. بتجبرك السابق رويت أرضها بالقسوة، وأنبتَّ في تربتها العناد والبرود واللامبالاة، تركت مخالبها تطول ولن تخدش أو تمزق إلا قلبك أنت..

بدت الدهشة واضحة على ملامحك، تبعتها ابتسامة ساخرة.. يبدو أن اللعبة قد راقت لك وقررت الخوض فيها مع قطتك الصغيرة!.. أخبرتني في مرحٍ ماكر:

- يالكِ من قاسية زوجتي!.. استقبالك حافل بالفعل..

ثم داعبت أنفي بإصبعك وأنت تنحني هامسًا في أذني:



- لكنه يعجبني بشدة..

طبعت قبلة صغيرة هناك ثم ابتعدت ساحبًا الدفء معك ومغادرًا الغرفة بأكملها بعد أن ألقيت عليّ نظرة متفحصة.. راغبة..

***

تمر الأيام بعيدًا عنك ببطء..

لم أدرِ هل اشتقت لك أنت، أم أن دموعك ووجع قلبك كان هو سر لهفتي للعودة!..

أو ربما مزيج العشق والكره والغضب بداخلي قد تحول لبركان ثائر على وشك الانفجار وتدمير كل ما قد يصادفه في طريقه؟.. وكان يتمنى أن تكوني أنت هناك عقبة يدهسها ويدميها!..

بقايا مرح الطفولة وحب المراهقة تعود إليّ في غيبتك لتثير في نفسي حنينًا ذا نكهة غريبة.. نكهة ظننتها دفنت مع والدي في قبره، ورافقتني في رحلتي الدهماء حتى ظهر الأمل بازخًا فجأة ليعيدني قسرًا لذكريات اعتقدت أنني محوتها للأبد..

أتعلمين!..



اشتقت إليك وقتها بشدة، اشتقت لجدائلك الثائرة، لعينيك الغاضبتين اللامعتين، لابتسامتك الطفولية، اشتقت لرجل كنته يومًا.. لطفل كان يعشق حتى صرختك في انتظار طعامك وأنت مجرد رضيعة ضعيفة..

تلك القسوة التي غشيت قلبي نحوك قتلت فيّ الكثير قبل أن توجه حِرابها نحو صدرك وتبدأ في طعنك أنت الأخرى..

وصغيرتنا "غفران"، ضحكاتها وقبلتها المبللة بلعابها على وجنتي، حتى قيئها على ملابسي وتعلقها بعنقي بقوة تؤلمني أحيانًا..

أتساءل كيف تحبني لهذه الدرجة على الرغم من ابتعادي عنها قدر ما استطعت!..

نعم أسرق من الزمن لحظات أداعبها فيها وألاعبها، لكن يبدو أن هذه اللحظات بالنسبة لها كنز ثمين، تحتفظ به في قلبها لأجلي.. لأجل براءة أضعتها في عينيك، وحزن زرعته بداخلك ورويته بدماء قلبك النازف..

فانتقلت منك وانغمست بضحكاتها وبكاءها وصراخها ودلالها..



بعد سفري لم أود محادثتك على الرغم من إصرار قلبي الحثيث على ذلك، لكنني تجاهلته فقط حتى النهاية، وعشت على تساؤلات عن صوتك..

كيف سيكون لو حادثتك؟..

هل سيتخلله بعض لهفة!.. سأشعر فيه بقليل من قلق!.. سيكون مهتمًا؟..

أم أنني فقط سأتلقى برودًا ولامبالاة تخبرني أنك لم تنتظري اتصالي ولم تهتمي لأمره مطلقًا؟..

يكاد الشك يقتلني في كل لحظة، كنت أتمنى وجودك إلى جواري، لكن قسوتي وقليل من دوافع انتقامي تمنعك ذلك..

ربما لأنني أعتقد أن بداخلك بقايا عشق نحو والد طفلتك تجبرك على الوقوف بجانبه في لحظاته حالكة السواد، وربما لأنني لم أرد أن تريّ لحظات ضعفي إن فشلت تلك المحاولة هي الأخرى..

مر أسبوع على سفري لأرض الأحلام..

كلما تذكرت لما يسمونها كذلك انطلقت من أعماقي ضحكة ساخرة..

لا توجد أحلام ها هنا، أحلامنا هناك في الجنة، لو فقط سعينا إليها.. وكلما تذكرت حالي أغمضت عينيّ في استسلامِ العالمِ بمصيره..

في اليوم الثامن حُدِّد موعد الجراحة، قالوا أنها ستستغرق وقتًا طويلًا للغاية وأن النتائج لن تكون محسومة قبل مرور أسبوعين آخرين..

ومع وعيي الغائب تحت أيديهم كنتِ أنت هناك.. بابتسامة حانية مشجعة، تحملين "غفراننا" وتبعثان إليّ بقبلة طويلة مددت يديّ أتلقفها في لهفة..

وتمر أيام أخرى، الصبر ينفذ، الغضب يزداد، والشوق يفيض بي..

وها هو يوم الحسم!..

دقات قلبي كانت تعمل كموسيقى تصويرية مناسبة للغاية لما كنت بصدده، تتصاعد ببطء حتى تصل للذروة ثم تعود لتهدأ حاملة معها نبضات متفلتة مرتعبة، ليداهم عيني نور مفاجئ أجبرني على إغلاقهما ثانية!..



غشاوة تظلل الصورة أمامي.. بهدوء أسحب أنفاسي فتتضح معه الموجودات من حولي وأتلقى التهنئات بحرارة، وفي خيالي فقط صورتك أنت عندما ترين نفسك في عيني مجددًا..

أجبروني على التواجد لأسبوع آخر للمتابعة والتدقيق بعدها من فوري عدت..

كنت أريد رؤية الفرحة على وجهك، وفي طريق العودة ساورني القلق!..

ياترى هل ستسعدين بعودتي؟.. أم بما اقترفته يداي سابقًا سيكون عنوان اللقاء برود وعدم اهتمام؟..

أمام منزلنا توقفت.. فتح لي الحارس مهنئًا ومهللًا لأشير له بالتزام الهدوء، فهي مفاجأة لا أريد حرقها..

اتجهت للمنزل وقبل دخولي لمحتك هناك، رقيقة ندية كزهرة جورية مثيرة بلونها الأحمر القاتم.. على أرجوحتك تتحركين ببطء ونعومة والهواء يداعب خصلات شعرك برقة..

التفتُ ناحية بوابة المنزل فوجدت الحارس بعيدًا ولا يمكنه رؤيتك في ذلك الركن، أصابني سهم الغيرة للحظة..





كيف جرؤتِ على التواجد خارج المنزل بهذا الجمال وتلك الرقة والأنوثة!..

اقتربت منك ببطء ووقفت أمامك للحظات استمتعت فيها بإشباع عيني من ملامحك، بالفعل كنت أفتقدك بشدة، أفتقد تقطيبة جبينك الغاضبة، ابتسامتك الحالمة، ضحكتك الشقية، وثورة الكستناء عند وجنتيك، غذاء الملكات المخلوط بالعسل بين جفنيك..

في تلك اللحظات ارتسمت على وجهك عدة ابتسامات وضحكات كنت لأدفع عمري وأعرف سببها وكما يقولون من حيث جئت للتوسألتك..

بصدمة فتحت عينيك تتطلعين إلي والذهول يكتنف ملامحك.. قاومت بشدة ضمك بين ذراعي والاعتذار بين يديك..

عادت لي رغبتي في الانتقام، تلك الصورة وهذه الدماء وقبر بعيد أخرجني من غيبوبة العشق المفاجئة بعنف..

استقبالك كان باردًا للغاية!..

كلمات مقتضبة، تهنئة ميتة، قبلة خاطفة بلا اهتمام، لم تكن تلك هي المشاعر التي توقعت رؤيتها على وجهك!..

لم أرَ انعكاس سعادتي في عينيك!..



قررت تجاهل الأمر لأرى ولأول مرة طفلتي، أشرت خلفي في صمت وأنا ألتفت.. لم يخب ظني، كما توقعتها وتخيلتها دومًا..

بلون شعرك وبشرتك وحتى عيناك..

حنان الدنيا ملأ قلبي فجأة فذهبت إليها بعد دفعة باردة منك، لعناقها هي مذاق خاص، برئ، نقي، بلا غرض أو هدف، يحملك معه لسماء الحلم، ويغرقك في بحر الحب الأبدي..

لاعبتها لدقائق وحانت مني التفاتة نحوك لأجدك تغادريننا بخطوات سريعة، اندفعت خلفك بلا وعي.. فقط منساق خلف قلبي الذي تركني وذهب معك، وعندما انفردت بك فوجئت بنمرة شرسة تطل علي من خلف فراء قطتي الصغيرة!..

تريد تمزيقي بمخالبها!..

عدت ك "شهد" القديمة، طفلتي الشقية التي كادت تتعلق بعنق أي فتاة تحادثني، التي ضربت لأجلها ابن خالتها..

منعتني نفسك لأول مرة منذ زواجنا، تركتِ شوقي يحرقني أكثر، بدوتِ كطفلة تلهو، فجأة وجدتُ أنني أرغب في اللهو معك..



سعادتي برؤياك بعد كل تلك السنون، بجمال افتقدته، ببراءة أوحشتني، بعنفوان انتفض بداخلك فجأة.. بطفلتي الصغيرة التي تشبهك..

كلها أمور أجبرتني على مجاراتك، نبض قلبي فجأة لك من جديد، ولهيب الانتقام خبا للحظة تمسكت فيها بك..

قررت أن ألعب معك لعبتك حتى النهاية، لنرى أينا أشد بأسًا، ومن سيعلن استسلامه أولًا محققًا النصر للآخر..

لكنني عندما تركتك وخرجت عائدًا لملاكي الصغير تركت قلبي معك..





(٢٢)

لم أتخيل في يوم أن رؤيتي لكِ ثانية ستترك في نفسي ذاك الأثر القوي!..

يا إلهي "شهد".. على الرغم من معاناتك معي، قسوتي، صلفي، غلظتي، ازددت جمالًا!..

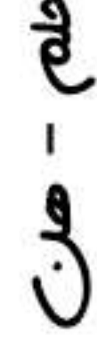
آخر مرة رأيتك منذ ست سنوات كانت ملامح الطفولة لا تزال تغلف وجهك البريء.. لكن الآن، وأنت أم بعمر السادسة والعشرون، ورغما عن نحولك الذي أكسبك أنوثة أكبر فأنت أجمل بكثير..

أهي عيناي اللتان اشتاقتا لرؤياك؟..

أهو قلبي الذي يفتقد كل تفصيلة من ملامحك؟..

أم أنك بالفعل تغيرت؟..

رؤيتك تتحركين أمامي كل يوم.. هنا وهناك، وأنت تأكلين طعامك، تلاعبين "غفران"، سارحة في عالم خيالي تلفين خصلة من شعرك على إصبعك وعيناك مغلقتان..





هل أصبح لون شعرك فاتحًا أكثر؟..

سأجن بالفعل وأنا أتطلع إليك.. تلاعبينني بقسوة وبرود، تتجاهلين وجودي أغلب الوقت، تمنعينني حتى لمس أصابعك النحيلة الرقيقة، وكل ما أملكه هو تتبعك بعيني..

قلبي العاشق عاد يتلهف قربك، ينبض لك، يسيطر على خلاياي من جديد..

حتى عقلي الغاضب وماردي الحانق دومًا ذابا فجأة في ابتسامة شفتيك والعسل بين جفنيك..

أي ساحرة من ساحرات الأساطير أنت صغيرتي؟.. ومن أي كتاب خرجت لتلقي بتعويذتك عليّ فتملكيني وتحبسيني داخل عالم هواك مغرمًا!..

أسبوع منذ عودتي وأنا لا شاغل لي سواك، في المنزل أراقبك بصمت، في العمل أفكر بك وأعد الدقائق حتى موعد عودتي..

ماذا تفعلين بي يا امرأة توجت نفسها عنوة على عرش قلبي!..

***

أكاد لا أصدق "وليد"!..



لقد تغيرت بالفعل، وعلى الرغم من معاملتي الجافة لك منذ عودتك فلم تغضب ولو مرة، تصرخ في وجهي أو تحاول حتى إيلامي كعادتك..

واللعبة التي انتويت أن ألعبها معك لم تبدأ بعد بسبب صمتك..

يخجلني كثيرًا تطلعك الدائم ومراقبتك لي.. نعم أدعي اللامبالاة بل وحتى أنني لا أراك، لكن عيناك دومًا تتبعني بصمت.. بشوق..

حنين يسكن حدقتيك يحيط بي فيشعرني بالدفء..

لن أضعف الآن، لعبتنا ستستمر للنهاية حتى تتعلم الدرس جيدًا وتحفظ القواعد الصحيحة لحياتنا سويًا عن ظهر قلب..

لم أحاول استفزازك بعد، أترك لك الخطوة الأولى وأعدك برد فعل سيصدمك، لكنني سأكون أكثر من منتشية به..

في اليوم الثامن لعودتك أتت الحرباء الكريهة لمنزلنا بحجة ملفات هامة تحتاج لتوقيعك بعد عودتك من عملك مبكرًا قليلا..

لم أعر الأمر اهتمامًا على الرغم من أنني بلغت درجة الغليان بداخلي، كيف جرؤت أن تعود إلى هنا؟..



"ضحى" الفاتنة تزداد فتنة، يا ترى هل أنت على علاقة بها يا زوجي العزيز؟..

ما رد فعلها على عودة بصرك؟.. وما هو شعورك تجاه فتنتها الزائدة تلك؟..

جلست أشاهد التلفاز ببرود و"غفران" تلعب أمامي في حين توجهت هي نحو مكتبك بخطوات واثقة جامدة بعد أن ألقت عليّ تحية عابرة لم أهتم بإجابتها..

عشر دقائق منذ دخلت.. الغيرة تأكلني، الغضب يشعل بي نيرانه..

ترى ما الذي يحدث بالداخل الآن؟..

لم أستطع الصمت أكثر.. حسنًا "وليد" هذا يكفي، نزواتك وصولاتك مع النساء لن تكون في منزلي أبدًا..

صعدت لغرفتي سريعًا، غسلت وجهي بماء بارد لأهدأ قليلا، حمرة هنا وزخة عطر هناك، وبخطوات أكثر ثقة وبلا تردد توجهت إليك..

طرقة خفيفة سريعة على باب المكتب ثم فتحته بسرعة، وما توقعته كان ماثلًا أمامي..

أي عمل هذا الذي يجعلها تجلس أمامك على المكتب وتقترب منك بهذا الشكل؟..

ابتسمتُ في برود عندما انتفضت في مكانك وقلتُ بلهجة ثلجية:

- عذرًا وليد.. أحتاج لكتيبات التلوين الخاصة بغفران، تركتها في المكتبة هنا بالأمس..

توجهت نحو المكتبة لألتقط الكتب وأنت تقف مقتربًا مني مرددًا:

- شهد.. أنا لم...

لم أعطك فرصة لتكمل جملتك، التقطت الكتب سريعًا والتفت إليك بنفس الابتسامة الباردة:

- ها.. وجدتهم.. عذرا على المقاطعة يا عزيزي، هيا أكمل عملك..

هززت رأسي للحرباء مغادرة المكان قبل أن أفتك بك وبها..

كان الذهول يغلف ملامحك والارتباك بادٍ بشدة على لغة جسدك، لكنني لم أهتم، فقد حصلتُ على ما أردت وحققت هدفا اخترق مرماك في هذه الجولة من اللعبة..





***

لم أدرِ ما كل هذا الارتباك الذي أصابني لدى دخولك للغرفة فجأة!..

عطرك نفذ من مسامي وليس فقط أنفي، وجهك الندي وتلك الحمرة الناعمة على شفتيك!..

رقيقة وجميلة "شهد"..

تعلقت عيناي بك على الرغم من التوتر الذي شملني، لم يكن هناك شيء، هي فقط تتصرف بجرأة كعادتها محاولة الوصول إليّ..

أعاملها ببرود دائم بعد عودتي من سفري، فأنت وفقط أنت من يشغل بالي حاليًا..

أعلم أن الوضع لا يبدو جيدًا، فهي تجلس بالقرب مني على الرغم من تحذيري لها، كانت ستتحرك من مكانها لكنك فتحتِ الباب قبل تحركها بثانية..

باردة، جامدة، غير مهتمة، لم أفهم، أين غيرتك اللاهبة السابقة؟..

كنت تغارين من كل شيء وأي شيء!..





أخذتِ ما أردتِ ثم خرجتِ بسرعة بعد أن أثرتِ عاصفة من القلق بداخلي، ماذا تفعلين بي "شهد"؟.. وماذا تريدين مني؟..

أين ذلك القمقم كي أفركه بقوة ليخرج منه المارد النائم وأعود لسابق عهدي؟..

صرفتها سريعًا وتبعتك.. قلبي أجبرني، عقلي ألح عليّ وفي النهاية استجبت..

رأيتك مع صغيرتنا تلعبان ببراءة.. اقتربت مناديًا، أتت جميلتي ملقية نفسها بين ذراعي بلهفة فرفعتها أقبلها بين عينيها وأداعبها قليلًا ثم تركتها تكمل لعبها وناديتك:

- شهد أريد الحديث معك..

نظرة باردة أخرى جعلت قشعريرة تسري في جسدي ثم أتيت خلفي، التقطت كفك وللغرابة لم تمانعي.. خرجنا للحديقة نسير قليلًا وهناك تكلمت مرتبكًا:

- أنت تعلمين أنه لم يحدث شيء.. صحيح؟





سحبت يدك الصغيرة من بين أصابعي ثم وقفت أمامي متغابية أعلم..

تسألين:

- أي شيء هذا الذي لم يحدث؟

مررت أصابعي في شعري متنهدًا.. أجبتك:

- أعني الآن في المكتب.. مع ضحى..

أهذه ضحكة؟..

تضحكين؟..

ساخرة كما أرى.. وصوتك أيضًا يجيبني متهكمًا:

- ولو حدث.. ما الجديد؟.. لقد فعلت هذا الشيء من قبل ورأيته بنفسي بالفعل إن كنت لا تذكر..

شعرت بالغضب..

نعم حدث لكنني وقتها كنت أرغب في إغاظتك إنما الآن!!..

فتحت فمي محاولًا قول شيء لكنك أكملت بلا اهتمام:

- ثم من قال أنني أهتم؟.. افعل ما تشاء يا زوجي العزيز..



عقدت حاجبي في عدم فهم.. سألتك مترددًا:

- لا تهتمين؟

هززت كتفيك نافية وبكلمة واحدة أجبتِ:

- لا..

اقتربت منك وفي ثانية كان ذراعك في قبضتي الغاضبة وأنا أكرر سؤالي:

- لا تهتمين شهد؟

لم تتحركي لدهشتي بل واجهتني بعناد وصلابة مكررة:

- لا.. وليد..

لم أخفف قبضتي ولم تبدُ عليك لمحة ألم واحدة للغرابة الشديدة..

كانت حربًا صغيرة بين عينانا، انتصر فيها العسل الساكن بين أهدابك لينبض قلبي بشدة وأنا أزدرد ريقي بصعوبة هامسًا:

- شهد...

لم أجد ما أقول..

ظلت الحروف ضائعة معلقة فوق رأسينا وأنت حتى لا ترمشين..

وجدتني أقترب منك مدفوعًا بقوة أكبر مني لكنك نزعت ذراعك فجأة من يدي بقوة ثم قلتِ في جمود:

- سأعود للداخل.. أنهي عملك وليد ولا تهتم لأمري..

ثم ببساطة رحلتِ..

واقفًا في مكاني محدقًا في باب المنزل الذي اختفيتِ خلفه، قلبي يعاندني حاثًا إياي على الإسراع خلفك لكنني أوقفته معنفًا.. نهرته بشدة صارخًا فيه..

لقد تغيرتْ يا أحمق.. فقط اصمت و قف جانبًا لننهي هذه اللعبة كما تريدها هي..

ورغمًا عني.. ابتسمت..

***

لم أعد أفهم بالفعل!..

قدرتي على استيعاب الأمور بيننا وما يحدث لي، نبض قلبي المجنون عندما تكونين بقربي، تدليلي لك، منعك لي من الاقتراب منك، استجابتي لرغبتك برحابة صدر!..

كلها أشياء تثير حيرتي بل ورعبي..

أين شيطاني ورغبتي في الانتقام؟..

مجرد رؤياك "شهد" كأنما محت ذاكرتي وتركتها بيضاء عليها فقط ذاك العشق القديم المتربع داخل خلاياي منذ ميلادك..

عشرة أيام ونحن على نفس الحال.. لا جديد بعد آخر مرة حادثتك، لامبالاتك بوجود "ضحى"، عدم اكتراثك لتوضيحي للأمر والذي بغباء نفيته عني لأثبت التهمة أكثر..

في عملي فقدت تركيزي كثيرًا بسبب عقلي الذي يتركني ليحلق طائرًا نحو المنزل ليبقى معك، منشغلًا بك، ملهوفًا عليك..

ذلك اليوم عدت مبكرًا لإحضار ملف هام نسيته قبل خروجي صباحًا بسببك أيضًا.. شرودي ازداد عن الحد وأنت لا ترحمين..

دخلت متعجلًا لم أجدك أو الصغيرة.. ولأنه لا وقت لدي فقد اتجهت لمكتبي سريعًا ثم فتحت الباب لأجدكما هناك!..

للحظات توقف قلبي عن النبض..



اتسعت عيناي، تسمرت في مكاني محدقًا فيك، ثم فجأة عاد القلب يخفق بقوة والدماء تتصاعد لرأسي.. أما أنا فلم أستطع تحويل عيني عنك..

يا إلهي.. لقد فقدتُ الكثير طوال خمس سنوات كنتِ فيها زوجتي!..

جالسة أنت على الأرض، أمامك "غفران" وعدة أوراق مبعثرة، ألوان وأقلام هنا وهناك، شعرك فوضوي تجمعينه وعلى الرغم من ذلك نفرت منه بعض خصلات وددت لو مددت يدي لأعيدها خلف أذنك وأتطلع لعينيك بوضوح..

ازداد نبض قلبي وأنا أتفحص ببطء ما ترتدينه، لم أرك هكذا من قبل أبدًا..

منامة قطنية جذابة بلون عينيك، ناعمة رقيقة مثلك، بنطالها قصير للغاية، قميصها يكشف عن ذراعيك وجيدك الناعم..

بعض ألوان تركت بقعا طفولية على وجنتك، ضحكة صافية بريئة تنطلق من بين شفتيك المكتنزتين..



كطفلة شقية كنت تلعبين مع ابنتنا بعشوائية خفق لها قلبي عشقًا، وعلى الرغم من ذلك بدوتِ شهية كفاكهة استوائية..

لم أستطع النطق لكنك مع فتحي للباب ووقوفي هناك رفعتِ رأسك في صدمة، تبادلنا النظرات لثوان خفضت بعدها عينيك في خجل..

هل ما كان يدور بداخلي واضحًا لتلك الدرجة على ملامحي!.. إلى الحد الذي يخجلك؟..

وقفتِ بسرعة والصغيرة تندفع نحوي بفرحة، حملتها مبتسمًا لأقبلها بينما عيناي لاتزالان معلقتان بك، حاولت النطق بأي شيء وأنا أهز رأسي بلا معنى:

- أأأأ.. ملف هام، نسيت.. عدت لأنني نسيت ملفًا هامًا في الصباح..

هززت كتفيك بحركة لا معنى لها وأنا أتطلع إليك، سمعتك تقولين بسرعة:

- حسنًا.. كنا نلعب هنا لأن الكتب والألوان في المكتبة كما تعلم، سنغادر ونكمل في مكان آخر..

هتفتُ بسرعة أكبر:



- لا.. أعني لا داعي.. أعني أنني سأحصل على الملف وأخرج ثانية، يمكنكما إكمال اللعب..

صاحت الشقية الأخرى المتعلقة بعنقي بكلماتها المكسورة:

- أبي.. أنا أرسم، هل تريد رؤية لوحاتي؟

ابتسمت لها مجيبًا:

- بالطبع صغيرتي أريني..

تملصتْ لأنزلها أرضًا وهي تندفع مغادرة الغرفة، رأيتك تقتربين من الباب مرددة في ارتباك:

- سأذهب إليها.. لن تستطيع الوصول للوحات وحدها..

كنت واقفًا كما أنا أمام الباب، بلا وعي مددت ذراعي محتجزًا إياك في الداخل وأنا أتفحصك.. رفعت عينيك إليّ في خجل بنظرة تساؤل ثم قلتِ:

- أريد الذهاب إليها، لأساعدها..

تحركتُ خطوة للأمام وأغلقت الباب خلفي ثم التفت إليك..



رأيت بعض الرهبة على ملامحك، لكنها لم توقفني، اقتربت منك وأنت تتراجعين للخلف، هتفتِ فجأة:

- وليد.. ماذا تريد؟

وقفت أمامك قريبًا للغاية ليتسلل عطرك الصباحي الناعم لأنفي، همستُ بشغف:

- أنت تعرفين ما أريد..

اشتعلت وجنتاكِ خجلا، ابتسمتْ، تمزق قلبي للحظة!..

ضاع مني الكثير في السنوات الماضية.. ذاك الخجل، تلك الأنثى الخلابة التي تقف أمامي، وضيعت بنفسي أكثر..

أنت يا رقيقة، بريئة كطفلة، ناعمة كزهرة، مثيرة كجورية، قسوت وعاندت وتجبرت، ألجمت قلب العاشق لكنه الآن حرر نفسه من الأسر، ووقع في أسر جديد..

لدقيقة أو أقل ظللت صامتًا أتأملك والحمرة الرائعة تزين ملامحك، لكن ردك البارد انتزعني من أحلام يقظتي التي غبت فيها للحظات:

- وأنت تعرف أنك لن تحصل عليه..



لن أتذلل "شهد"..

يمكنني أن أفعل ما أشاء وقتما أريد، لكنني لا أرغب في ذلك، فقط أبغي حبك أولًا.. ومازلت تتدللين، تتمنعين وتقسين، البرود يغلف حديثك القليل معي، الجمود يسيطر عليك كلما اقتربت منك..

حاولت مجددًا هامسًا بحب:

- ولم لا حبيبتي؟

وكما توقعت، رفعت حاجبيك في سخرية وجاءني جوابك الجاف:

- اسأل خمس سنوات مضت وليد!.. لا تتهرب من ضرائبك القديمة، لابد أن تسدد ديونك أولًا قبل أن تبدأ من جديد..

شعرت بالغضب.. لوهلة كدت أجن، وهنا في مكتبي، تماسكت بصعوبة وسألتك:

- أي ديون زوجتي العزيزة!.. لقد عدت كما كنت، فما بك أنت؟

بنفس النظرة الساخرة نغزتِ قلبي وبلا رد تحركتِ من أمامي بهدوء والكبرياء تغلف خطواتك، لم أتحرك خلفك، تجمدت مكاني حتى سمعت الباب يغلق بهدوء بعد خروجك..

جلست خلف مكتبي مفكرًا بحنق..

أنا السبب.. والمشكلة الأكبر هنا أنني لا أستطيع الاستمرار في خطة انتقامي بحالتي هذه، وفي نفس الوقت لا يمكنني أن أعود "وليد" العاشق القديم!..

حيرة تملكت مني وأنهكتني أكثر قبل أن تعود صغيرتي بلوحاتها الفنية وأنا أحاول الاندماج معها علني أنسى ولو بعضًا من شوقي الذي يمزقني إليك..

***

لم أخبرك بحملي بعد!..

في شهري الثاني "وليد" والقلق يأكلني قطعة قطعة ببطء وتلذذ..

أكاد أرتعب لمجرد التفكير أنك قد لا ترغب في طفل آخر على الرغم من تغيرك الملحوظ ومجاراتك لي بل واهتمامك بعد عودتك..

بين شد وجذب وحيرة أفكر وأصاب بالصداع يوميًا من كثرته..

أعلم أنك ستراه في النهاية، ثلاثة أشهر أخرى وسيبدأ في الظهور.. أخشى رد فعلك لو علمت الآن!.. وأخشاه أكثر لو أخفيت الأمر عنك حتى تراه بنفسك!..

لم أوصلتني لهذه الدرجة من الجبن والقهر يا زوجي الذي أحببته؟..

أسعد لحظة يمكن أن تمر على أي أنثى هي أن تصبح أمًا لطفل من حبيبها لكنك جعلتها أسوأ لحظات عمري وأكثرها رهبة..

كلما واتتني الشجاعة في وقت ما أتراجع وأجبن ثانية تاركة الأمر للزمن كما يقولون..

بعد عودتك بعشرة أيام وأنت في عملك، بعد أن أعياني التفكير فكرت أن ألعب قليلًا مع صغيرتنا لأريح عقلي بعض الشيء.. طبعًا في هذا الوقت تكون في عملك وأكون بحريتي في المنزل..

بملابس نومي تناولت إفطارًا سريعا معها ثم انطلقنا لمكتبك نفترش الأرض بالأوراق والألوان نرسم ونلون في مرح..

بعد أقل من ساعة سمعت الباب يفتح لأجدك واقفا أمامنا في لحظة!..

توقفتَ خلف الباب ولم تتحرك لثوان متطلعًا إليّ.. يا إلهي نظراتك لأول مرة أراها..

بالفعل هي أول مرة!..



لم ترني بهذا الشكل بملابس كاشفة كتلك من قبل.. عيناك أحاطتني فجأة بنظرة دافئة كأنك تضمني بهما ولوهلة شعرت وكأن ذراعيك بالفعل تحيطان بي.. اختلط مع الدفء رغبة أخجلتني فأخفضت عيني و"غفران" تنطلق نحوك متعلقة بعنقك..

بعد ذهابها حاولت استرضائي مجددًا، لكنك فقط تريدني كامرأة، لا تريد التكفيرعن ذنب واحد في حق قلبي الذي كسرته مرات ومرات..

وعدتك من قبل أنك لن تنال شيئًا لكنك لاتزال عنيدًا كما أنت دومًا..

بكلمات باردة أوقفت أحلامك ومسحت أي فكرة قد تدور بعقلك نحوي، تَرَيث يا زوجي العزيز..

مازلنا في بداية اللعبة والثمن لم يُدفع بعد..

لكي تنالني لابد أن تنال حبي أولًا، والثمن لن يكون سهلًا أو بسيطًا لهذه الدرجة.. مرحلة الصبر والسكون قد مرت، وبعض التمرد لن يضر.. لن أكون لك ثانية، بل لـ "وليد" الشغوف الغيور..

فارسي الصغير.. عاشقي الأبدي..

وحتى تعود إليه؛ فلنكمل لعبتنا الصغيرة ونتعلم درسًا سويًا..



(٢٣)

ماذا جرى لك "وليد"؟..

هدوء.. سكينة.. ملامح عشقية تلبست وجهك.. تنهدات حارة.. نظرات مشتاقة تمزقني.. صمت دائم كأنك تدعوني به للمصالحة!..

بعد عودتك من عملك تتبعني عيناك في المنزل حيثما وُجدت؛ هل تنتظر مني خطوة أخرى أغيظك بها؟..

حسنًا سأفعل..

لكنها ليست لأجل لعبتنا التي استسلمتَ لها بشكل غريب!.. بل لأجلي أنا وطفلتي وجنيني الذي لم أخبرك بوجوده بعد..

ما يقرب من ثلاثة أسابيع مرت بعد عودتك، الخوف لايزال يسكنني ويلجمني، يتحكم بي ويخرسني.. أحيانًا أتحداه، أنظر إليك مع طفلتنا، حبك لها، شخصيتك المختلفة الطفولية الجامحة معها..



هذا أدعى أن يطمئنني لكنني قهرًا مازلت مرتابة حائرة، وبالتالي أكتفي بالصمت المتردد..

لم أرَ خالتي منذ شهر تقريبًا.. أريدها وبشدة في حياتي، أن أشعر بوجود غيرك، يساندني، يدعمني.. من أهلي، ولأنني قررت التمرد وهي عادت من سفرها فلنعد كعائلة إذًا..

كنت تجلس في مكتبك والباب مفتوح، بدوت شاردًا وعقلك لا يتابع الأوراق بين يديك.. وقفتُ أمام الباب وتنحنحت بهدوء، عندما رفعت عينيك نحوي شعرت بالدفء كعادتي مؤخرًا..

رأيتُ نفسي فيهما فابتسم قلبي..

كم أنا سعيدة لأجلك، وأكثر ابتهاجًا بنظراتك تلك.. ابتسمت داعيًا إياي للدخول فدلفت للمكان ببطء وجلستُ أمام مكتبك لأقول بسرعة:

- وليد خالتي عادت من السفر.. أريد دعوتها للغذاء وقضاء اليوم معنا خلال الأسبوع القادم..

صدمة، دهشة، لمحة من غضب تبعه استياء!.. ارتسمت على ملامحك متتالية لتجيبني بلهجة جافة:



- منذ متى تدعين أي أحد هنا؟

ابتسمت ببرود وأنا أرد:

- منذ الآن وليد.. هي خالتي، في مقام والدتي إن كنت لا تعلم، وأنا لن أقطع رحمي لأجل أي أحد.. أحتاج وجودها في حياتي..

بدا عليك التفكير والضيق، أكاد أجزم أنه هو من استحوذ على تفكيرك، "كريم" ابنها!.. سألتني فجأة بحزم:

- ومنذ متى هذا الاحتياج شهد؟

أسندت ظهري للمقعد وأجبتك بجمود:

- احتياج أبدي لكنك فقط لم تهتم له من قبل.. وهي كانت مسافرة ثم عادت، أحتاج لأناس آخرين في حياتي يا زوجي العزيز.. وأيضًا أحتاج لصديقاتي، أريد الخروج معهن في يوم ما خلال الأسبوع القادم أيضًا أو الذي يليه على الأكثر..

انعقاد حاجبيك الغاضب يزداد، سألتني صارمًا:

- وإن رفضت؟



ساخرة رفعت حاجبي وأجبتك:

- ترفض صلة رحمي؟.. وتمنعني من رؤية صديقاتي؟.. وماذا تريد مني؟.. الحب!.. القرب منك!.. ماذا قدمت أنت لتناله إذًا؟.. لمَ لا تمنع عني الهواء الذي أتنفسه أيضا؟..

عضضت شفتيك بغيظ شديد حتى خِفتُ أن تدميهما ثم جاءني سؤالك الجديد القلق:

- هل سيأتي هو؟

كدت أضحك.. فهمت سؤالك ومن تقصد، لأول مرة توضح كيف تشعر نحوه أمامي بهذه الطريقة.. هل أنت قلق؟.. خائف؟.. تخشى أن يسرقني منك بعدما فعلته طيلة زواجنا؟..

ثم شعرتُ بالغضب.. كيف تفكر في أنا بهذا الشكل؟.. أن أتركك وأذهب لغيرك؟.. ومن!.. رجل متزوج؟.. ويحب زوجته بشدة، أنت مجنون أعمى على الدوام ولن تُشفَى أبدًا.. أجبتك بسؤال متغابٍ:

- من تقصد؟

ضاغطًا على أسنانك بعنف أجبتني:



- كريم ابن خالتك!

ابتسمت رغمًا عني.. لم أرد أن أغيظك أكثر فترفض، لكنها ارتسمت على شفتي دون إرادتي، فأجبتك بحسم:

- بالطبع.. هو وخالتي وزوجته وابنه، كنت أتمنى أن تكون شقيقته هنا لكنك تعلم أنها مسافرة مع زوجها، أفتقدها كثيرًا..

أكاد أقسم أنك كدت تتعلق بعنقي وقتها، سحبتَ نفسا عميقا ثم زفرته بقوة، قلت بعدها:

- حسنا شهد كما ترغبين..

انتفضت واقفة وأنا أقول بابتسامة فرحة:

- سأحدد معها الموعد، وسأطهو لك الأطباق التي تحبها.. شكرًا وليد..

بسرعة خرجت من الغرفة قبل أن أرى رد فعلك.. لقد حققت هدفًا آخر في مرماك ورغمًا عنك، فقط انتظروسترى المزيد يا زوجي العنيد..

لا تظن أن استسلامك والحب المرتسم في عينيك في كل لحظة سيجعلني أمحو الخمس سنوات السابقة في ثوان!.. فالثمن لم يُدفع بعد..



جاء اليوم الموعود..

استيقظت باكرًا وتجاهلتك كالمعتاد، أما أنت فقد خرجت بدون تناول فطورك أو حتى فنجان القهوة الصباحي اليومي..

كنت أضحك في سري لأنني أعلم كم أنت غاضب غيور ومغتاظ بشدة..

حتى الآن وبعد خمس سنوات من زواجنا وطفلنا وجنيني مازلت تغار منه وهو الرجل المتزوج الأب والعاشق لزوجته..

أتى ضيوفي فرحبتُ بهم وأنت لاتزال في عملك، بقينا سويًا نتسامر قليلًا، الطفلين يلعبان معًا حتى اقترح عليهما "كريم" أن يلعبا في الحديقة وسيرافقهما ويتركنا نحن النساء معًا..

وافقه الطفلان وخرجا معه، بعدها بدقائق أتيت أنت.. العبوس مرتسم على وجهك لكنك حاولت في البداية رسم بسمة ترحاب على شفتيك عندما سلمت على خالتي وزوجة ابنها..

لم تسأل عن "كريم" فعلمت أنك رأيته بالخارج، ابتسمت ثانية وأنا أرى الغيظ موشومة به ملامحك.. أعلم أنك تعشقني، الغيرة تكاد تقفز من





خلاياك، مع أنك لو دققت النظر قليلًا للمحت كم العشق الذي يولد في عينيه عندما ينظر لزوجته حتى لو لم تره هي..

نظرات تنميت رؤيتها في عينيك أنت يا زوجي الحبيب، لكنك تحبسها سجينة غضبك الذي تملك منك، بين جدران ألم بنيتها بنفسك واختفيت خلفها لتكتب مرثية في حياة أنهيتها بيديك..

عندما اجتمعنا على مائدة الغذاء كان هو باشًّا ضاحكًا، يداعب الصغار ويضحك معي ومع زوجته وخالتي.. داعبني مادحًا طهي يدي:

- شهد.. أنت تطهين الدجاج تماما كخالتك، أعشق هذا الطبق من يديها، علميه لهبة.. طريقتي المفضلة هي هذه يا زوجتي العزيزة..

أنهى جملته مخاطبًا زوجته بمرح فبادلتْه ابتسامته وردتْ بهدوء:

- حسنًا شهد.. هذه شهادة يجب تسجيلها، كريم نادرًا ما يمدح طهي أحدهم..

ابتسمتُ مجاملة وأنا أراك تضغط أسنانك كأنك ستكسرهم داخل فمك، قلتَ بحروف حانقة:



- بالفعل كريم.. زوجتي طاهية من الطراز الأول، على الرغم من أنها لا تدخل المطبخ كثيرًا..

شددت على كلمة زوجتي كأنك تذكره بها..

أما هو فلم ينتبه لها لأنه لا شيء مما يدور بخيالك الأحمق يفكر هو به، لذلك داعبك:

- مخطئ وليد، لابد أن تأكل من يديها فقط.. أجبرها على ذلك، أنت يفوتك الكثير يا رجل..

كدتُ أضحك، الرجل يتكلم بطيبة وحسن نية وأنت تكاد تخنقه خاصة عندما يبتسم لي شاكرًا..

تناولنا طعامنا وقمتُ بتقديم الحلوى، صنعتُ حلواك المفضلة خصيصًا لأجلك، شكرًا على يوم سعيد قضيته مع أهلي رغم رفضك، لكنك فعلتها ووافقت لأجلي..

قدمت الطبق لك بابتسامة بادلتني إياها وأنت تحيطني بدفء عينيك من جديد، خلف نظرتك تلك لمحت غضبًا علمت أنك تتحكم فيه بصعوبة



لتثبت لي أنك تستحق مسامحتي، فطمأنتك بعيني أنك على الطريق الصحيح..

انتهى اليوم بسلام، بعد ذهابهم لم تكلمني، اتجهت لغرفتك وأغلقتها خلفك وهو ما بدا غريبًا، لكنني تركتك تفكر كما ترغب..

في هذه الليلة وربما لأول مرة منذ زمن، رحت في نومي وعلى شفتي ابتسامة رضى تتخللها سعادة طفيفة لطالما تمنيتها منك..

***

تَتَيُم يغشى القلب، صورة فاتنتي الصغيرة لا تفارق مخيلتي، تغضبني، تقسو علي، ترفضني، تمنعني قربها، أحبها، بل وأعشقها.. أجاريها وأضحك في غير غضب أو سخط، ما بك قلبي؟..

هل غرقت معها في بحر العشق من جديد؟..

أين كنت طوال خمس سنوات ذاقت هي فيها جُل طعوم المر والذل، القهر والحزن حتى تشبعتْ بهم؟..

أم أنكَ وقعتَ تحالفًا مع عقلي الحانق؟.. اتفقتما أخيرًا على حبها!.. على طلب غفرانها وقربها؟..



نوبات شرودي تزداد بسببك صغيرتي، لا أكاد أنتبه لعملي أو أتمه دون مراجعة مرات عديدة للتدقيق، أسبوعين بل وأكثر منذ عودتي وعودة صورتك بين أجفاني..

لا أفكر إلا بك أنت..

القلب ينبض باسمك في كل لحظة، تتدللين، تتمنعين، وأنا كـ "وليد" الصغير الذي عشقك يومًا ما في الماضي، أتقبل، بل وأسعد..

أتيتني تطالبين بوجودهم في حياتك، انقبض قلبي لمجرد ذكره، أخشاه وأخاف وجوده هو بالذات، على الرغم من زواجه وابنه..

عشقه السابق لك يتجسد أمامي في كل مرة يذكر اسمه فيها، جنبا إلى جنب مع قسوتي وطاغوت ظلمي اللذين عشتِ فيهما لخمس سنوات مضت..

ترى من يربح لو وضعا في كفتي ميزان!.. أيهما ترجح كفته؟..

أخاف أن يأخذكِ مني، أخشى أن تسلميه قلبك لأنه سئمني وأرهقه جفائي وبعدي.. لكنك قطعت الأمر بقرار حازم وخيار وحيد، تمنعني عن أهلي ومن أحب، وبالمقابل تبغي حبي؟..



نعم.. صدقتِ صغيرتي، هذا ليس عادلًا أبدًا..

عودتي لسابق عهدي بدون اعتذار حتى لا تكفي، مغرور أنا ومتكبر لكنني عاشق أميرتي فارأفي بحالي بعض الشيء..

أتى غريمي، يلاعب الأطفال بمرح صاخب، يحبانه، ابنه وابنتي، يمدحك علانية أمامي وأمام زوجته، يطلب منها أن تكون مثلك!.. لم أدرِ كيف تماسكتُ وقتها ولم أحطم أسنانه!..

هل قصد إغاظتي؟.. أم أنه عنيَّ كلامه بالفعل!..

ابتسامتك اللطيفة له، لم أنل مثلها منذ عدت لأرى وجهك البريء!..

انتهى اليوم على خير أخيرًا، وقبل نهايته نلت منك شيئا ما، أعتقد أنه خطوة للأمام بالنسبة لي.. أتحرك ببطء، لكنني أتقدم بثبات، رحمة بقلبي صغيرتي، فلم أعد أحتمل، وأنت لا تتوانين عن إشعال نيرانك بي في كل حين..



أخبرتك أنني سأخرج معهما.. هاتفتهما على استحياء، قابلته كل منهما برفق وحنو، أشتاق إليكما صديقتاي الوحيدتين.. إذًا لنتقابل!.. نخرج قليلا ونستعيد ذكرى الأيام الخوالي!..

وجاءت موافقتك لتفاجئني، تلاها أمرك ألا أتأخر، جهزت نفسي و"غفران"، مرتا عليّ، بعد لقاء حار وترحيب مشاغب مرح بطفلتنا خرجنا، قضينا نهارنا في استعادة الذكريات وضحكات خرجت من قلبي لأول مرة منذ حادِثتُك..

تناولنا الغذاء سويًا وبدأ النهار ينتهي، أخبرتهما بحملي فذهبتا معي لطبيبتي من أجل متابعته التي تأخرتُ فيها بسبب وجودك..

قبل أن أودعهما وجدتهما تلحان عليّ أن يطول اللقاء قليلًا ونذهب للتبضع معًا، بعد تصميم منهما وحتى لا أؤكد شكوكًا طرحتاها بخصوصك وافقت، عدت بطفلتي للمنزل..

أعطيتها لمربيتها وأوصيتها بها ثم عدت معهما..

نوبات أخرى من الضحك والمرح، كان يومًا جميلًا للغاية وسعيدًا، تلميحاتهن على شكلي ونحافتي ضايقتني نوعًا ما، مدحتاها فصمت..



أما هما فرغبتا في شراء هدية لي، وشجعتاني على شراء الكثير من الملابس التي لن تراها عليّ لكنهما لا تعرفان شيئًا وبالتالي اضطررت لمجاراتهما..

ذلك اليوم كان هدية، فرح بها قلبي وأرسل لقلبك شكرًا عليها، عندما عدت للمنزل لم تكن أنت هناك.. قررت استغلال الوقت والفرصة فاطمأننت على صغيرتنا واتجهت لغرفتي..

أتمتع قليلا بمشاعر ضاعت مني منذ زمن، طفولية مندفعة بريئة..

أخرجت الحقائب واستعرضت محتوياتها، انتقيت ثوبًا أنيقًا أصرتا على شرائه لي كهدية..

وكما هي عادتهما، الفستان بلون مثير، أحمر طويل، ناعم، رقيق، بلا أكمام مطلقًا، ضيق عند الأكتاف والصدر ثم ينساب بعدها في نعومة.. بحلية أنيقة تتوسط حزامًا عريضا في منتصفه باللون الذهبي..

تحسسته بحزن فأنا أعلم أنني لن أرتديه سوى هذه المرة أمام مرآتي، إلا لو انصلح الحال بيننا وهذا ما كنت أشك فيه!..

قلبي منغلق بشدة على الرغم من محاولاتك ومحاولاتي معه..



ارتديته وتركت شعري منسدلًا على كتفي، تطلعت لنفسي في المرآة بابتسامة، بدا رائعًا عليّ بلونه البراق، درت حول نفسي لأستكشفه على سطحها العاكس فسمعت الباب ينفتح بعنف..

أنت تقف أمامه مع كلمات مختنقة في حلقك تحدق في بعينين ذاهلتين وغضب تلاشى ببطء من فوق ملامحك عند رؤيتي..

انتشيتُ بنظراتك تلك، وددت لو ألقيت نفسي في أمان ودفء ذراعيك، أطلب منك حبك، أرجو عودة "وليد" القديم، أخبرك عن طفلك بجوار قلبي، أعترف أنني لك مهما حاولتُ أن أكون قاسية، قلبي لا يتحمل أن يغضبك على الرغم مما فعلته بي..

لكن عقلي، أو بقاياه منعته، حذرته، ألجمته وكبلته..

توقف يا أحمق، لا تستهن بما فعله فيستهين بك، تضيع قيمتك وتبخسها عنده، فيفقد اهتمامه وشغفه، توافق على مسامحته بسهولة فيصبح حزنك لا قيمة له عنده، وأنصت قلبي الصغير مستكينا بين ضلوعي في صمت منتظرًا لما ستنطق به..

***



إلى أين تريدين الوصول بصبري "شهد"؟..

دلالك الطفولي والأنثوي زاد عن الحد، تضعفينني، تغضبينني، ولغرابة الموقف ودهشتي أستجيب لك بلا قلق أو خوف!..

أنا أدفع ثمن ما فعلته سابقًا، لكن صبري يقل في كل يوم، ترفقي بقلبي وعقلي وحبي لك صغيرتي.. أسبوع آخر مروها أنت تتدللين بطلب جديد، لكنه على الأقل هذه المرة مع صديقتيك اللتين كنت تغارين منهما عليّ في السابق..

جاريتك ووافقت، أخبرتك ألا تتأخري، عندما عدت مساءً لم أجدك، أخبرتني مديرة المنزل أنك عدت منذ مدة وتركتِ الصغيرة مع مربيتها ثم خرجتِ ثانية!..

هاتفك مغلق لسبب لا أعلمه، وتأخرتِ عما طلبته منك، خرجت أدور بسيارتي لعل غضبي يهدأ قليلًا، عدت بعدها للمنزل لأعلم أنك عدتِ أيضًا، عاد الغضب يتملك مني ثانية..

أترين أنك بلا مسئوليات فتلقي بطفلتك للمربية وتخرجين للمرح مع الصديقات؟..



هل هو خطأي أنني سمحت لك بشيء كهذا!..

ربما هو بالفعل، اتجهت لغرفتك بسرعة وأنا أنوي وضع بعض القواعد حتى تنصلح الحياة بيننا.. عندما فتحت الباب بعنف ورأيتك؛ نسيت فجأة ما أتيت لأجله!..

فاتنة، مثيرة، اللون الأحمر يبدو أجمل مما اعتدته فقط لأنه يلمس بشرتك الناعمة، شعرك الذي أصر أن لونه أصبح فاتحًا أكثر ينساب بنعومة على كتفيك..

أعتقد أنني فتحت فمي ذاهلًا وتجمدت أمامك، كما تسمرتِ أنت لدى رؤيتي، ابتلعت ريقي ببطء، استحضرت أكبر قدر من الصرامة في صوتي المرتبك الضائع، أخيرًا خرج من حلقي:

- لمَ تأخرتِ بالخارج؟

شعرت كأنني كسرت سحر اللحظة، نظرات عينيك التي التحمت بنظراتي انحسرت متراجعة فجأة وأنت تبحثين عن شيء تضعينه على كتفيك مجيبة ببرود:



- لم أتأخر كثيرًا، قمنا ببعض التبضع.. أنت تعلم أنني لم أرهما لسنوات، لا ضرر من التأخر بعض الشيء في أول لقاء يجمع بيننا بعد طول غياب..

مناقشة هذا الأمر معك في هذه اللحظة بالذات لم تكن ذات قيمة..

قلبي، عقلي، جسدي، كلهم اتفقوا على شيء واحد الآن..

الشعور بحبك ودفئك بالقرب منهم..

عضضت شفتي في غيظ، أعلم أنك سترفضين، لكن لا بأس من محاولة جديدة، دخلت لغرفتك وأغلقت الباب، التفتِ تتطلعين إلي بدهشة وتساؤل ممتزج ببرود شديد..

لم أرد قول شيء لكن لابد من بعض حروف تقربك إليّ، اقتربت منك، أمسكت بكفيك بين أصابعي، همست وعيناي تحيطان بك وتتأمل تفاصيلك بلهفة عاشق طال غيابه:

- أفتقدك كثيرًا..

بدا التردد على ملامحك، ها هو العشق من جديد، لن تصمدي صغيرتي، أعلم أنني أسكن قلبك بل وكل جوارحك.. قسوتك لم تكن أبدًا بمقدار



ذرة فيما فعلته أنا بك، وعلى الرغم من ذلك تستكثرينها وقلبك يدفعك دفعًا نحو مسامحتي والبقاء بقربي..

خفضت عينيك أرضًا، لم أدرِ أخجلا أم برودًا وغضبًا!.. اقتربت أكثر أضمك إلى، دفعتني برفق هامسة بحزن:

- ما الذي تفتقده مني وليد؟

ذبحني سؤالك، راجعت نفسي ثم صرخت فيها، وعدت أصب جام غضبي منها عليك:

- إن كنت أفتقد منك شيئًا فأنت لا تفتقدينني مطلقا زوجتي.. العزيزة..

ابتعدتِ موجهة نحوي نظرة دامعة، ها أنا من جديد أتسبب في دموعك.. بصوت حزين امتزج بنبرة غاضبة كان ردك:

- وما الذي ينبغي أن أفتقده منك؟.. خوفي الذي أعلمتني أنه يجدر بي أن أشعر به نحوك!.. قسوتك!.. رؤيتك مع أخريات!.. حبي الذي كنت تذبحه وتتلذذ بدمائه في كل لحظة!.. أنت لم تستطع الصبر لأيام، بينما أنا دُفِنتُ في قبر الاستسلام والصمت لخمس سنوات.. ثم في النهاية أنا المخطئة، هيا وليد.. أنا أمامك، خذ مني ما تريد، ثم ابتعد ودعني وشأني كما اعتدتْ..



فقدت إحساسي للحظات.. أعلم أنني أخطأت في حقك كثيرًا وآه لو تعلمين السبب!.. سيذبحك، ويهدم صورة أبيك أمام عينيك..

لا أريد فعل ذلك، عذبتك وعذبت قلبي بما يكفي، ألا يمكننا أن نعود كما كنا حبيبين؟..

فقط ننسى، صعب أن أنال صفحك صغيرتي؟.. ألا أستحق؟.. رفعتُ وجهك إليّ بأصابعي، بكل الصدق في داخلي قلت:

- أنا لا أريد ذلك، ولم أعد أريد الابتعاد.. أنت لم تعودي تصدقين بوجود حبي لك بداخلي، لكنني سأظل أثبت لك وجوده في كل لحظة، ولن أقترب منك إلا برضاك ورغبتك شهد.. لم أعد أريد فقط مبتغاي، بل أريد منحك ما تستحقينه مني.. سأدعك ترتاحين الآن، تصبحين على خير..

انتظرت نداءً منك، ولو حتى لتردي تحيتي بابتسامة لكنك ظللت صامتة في مكانك..

أتعذب في كل لحظة، ولا أدري متى سينتهي عذابي؟..

جلدني ما فعلته سابقًا بك، عانيت منه كثيرًا، لم أستطع مسامحة نفسي فكيف أطلب منك أنت الغفران والنسيان؟..



وها أنا أتعذب من جديد لأنني لا أستطيع الشعور بحبك كالسابق، أم أنه كان شفقة بالزوج الأعمى!.. رفقا بعاهته!.. تركتِه يعذبك ويطغى ويتجبر!..

لكن عندما عاد قويًا كما كان ظهرت قوتك ونديتك في مواجهته!..

عقلي أكاد أفقده، فقط عقدت العزم ألا أضغط عليكِ ثانية، بل سأترك لك حرية اتخاذ القراروبعيدًا عني أيضًا..

(٢٤)

أتعلم "وليد"؟..

ربما لو أصررتَ يومها، صبرتَ قليلًا، ضممتني أكثر معلنا أنك لن تتركني، عاندتَ وواجهتْ، أخبرتَني أنني لك مهما حاولتْ ، ربتَّ عليّ بحنو وأظهرت بعض لمحات عشق!.. ربما كنا عدنا حبيبين بالفعل..

لكنك كعادتك اخترت الطريق الأسهل واستسلمت، على وعد بأنك ستظل تحاول..

أي وعد هذا وأنت مع أول مواجهة انسحبت!..

تترك لي حرية القرار وأنت لم تحارب لأجل حب تريد نيله مني، حتى لو حاربتني أنا!..

مرت الأيام التالية باردة كئيبة، دخل فصل الشتاء بهدوئه وصقيعه، أمطار شديدة في كل مرة أراها أدعو لنا ثم أخصك بدعوة أخرى من قلبي أن تعود إليّ كما كنت..



أن نحيا كأسرة طبيعية، زوج وزوجة متحابين، بينهما طفلين بالدنيا وما فيها..

قلقي بلغ مداه، أنا في شهري الثالث الآن..

أحتفظ بحملي سرًا، أخبئ عنك غثيان كل صباح، أبقى في الفراش حتى تخرج لعملك، حتى الطعام أتناوله قبلك كي لا يظهر عليّ أي شيء أمامك..

في الغالب ظننتَه أنت قرارًا بالهجر مني، لكنه الخوف!..

لو ألمح شيئا منك يطمئنني!.. ألتمس بعض حنانك لكنك فقط تنأى بنفسك بعيدًا وحيدًا تاركًا إياي أعاني وحدتي أيضًا..

شهر آخر وستبدأ بطني في الظهور.. مرتعبة أنا "وليد" من رد فعلك، أود أن أخبرك لكن خوفي يكبلني..

بعد آخر مرة تحادثنا فيها بوضوح بحوالي أسبوعين، عدتَ من عملك باكرًا، وقتها كنت أشاهد التلفاز.. قناة وثائقية لفت محتوى برنامجها نظري فتابعته..

"غفران" نائمة وأنا وحيدة..



شعرتُ بك تدخل إلى الغرفة فالتفتُ إليك، على وجهك بدا وكأنك ترغب في قول شيء ما، ترددتْ ثم أتيت لتجلس إلى جواري، تطلعتَ للتلفاز لدقيقة ثم عقدتَ حاجبيك متناسيًا سبب وجودك الأساسي وأنت تسأل:

- ما هذا؟.. ماذا تشاهدين؟

ابتسمت رافعة حاجبي، منذ متى تهتم بما أفعل!.. لكنني رغمًا عن ذلك أجبتك:

- برنامج وثائقي عن البركان الأزرق، يبدو لافتًا للنظر أليس كذلك؟

نظرت إلي مغمغمًا:

- البركان الأزرق؟

تنهدت ثم شرحت لك:

- نعم بركان إيجِّن IJEN في جاوه الإندونيسية.. حممه زرقاء كما ترى، للوهلة الأولى تشبه شلالًا من المياه، لكنك تكتشف أنها حمم حارقة على كل حال..

ابتسمتَ في تعجب، ثم تطلعتَ إليه ثانية قائلًا:



- سبحان الله.. يبدو جميلًا، من يصدق أن هذه حمم!

بقيتُ صامتة لثوان أنظر إليك وأنت تدفن عينيك في التلفاز كأنك تتفادى النظر إلي، فجأة وجدتني أقول بتساؤل:

- أتعلم من يشبه هذا البركان؟

التفتَ إلي متسائلًا فأجبت بسرعة قبل أن أجبن:

- يشبهك..

عقدتَ حاجبيك في عدم فهم، هززتَ رأسك بعدها ثم سألتني:

- ماذا تعنين أنه يشبهني أنا؟

ابتسمتُ في حزن، ثم قلتُ بعد تفكير قصير:

- نعم وليد.. يشبهك بشدة، تبدو رائعًا في كل شيء لمن يراك، لكن فقط من يقترب منك يحترق بحمم غضبك.. والتي لم تنل من أحد غيري..

بدا بعض الحزن على وجهك، خفضتَ عينيك أرضًا وأنت تهمس:

- أنا أحرقتكِ شهد؟

احتفظت بابتسامتي وأنا أجيبك:



- ماذا ترى؟.. هل أنا شهد التي عرفتَها طيلة عشرين عامًا؟.. أم التي أحرقتَ روحها طوال ست سنوات مضت ونثرتَ رمادها في الهواء بكل قسوة؟..

رفعتَ عينيكَ إلي في ألم.. ضغطت شفتيك في محاولة لحبس الحروف داخل حلقك، يبدو أنك تجاهد لقول شيء ما لكنه فقط ثقيل على لسانك!..

أهو اعتذار ربما؟..

هل يمكنني أن أتمنى شيئا كهذا؟.. أفقتُ من شرودي على صوتك الحزين:

- لقد عدتُ مبكرًا اليوم لأخبرك أنني مسافر في الغد لأسبوعين.. عمل..

نظرتُ إليك فاقدة للأمل، ثم أومأت برأسي إيجابًا في صمت.. سألتني فجأة:

- ألا تريدين أن تأتي معي؟

رفعتُ عيناي إليك في دهشة.. أهذا حبل ود آخر تمده إليّ؟..

وماذا تنتظر مني هناك معك؟..



لم أكن لأقدر، أريد متابعة حملي والاطمئنان على طفلي، لا أريد الابتعاد عن هنا حيث الدعم والسند والرفقة التي تشد من أزري.. لذلك قلت:

- لا وليد.. أنهِ عملك وعد، سأكون بانتظارك..

نظرة عينيك لحظتها جعلت قلبي يراودني عن صك غفران وقعته منذ عرفتك وانتويت اختلاق الأعذار لك..

لقد وعدتِ يا فتاة وها هو الآن يخطب ودك ثانية..

حثني على طي هذه الصفحة بل وإغلاق الكتاب كله وفتح آخر جديد بصفحات بيضاء، نسطر محتواه معا بألوان أخرى أكثر إشراقًا، عشقًا، وقربًا..

لكنه خوفي.. يعود في كل مرة فيلجمني، يحبسني خلف أسوار التردد والقلق وشيء من رعب كلما تخيلت رد فعلك على حملي!..

أنت من أوصلتني لهذا المكان "وليد"، أحاول كثيرًا مسامحتك والعودة لما كنا قبل ست سنوات.. قبل حادثتك، لكنني فقط أتجمد مكاني في كل مرة كمن فقد قدرته على الحركة وأصبح مشلول العقل والجسد..

همستَ لي من جديد بعدما لاحظتَ شرودي في خيال لن يتحقق:

- أواثقة شهد!.. أريدك معي، وغفران أيضًا.. ثقي بأنني لن أطالبك بشيء لا ترغبين فيه، فقط أريدكما حولي..

رفعتُ عينيّ لتلتقي بنظرة الأمل بين أهدابك حالكة السواد..

نبض قلبي فجأة وأنا أرى نظرتك إليّ، كدتُ أبكي وأرمي بنفسي بين ذراعيك صارخة بحبك وأن يكفي ما فات..

لكنني عدت أعاند قلبي ثانية.. تماسك قليلًا، اصبر بعض الشيء، اتركه يتعذب لفترة أطول ليعلم قيمة ما كاد أن يضيعه.. لذلك أجبتك بلهجة قاطعة:

- لا وليد.. فلنبتعد لبعض الوقت، نعيد ترتيب أوراقنا ونفكر بشكل أوضح بدون ضغوط.. سأبقى هنا، ولا تقلق ستعود لتجدني في انتظارك، على الأقل لنضع بعض النقاط على الحروف ونرى كيف سيكون مستقبلنا معًا!

بدوتَ قلقا للحظات، لكنك في النهاية أومأتَ برأسك في صمت وخرجتَ من الغرفة بهدوء..

تابعتك لثوانٍ ثم أغلقت عيناي في ألم، أشتاق لحبك ونظراتك الولِهَة الحنون، تفهمك ورقتك التي كنت تغمرني بها دومًا..

تركتُ آلامي تسبح بعيدًا وسبحت أنا ضد تيار وجعها عائدة معك لذكريات طفولتنا وحب مراهقتنا القديم..

ابتسم قلبي في استكانة لحاضر أحياه وصَمَتَ على أمل في غدٍ يشبه ماضيًا عاشه لحظة بلحظة ولا يستطيع محوه من خلايا ذاكرته أبدًا..

***

ألقيت عرضي على أمل.. وما توقعته هو ما تلقيته..

سأظل أحمقًا.. لكنني أحمق يعشقك، لا بل يذوب عشقًا في ابتسامة شفتيك، لمعة عينيك الغاضبة، تذبحه دمعة تسيل على وجنتيك..

أعلم أنني أسلتها أنهارًا، لكنني كنت أعمى.. قلبًا وقالبًا، والآن بعدما عاد لي بصري وبصيرتي أدركت ما أضعته بحمقي وتهوري وشيطاني القاسي..

قلتِ لي أنني كبركان، وليس أي بركان، بل أزرق بارد من بعيد، لكنه لا يعدو عن كونه مجرد حمم.. مهما بدت رائعة تخطف الأنفاس فهي لاهبة حارقة قاتلة، فقط تحرقك أنت.. تقتل روحك وتحولها رمادًا..



أوجعني قلبي لكن أنَّى لي جدالك وأنت على حق، رفضتِ مصاحبتي فلم أجد بدًا من الصمت..

ذلك العمل لم يكن يستدعي وجودي الحتمي لكنني وجدتها فرصة للابتعاد، كما قلتِ أنت؛ لترتيب الأوراق، لأترك لك حرية التفكير بعيدًا عني، لأهرب من عذابي وأنت تتحركين أمامي كل يوم تقذفين قلبي بنظراتك الجامدة الباردة، وأنا أغلي شوقًا إليك..

أسبوع مر على سفري، ازداد العمل فدفنت نفسي فيه، تزورين أحلامي كل يوم وليلة، أغمض عيني مرهقًا في مكتبي فأتخيلك أمامي تمسحين على شعري بحنو لتمحي إرهاق بُعدك وصدُّكِ لي..

أنام في فراشي فأغوص في حلم يغزوه دفئك وكلمات عشقك..

قبل سنوات كنت أعلم أنني أحبك بشدة، أغار عليك بجنون، أرغب في سجنك بين ضلوعي بجوار قلبي.. ومرت سنون الظلام والظلم، لأراكِ من جديد وأتأكد أن ما كان يسكنني سابقًا لم يكن شيئا يذكر مقابل ما أشعر به الآن..

لا عشق يكفي، ولا وَلَهَ يعبر، ولا غرام يغني.. غيرة!..



عن أي غيرة كنت أتحدث؟..

فما بداخلي الآن سعير حارق، خوف مبهم وقلق يشيب لهوله قلبي في كل لحظة..

أخشى قرارًا بفراق يصدر من بين شفتيك، وثيقة إعدام توقعينها طلبًا لانفصال، سأموت لو تركتني معشوقتي..

كلما مرت دقيقة بدون رؤياك يزداد خبالي أكثر وأكثر، فقدت شهوة الطعام والشراب، لم يعد جسدي يفتقد حاجته للنوم، سهادي وأرقي أصبحا هما دواؤه لأنني فقط أفكر فيكِ.. أحلم بك، أصحو على كابوس مزعج تفترق فيه أصابعنا بألم، وانكسار أراه في عينيك..

بعد أيام لحق بي "رمزي"، سعدت بوجوده للغاية فالعمل ازداد وتركيزي لم يعد كما كان..

مرت عشرة أيام وأنا هنا أحترق بنار الفراق، والاشتياق ولوعته، لم أستطع الصبر أكثر..

هذا يكفي سأعود، سأعود لأسلبك قلبك من جديد..

لأجعله لي..



يهواني ويذوب بين يدي..

كفى صبرًا وعنادًا وتكبرًا وغرورًا..

لن أتذلل لكنني سأنتزعه من بين جنبيك وأسكنه في أحضان ذلك المغرم بين ضلوعي..

وإن حاول الاعتراض أو الكلام فسأخرسه بجنون عشقي وجموحه..

سأكون ذلك الفارس العاشق الثائر ثانية، وعلى جواد الهوى سأختطفك، في قصة خرافية أُسكِنك وأغلق عليك وعليّ دفتي الكتاب..

أصم أذنيّ عن كل ما حولي فقط لأسمع دقات قلبك تهتف باسمي، وصدقيني صغيرتي سأجعلها تصرخ به..

عقدت العزم على إنهاء ما يحتاج لوجودي هنا اليوم على أن أكون في البيت غدًا، تعجلت وكنت متلهفًا بشدة لأبثك حبي من جديد وأحلق بك في سماء أحلامي..

اليوم التالي كان باردًا والمطر يشتد رويدًا رويدًا، عدت بأسرع ما يمكنني وكنت في البيت قرب الغروب، دلفتُ إليه والشوق يلفني لأجده فارغًا!..



لا أنت ولا "غفران" هنا.. ترى أين أنت؟.. هل ذهبتِ لخالتك كما أخبرتني أنك ستزورينها خلال سفري؟..

نعم أنتِ لم تحددي يومًا معينًا.. أهو سوء حظي لأعود في يوم ذهابك إليها؟..

حسنًا لا ضرر من الانتظار قليلًا.. لن أهاتفك، فقط سأنتظرك وعندما أراك سأضمك بين ذراعي ولن أفلتكِ أبدًا حتى تقسمي على أنك سامحتني..

غربت الشمس والوقت يمر، المطر لايزال ينهمر وإن خفت حدته بعض الشيء، بدأ شيء من غضب يتسلل بداخلي..

لمَ تأخرتِ!.. ولمَ لم تحددي موعد ذهابك من قبل وتخبريني به؟..

كنت أذرع المكان ذهابًا وإيابًا ثم قررت الخروج متلهفًا لأنظر عبر بوابة المنزل الخارجية كأنني طفل ينتظر مرور بائع الحلوى..

فتحت الباب وخرجت، بضع خطوات ثم توقفت وتوقف قلبي عن النبض!..

كنتِ معه.. تأخرتِ معه..



تقفين خارج منزلنا تحادثينه بابتسامة، قطرات رقيقة من المطر تصطدم برأسي وأنا أقف في الظلام أتطلع إليكما وضوء مصباح البوابة الكبير يغمركما..

ذبحتِ قلبي "شهد"..

أنا المخطئ، أخطأت كثيرًا وآخر أخطائي عندما منحتك فرصة لأنال حبك ثانية..

لن أناله..

لقد منحته لغيري، وبرحابة صدر!..

***

الغياب بالفعل يصنع المعجزات..

افتقدت عيناك اللتان تتابعان خطواتي في كل لحظة، افتقدت محاولاتك استرضائي ونيل حبي، أوحشني صوتك وهو يرجوني أن أكون لك من جديد، حتى شرودك ولهفتك وغيظك، غضبك وغيرتك، ضحكاتك المرحة مع طفلتنا، نظراتك المشتاقة، كلها أوحشتني بشدة..

في أكثر من مرة رغبت في محادثتك، أطلب عودتك، لكنني أتراجع في اللحظة الأخيرة منكرة على قلبي فعله.. أستنكر بشدة خنوعه الغريب للمحات عشقك الصغيرة التي كبلته بها مؤخرًا..

وفي نفس الوقت لا أملك منعه من التمتع بها والتلهف لرؤيتها من جديد..

كنت أخبرتك أنني سأزور خالتي أثناء سفرك ولم أحدد يومًا معينًا، حددت اليوم الذي ينبغي فيه أن أذهب لمتابعة حملي والذي سيظهر قريبًا فلابد أن أخبرك عنه وذهبت لزيارتها..

طلبت منها أن تبلغ زوجة ابنها برغبتي في أن تصحبني للطبيبة، كان اليوم لطيفًا، خرجت معها وطمأنتني طبيبتي على جنيني، ثم عدنا لمنزل خالتي..

الجو كان باردًا مطيرًا ذلك اليوم، كآبة الشتاء تطغى على كل شيء، لكن صحبتهم جعلته أجمل..

فجأة وجدت "كريم" ينتحي بي جانبا ليسألني بود ممتزج بشيء من قلق:

- شهد.. لمَ تبدين ذابلة هكذا؟.. هل تشاجرت مع زوجك؟.. هو مسافر صحيح؟..

ابتسمت له مطمئنة وأجبته غير عالمة بسبب قلقه:



- ذابلة يا ابن خالتي لأنني حامل كما تعلم.. لا آكل جيدًا، الغثيان وفقدان الرغبة في الطعام ملازمان لي.. ولم أتشاجر مع وليد بالطبع هو مسافر ومن المفترض أن يعود نهاية الأسبوع..

سألني متذاكيًا:

- ألاحظ أن زيارتك لوالدتي تكون دومًا أثناء غيابه، هل يمنعك عنا؟

أصابني التوتر لكنني حبسته بداخلي محتفظة بابتسامتي لأقول باستنكار:

- بالطبع لا.. لم يمنعني، أنت تعلم، بعد حادثته لم أكن أتركه أبدًا خاصة بعد رحيل والدته ووالدي.. وعندما سافر وعادت خالتي أتيت إليها أكثر من مرة، وأنا هنا اليوم لرؤيتكم وفي نفس الوقت الذهاب لطبيبتي.. الحركة ترهقني ولا أدري لمَ!

بدا متشككًا، صمتَ لثوان ثم قال بحزن امتزج بحنان أخوي لم أحظَ بمثله أبدًا:



- حسنًا يا ابنة خالتي.. كوني بخير دومًا، وإن احتجت لشيء فأنا أخوك الأكبر، طوع أمرك.. سنرحل الآن أنا وهبة وسنمر على والدتها، هل نوصلك في طريقنا؟

قبلت عرضه في امتنان، وعندما حملت "غفران" شعرتُ بها دافئة، أصابني القلق فسألتني زوجته:

- ما بها غفران؟.. هل ارتفعت حرارتها؟.. الجو المتقلب البارد هذه الأيام يصيب الأطفال بالمرض دومًا..

أجبتها والقلق يتربع بداخلي:

- أتمنى أن تكون بخير، سأعود معكما للمنزل وأعطيها دواءها ونرى.. لو استمر ارتفاع حرارتها سأذهب بها للطبيب في الغد، الجو مازال ممطرًا في الخارج..

أومأت برأسها ثم ودعتُ خالتي واتجهنا لسيارتهما.. أوصلاني للمنزل، طوال الطريق كنت أفكر بك.. لم أعد أحتمل الفراق والجفاء، سأنتظر عودتك وأحضر عشاءً لنا نحن الاثنين أخبرك بعده أنني لك مهما حاولت الإنكار أو الرفض..



ثم أعلمك بحملي..

أشعر الآن أنك ستسعد به.. لقد تغيرتَ كثيرًا وعاد الأمل ينبض بصدري من جديد..

ذلك القرار الذي اتخذتُه في لحظات عشق هوجاء تملكتني فجأة رسم ابتسامة على شفتي ومنح قلبي شيئًا من سعادة لطالما تمناها..

أفقت من شرودي عندما توقف أمام المنزل، كانت السماء لاتزال ترسل بقطرات خفيفة من المطر فحمل "كريم" ابنتي وغطاها بسترته حتى بوابة المنزل الخارجية، هناك تناولتها منه شاكرة، حاولت أن أعيد له سترته لكنه أصر:

- لا تهتمي.. الفتاة مريضة، سآخذها منك لاحقًا..

ابتسمت له بامتنان وسألته:

- ألن تشعر بالبرد؟.. أخبرتني أنك ستذهب لوالدة هبة..

بادلني ابتسامتي مجيبًا:

- لا تقلقي.. من السيارة للمنزل ثم عودة للسيارة، لن أبرد، ادخلي بسرعة فالمطر لايزال ينهمر وطمئنينا على غفران في الغد..

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أشكره ثانية بخفوت..

فتح لي الحارس البوابة ودخلت بسرعة، لم أكن أرى أمامي جيدًا، الليل وعقلي الشارد معك، حتى اقتربت من باب المنزل الداخلي لأجدك هناك في الظلام..

ارتعشتُ للحظة في خوف حتى تبينت ملامح جسدك فاطمأننت، سُعِدتُ لعودتك باكرًا.. فهذا يدل على اشتياقك لي، لقد كسرتَ القانون الذي وضعته على قلبك لتبتعد عني، وهذا أبهجني بشدة..

رسمتُ ابتسامة على شفتي فعودتك لم تغير من خطتي شيئًا بل عَّجلت بها فقط وهذا أدعى لسرور قلبي..

اقتربت منك مرحبة وهو ينتفض بين ضلوعي حبًا..





(٢٥)

ظللت منتظرًا هناك..

رأيته يقف أمامك وعلى الرغم من زواجه ومن طفله الصغير لاتزال عيناه تحيطانك بضمة عشق تلهب قلبي..

كان يحمل "غفراننا" نائمة وقد غطاها بسترته، حديثك معه، ابتسامتك المرحة، تأملك له وهو يحادثك!..

اشتعل جسدي بنيران غضب أعمى..

رأيته يناولك الصغيرة وأنت تحاولين إعادة سترته له فيرفض هو، نظرة امتنان وابتسامة شكر منك!..

استعر الجحيم بداخلي..

لظاه سيصليك بعذاب لن تتحمليه، أتخونينني "شهد"؟..

هل هذه هي النهاية؟..



مللتِ حياتك معي، أرهقتك قسوتي، أتعبك جفائي ولامبالاتي فبحثت عن الحب والعشق مع غيري؟..

ومن؟..

غريمي اللدود "كريم"!..

ألهذا تمنعين نفسك عني منذ عودتي من سفري؟..

ألهذا لم يسعدك شفائي بما يكفي؟..

ولهذا كلما اقتربت منك تجمدت كلوح ثلج قطبي؟..

وأنا الأحمق الذي عدتُ متلهفًا مشتاقًا لأبثكِ حبي!..

حسنًا زوجتي العزيزة.. لقد انتهى الأمر، وهذه المرة ستكون هي النهاية القاصمة..

دخلتِ بسرعة من بوابة المنزل الخارجية وأنت تحملين "غفران" مغطاة بسترة معشوقك الجديد، تحمل رائحته ودفء جسده، وجدتنِي واقفا أمام باب المنزل الداخلي..

كانت عيناي تمتلئان ببرود لم أعلم من أين أتيت به!..



ابتسامة ترحاب ترتسم على شفتيك، أستخدعينني يا صغيرة؟.. لا أظن، اقتربتِ وأنت تهتفين:

- وليد.. متى عدت؟.. موعدك كان بعد يومين!..

ثم اقتربتِ أكثروابتسامتك تتسع مكملة:

- حمدًا لله على سلامتك..

أكنت تريدين مني التأخر أكثر؟.. لتقضي وقتًا أطول مع حبيبك الجديد؟..

أوربما القديم!..

وأنا كنت الغبي المخدوع طوال الوقت، لمحتِ البرود والقسوة على وجهي فصمتِ لثوان ثم وقفت أمامي وسألتني:

- ما بك وليد؟.. أأنت بخير؟

كللني الصمت للحظات وأنا أتطلع إليك بغضب مكبوت، ثم جذبتك بعنف من مرفقك لألتقط الصغيرة منك..



ألقيت سترته على أرض الحديقة وأنت تتطلعين إليّ بدهشة وعدم فهم، حملتها بيد وبيدي الأخرى قبضت على ذراعك وقمت بجرك خلفي بسرعة.. ناديت مربية "غفران" وناولتها إياها هاتفًا:

- اعتني بها..

أمرًا سريعًا مقتضبًا وأنا أجذبك خلفي بلا اهتمام لتقولي بسرعة:

- وليد انتظر.. غفران حرارتها مرتفعة تحتاج لدواء..

لم أهتم بكلامك، بل صعدت بك للطابق العلوي نحو غرفتي، دفعتك داخلها وأغلقت الباب خلفي..

وقفت أتطلع إليك وعيناي تكادان تخنقانك، أما أنت فقد تأوهت في ألم وتساءلت في عدم فهم:

- ما بك وليد؟.. أخبرتك أن غفران مريضة بعض الشيء وتحتاج لبعض الرعاية..

تجاهلت كل شيء، وكل حرف نطقت به، وكان سؤالي ناريًا غاضبًا:

- ألهذا تمنعين نفسك عني شهد؟



علت الصدمة وجهك، بدا عدم الفهم على ملامحك، تساءلت بحروف متقطعة:

- ماذا!.. لماذا؟.. ماذا تقصد؟.. وما علاقة ذلك بصغيرتنا؟

اقتربت منك وتنين الغضب ينفث لهيبه عبر أهدابي، أمسكتك من مرفقيك وهززتك بعنف، صرخت في وجهك:

- لأجله زوجتي؟.. تحرمينني حقي فيك، تحتفظين بنفسك لأجله؟.. أهذا هو ما استطعت فعله؟.. هل يعوضك قسوتي بحنانه؟.. كيف يلمسك!.. برقة و رغبة تسعدك وتشبع غرورك الأنثوي؟.. يسمعك كلمات العشق ويذيبك بين ذراعيه؟.. تخونينني شهد!..

بدا الذهول على وجهك، مزيج من الخوف، الرهبة والصدمة القوية، انتزعتِ نفسك من قبضتي وصرخت أنت الأخرى:

- هل جننت وليد؟.. عمَ تتحدث بالضبط؟

لوحت بذراعي في وجهك بعنف وقلت:

- الحبيب العاشق كريم..



اتسعت عيناكِ ذعرًا، رائعة أنت في إدعاء البراءة "شهد"، كأنني كنت سأصدق!.. صرختِ في وجهي باستنكار جنوني:

- هل جننت وليد؟.. أنا أخونك؟.. ومع من؟.. ابن خالتي المتزوج!.. لا هذا يكفي.. هذه هي القشة الأخيرة، لن يمكنني الاستمرار معك بعد اليوم، أنت لا تطاق منذ تزوجنا.. تقسو و تقسو و تقسو، وأنا أتحمل وأتحمل حتى أهلكت روحي وقلبي الذي تشبع بعشقك يومًا ما، لكن إلى هنا وانتهى الأمر.. أن تطعن في عرضي وتشكك في أخلاقي التي تربيت عليها منذ ولدت فأنت لا تلزمني في شيء، تذكر كل ما كنت تقوم به، نساءك وسهراتك ومساعدتك الجميلة التي قبلتها أمام عيني.. وأنا أسامح، هو غباء مني بالفعل، فمثلك لا يستحق الغفران ولا يستحق الحب.. طلقني وليد..

كل ما قلته وقتها كان في كفة، وكلمتك الأخيرة في كفة أخرى رجحت هي، تريدين الطلاق!..

كيف نطقتها؟..

لم يمكنني استيعابها بسهولة فصمتُ بضع لحظات ثم كانت الصفعة..



ولأول مرة وعلى الرغم من معاملتي الجافة الشرسة لك فيما مضى فهذه الأولى التي أرفع يدي عليكِ فيها..

بنظرتك الذاهلة وتلك الدماء التي ظهرت عند طرف شفتيك حدقت فيّ لكنني لم أكن أرى أمامي، جذبتك بكل ما أوتيت من قوة و قلت في صرامة وأنفاسي كلهيبِ نيرانٍ تحرقك:

- تريدين الطلاق لتذهبي إليه؟.. هل وعدك أن تكوني زوجته الثانية؟.. في أحلامك شهد، أتسمعين؟.. لن تناليه أبدًا ومنذ اليوم ما أريده فقط هو ما سيحدث، مهما اعترضتِ أو رفضتِ..

قاومتِ قبضتيّ بشدة وحاولتِ التملص منهما وأنت تصرخين في غضب:

- هذه هي النهاية وليد.. بالفعل أنت لا تستحق، خمس سنوات من العذاب والتحمل والصبر والدعاء وأنت كما أنت وفي النهاية تختم قذاراتك بضربي والطعن في شرفي.. اكتفيت ولن أكون لك أو في بيتك بعد اليوم حتى لو غادرت العالم كله..



لأول مرة أراكِ غاضبة، تخلصتِ من ضعفك ولم تكن هناك دموع كعادتك، لتأتي الصفعة الثانية وتزيد من دماء شفتيك واتساع عينيك المرتعب..

تشبثت بك أكثروهتفت والغضب لا يترك لي مجالًا للفهم أو التعقل:

- خمس سنوات شهد؟.. كم منها كنت أعمى بسببك أنت ووالدك؟.. أتريدين أن تعرفي سبب عذابك طوالها؟.. لأنك ابنته زوجتي العزيزة.. ابنة قاتل والدي!..

شعرت بك تسقطين أرضًا فأمسكتكِ بقوة، اتسعت عيناك أكثر وتسارعت أنفاسك ثم همست بحروف متقطعة:

- ماذا تقصد؟.. قاتل والدك!.. هل أصابك مس من الجنون؟..

نظرت في عينيك وقلت بنفس الصرامة التي امتزجت ببقايا ألم:

- جنون!.. نعم ربما، الثروة، الشركة، الميراث، وزوجته!.. العشيقة القديمة التي استولى عليها الأخ قبله، لكن حان وقت استرجاعها وتملك ما يملكه.. زوَّج ابنته للابن، قتل الوالد وابنه، وإحياء قصة الحب القديم، لتنتهي الحكاية بنظافة.. لكن يشاء القدر أن تخطئ الطعنة قلب

الابن، ويعيش في ظلام لست سنوات.. من أفضل من الصغيرة المدللة لأشبع بها رغبتي في الانتقام؟.. من أفضل منها لأذيقها العذاب وأقتص منها لدماء ضحية الغدر؟

دارت عيناك في محجريهما، كأنك ستفقدين وعيك بعد قليل، كأنك أصبتِ بالشلل، همساتك ضعيفة غير مصدقة:

- والدي أنا!.. لا يمكن، مستحيل، لا يمكنني تصديق ذلك.. أنت مجنون وليد، حتمًا أنت مجنون..

نظرتِ في عيني لتعلمي أنني عنيت كل حرف نطقت به، فهتفت:

- لا.. لا.. إذًا عندما علمت من هو قاتل والدك والذي تسبب في عماك لمَ لم تخبر الشرطة!.. لمَ لم تترك العدالة تأخذ مجراها وتحاكم من غدر؟.. لمَ!..

جاوَبتْكِ ضحكتي الساخرة، لأقترب منك أكثر وأجيبك بقسوة:

- أي عدالة يا صغيرة؟.. وبعد كم سنة سيقررون ويحكمون؟.. أتعلمين ماذا سيكون حكمهم إن صدر؟.. الإعدام طفلتي، الموت..

قلتِ ودموعك تبدأ في الانهمار لتغذي غضبي:



- وما الفارق وليد؟.. أنت هنا تعدمني في كل ساعة، وقتها كنا سنموت مرة واحدة، لكن حياتي معك موت في كل لحظة.. لا أصدق أنك تظن ذلك في عمك، والدي قاتل!..

طعنتني كلماتك في كبريائي..

لا ليس قلبي..

فقلبي وقتها توارى بعيدًا مرتجفًا في رعب مما كنت أفكر فيه، كان جوابي أن تحركت بك للخلف وأنا أهمس بلهجة مخيفة:

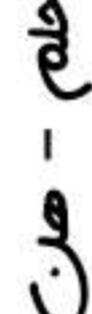
- حسنًا زوجتي العزيزة.. الآن حان وقت رصاصة الرحمة..

ارتسم الذعر على وجهك، وأنت تنظرين خلفك في توجس ثم التفتِ ثانية لتتقابل أعيننا.. تساءلتِ في رعب:

- ماذا ستفعل وليد؟..

دفعتك بقوة على الفراش ثم أجبتك بصرامة باردة وأنا أخلع سترتي وألقيها جانبًا:

- سأحصل على ما منعتني إياه طيلة الشهرين الماضيين.. ولمرة أخيرة شهد..



وبالفعل..

اقتربت منك وأنت تقاومينني في عنف لم آبه له.. كنت ضعيفة دومًا فكيف ستمنعينني؟..

صرخاتك وتوسلاتك كلها لم تؤثر بي، حتى صرختِ فجأة:

- توقف وليد أرجوك.. ليس بهذه الطريقة، سأمنحك ما تريد لكن توقف.. أنا حامل!..

علتْ الصدمة وجهي، رفعتُ رأسي أنظر إليك، وبعدم فهم سألتك:

- حامل!..

أومأتِ برأسك إيجابًا ودموعك تغرق وجهك، فصرختُ فيك:

- ممن هذا الجنين شهد؟.. أنا لم أقربك منذ ثلاثة أشهر، كيف تحملين؟.. كيف؟..

أجبتني والبكاء يغلف حروفك:

- منك وليد.. أقسم لك لم يلمسني غيرك، عمر جنيني ثلاثة أشهر، علمت بحملي أثناء سفرك..



وأنا فقط أصرخ، فقدت عقلي للحظة كأنني أصبت بالجنون وصحت:

- كاذبة.. أنت حتى لم يظهر عليك عرض واحد من أعراض الحمل، حتى وإن كنت حاملًا فهو ليس ابني أبدًا.. أكنت تقابلينه في غيابي يا زوجتي البريئة؟.. وتتبجحين بحملك منه لتوقفيني؟.. أي وقاحة تلك؟..

ثم عدت لوحشيتي..

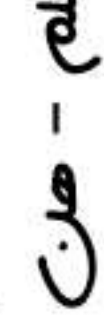
تجاهلت صراخك، خمشك بأظافرك في كل مكان استطعتِ أن تطالينه مني، رفضك ومنعك لي، وكلما حاولتِ الهروب أو الابتعاد دفعتك بعنف لتعودي فوق فراشٍ رأى في كل مرة لحظات قهرك..

تهالكتِ بضعف وأنهيتُ ما أردت.. لم يكن ما فعلته لرغبة بخائنة، بل فقط لمزيد من الإهانة والإذلال والقهر..

لتعلمي أنك ملكي مهما حاولتِ..

لتتيقني أن طلبك للطلاق هو مجرد أمنية لن تناليها أبدًا..

تركتك لأقف أسفل الماء المنهمر بقوة، أغسل روحي أنا منك هذه المرة، شعرتُ بقرف شديد من نفسي ومنك، غثيان أصابني جعلني أفرغ معدتي وأنا أتطلع لوجهي في المرآة بدهشة..



رأيت شيطانًا أحمر العينين أشعث الشعر يطل الجنون من ملامحه يبتسم ساخرًا في مواجهتي، بدا وكأنه يخاطبني في خبث:

- حسنًا.. لقد كسرتها ثانية؟.. لكن أهذا كافٍ؟

نبتت فكرة شيطانية أخرى في عقلي..

لقد مكنتِ آخر منك ليشاركني فيك، وسأفعلها أنا أيضًا.. وكل يوم، أمام عينيك!..

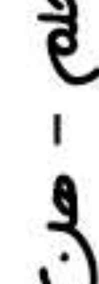
خرجت من الحمام لأجدك منكمشة على نفسك كجنين في بطن أمه، نحيبك يشجي سمعي، تطلعت إليك لحظات ثم ارتديت ملابسي وخرجت من الغرفة لأتفاجأ بالعينين العسليتين الصغيرتين تنظران إليّ في رعب!..

يا إلهي!..

حاولت الاقتراب منها لأجدها تتراجع للخلف بسرعة باكية ثم ركضت من أمامي والذعر يملأ ملامحها..

صغيرتي "غفران" سمعت صراخك، غضبي، وحشيتي، توسلاتك.. رباه!..

أغمضت عيناي في ألم، ثم التفتُ أتطلع إليك ثانية عبر الباب المفتوح وأنت على وضعك..



عدت لأغلقه واحتفظت بمفتاحه في جيبي، ناديت مربية الصغيرة وأمرتها:

- اهتمي بغفران جيدًا.. ولا أحد يحاول فتح هذا الباب، مفهوم؟

أومأت برأسها وقالت:

- نعم سيدي، لكن فقط...

لم أعطها فرصة لتتم حديثها، فقط نهرتها وأنا أنزل الدرج بسرعة غاضبًا:

- لا لكن..

خرجت من المنزل إلى سيارتي.. قدتها بسرعة جنونية، كأنني أكسر مع قوانين المرور قوانين قلبي..

قلبي الذي كان يبكيكِ الآن..

هل تحملين طفلي بالفعل؟.. هل خنتني؟.. هل مكنتِ آخر منك لتقهريني!.. لتعوضي ما ينقصك معي؟..

اتجهت ليمين الطريق وتوقفت، اختمرت الفكرة في رأسي، ولم أتردد في تنفيذها!.. طلبت رقمها بهاتفي وعندما سمعت صوتها الناعم قلت بحزم:

"أتتزوجينني ضحى؟.."



***

آه من وجع يغزو جنبات القلب فيقبض عليه بعنف.. يعتصره بقسوة، يُسيل منه حياته قطرة قطرة..

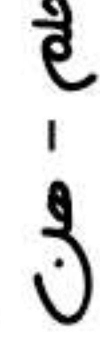
وآه منك "وليد" كلما تذكرت كرهتك وكرهت نفسي، كرهت خنوعي وخضوعي وضعفي، كرهت عشقي لك الذي أذاقني الذل وأسقاني الهوان..

تلك الذكرى هي التي تقف حائلًا بيني وبينك، قد أسامح ما سبقها وإن كبُر، لكنها كانت قاضية، حاسمة..

ذبحتَني ببطء بسكين بارد، وأنت تستعذب آلامي ونزيف أنيني وتأوهاتي، أحببتك وقلبي إلى الآن متعلق بك، ببقايا كانت بيننا، بحب أراه كل يوم في عينيك، لكن خوف من ماض سقيم، وذكرى عذاب ذقته على يديك، توقفني مكاني، تحجب أنفاسي وتكتم صوتي وتكتف لساني..

اتهامك الظالم لي!..

أنت من خنتني، من لمست غيري، من ابتسمت وضحكت مع أخريات، تطعن بكل تبجح في عرضي، وتصدق نفسك، ولا تصدق حملي!..



بل وتخبرني أنه إن كان موجودًا بالفعل فهو ليس منك!..

كيف جرؤت "وليد"!..

ألهذه الدرجة كنت هينة عندك!..

أنت من ربيتني وعلمتني، أنت عالمي كله، أنت والدي ووالدتي، حبيبي وزوجي القاسي ووالد طفلتي وجنيني!..

تشكك في حفاظي على شرفك، في أخلاقي وتديني، وتتهم أبي بقتل والدك ومحاولة قتلك، وقصة بلهاء عن حب قديم جمع بينه وبين والدتك!..

أدميتَ روحي وقلبي وعقلي وجسدي، ماذا أبقيتَ لي لأحيا به؟..

انتزعت كل ما تبقى مني ووطأته بقدميك بقسوة، أحرقته وصببت فوق نيرانه ماءً، فتحول لدخانٍ تصاعد في الهواء وتلاشى ببطء بلا أثر..

لا أصدق ما فعلته يومها، حتى الآن وبعد استعادة ذاكرتي لا أصدق!.. أنهيتني وأنهكتني، لم يتحمل قلبي ولم يستطع جسدي المقاومة، خرجت وتركتني، أحكمت إغلاق بابك عليّ..

ساعة قضيتها في بكاء، في ندم على كل لحظة عشتها معك، في شكوى لله منك، في ألم يمزق أحشائي حرفيًا..





كنت قد اتخذت قراري، لن أعيش معك ثانيةً أخرى، وصلت حد الاكتفاء وانتهى الأمر، لم يعد يربط بيننا سوى "غفران" الصغيرة، والتي لا أعرف إن كنت ستشكك في نسبها لك هي أيضًا أم لا!..

سأرحل منك، لا بل سأُرَحِّلُك مني..

فبعدي عنك حدث منذ زمن طويل، لكنني فقط كنت أجادل بقايا اهترأت بفعل عقلك الغاضب وبصيرتك العمياء..

تحاملت على نفسي لأقف، كدت أقع لكنني استندت إلى الفراش، نظرت إليه باشمئزاز، كنت أريد إحراقه، وإحراق قلبك إن كنت تملك واحدًا معه..

لاحظت بعض الدماء هناك، علمت أنني تأذيت، دعوت الله أن يحفظ جنيني، ليس لأنه منك فأنا لم أعد أريد شيئًا يربطني بك، لكنه لا يزال قطعة مني، سيؤنس وحدتي مع شقيقته حتى أدفن في قبري..

تحركت ببطء متفادية النظر إلى المرآة أمامي، لا أريد أن أرى ما تبقى مني، ملابسي الممزقة التي طالتها نقاط متفرقة من دمائي أو جسدي الذي أهنته وأخضعته لك عنوة..



مع الماء وجدت دماءً أخرى لينتابني بعض الذعر.. دوار ألمَّ بي، استندت للجدار البارد لثوان حتى تماسكت قليلًا، جففت جسدي وارتديت مئزري.. وبتمهل لم أتعمده خرجت من الحمام لأشعر بشيء دافئ يسيل على ساقيّ ببطء..

دوار آخر ونظرة سريعة لذلك السائل الأحمر، ثم فقدت الشعور بما حولي وغبت عن الوعي..



(٢٦)

في أقل من ساعة كنت أنطقها وللمرة الثانية..

"قبلت زواجها"..

لقد جننت حتمًا لأُقبِل على شيء كهذا.. و"ضحى" بالذات!..

التي ما إن سمعت طلبي حتى وجدتها تصرخ في الهاتف وتسألني عن مدى جديتي، لأجيبها أنني سأحضر المأذون والشاهدين وأعقد عليها في الحال إن وافقت!..

هي فعلتْها، ووفيتُ أنا بوعدي..

ثم أصبحت "ضحى" غريمة "شهد" زوجتي..

رحل الجميع وبقيت أنا وهي، كانت عيناها تبرقان بشدة، لامعتان كقطة سعيدة نالت نصيبًا زائدًا من الحليب..

جلست إلى جواري وأراحت رأسها على كتفي، أغمضت عيني لثوان، هذه الكتف ملك لـ "شهد"، لكنها في يوم لم تشعر براحة عليها!..

تسللت بأصابعها على صدري وهي تهمس بصوت كالفحيح:

- لا أصدق وليد!.. أنت الآن زوجي، مفاجأة لم أكن أتوقعها أو أتخيلها على الرغم من أنني تمنيتها منذ أول يوم وقعت عيناي عليك فيه..

ابتسمت بسخرية..

فأنا أعلم تمامًا أنها صادقة، ومن أول لحظة وهي تنصب شباكها حولي، لكنني كنت محاطًا بسياج قوي من قلب طفلة صغيرة تملكتني حتى النخاع ومازالت تفعل..

الآن راحت السكرة وجاءت الفكرة.. ما الذي فعلته بنفسي وبحبيبتي!..

أي جنون أصابني؟.. هل أنا على حق وهي خانتني بالفعل؟.. أم أنني أعمى، متهور، أرعن، غبي!..

أفقت من شرودي على يدها تداعب عنقي، نعم هي جريئة وأنا الآن زوجها، فما الذي يمنعها؟.. نهضت واقفًا بسرعة وأمرتها:

- حضري حقيبة ملابس خفيفة لتأتي معي للمنزل..



ارتسمت الدهشة على وجهها، ستظل دومًا حمقاء.. وقفت أمامي وسألتني:

- ماذا!.. أي منزل؟.. منزل شهد؟

رفعت حاجبي بسخرية وأجبت باقتضاب:

- نعم..

ترددت.. بدا الكثير من الكلام على وجهها وهي محتارة أيها تنطقه، في النهاية اقتربت مني وأحاطت عنقي بذراعيها وهمست في دلال:

- هل سنقضي ليلتنا الأولى مع زوجتك الأخرى؟.. لا وليد.. الليلة أنت ملكي، ملكي أنا فقط، دعنا نبقى هنا ونذهب في الغد..

ورفعت نفسها تقترب من وجهي، للحظات شعرت برغبة فيها، ليست كرغبتي فيك "شهد" لكنها مختلفة..

كأنني فقط أريدها لأقهرك أكثر، كأنني أعاند نفسي وأعاندك، أخبرك بوضوح أنني لم أعد لك وحدك..

أحطت خصرها بذراعي وبعد ثوان لم تطُل ابتعدت عنها..





وجدتها تنظر إلي بدهشة ممتزجة بالضيق وعدم الفهم، التقطت نفسًا عميقا أطفئ به بعض غضب تسلل لقلبي وأمرتها ثانية:

- تعلمين ضحى أنني أكره مخالفة أوامري، حضري حقيبتك الآن.. سأنتظرك بالأسفل..

وجدتها تتراجع فجأة وتظهر بعض الشراسة على وجهها، أصبح لون عينيها داكنًا أكثر وهتفت:

- أنت تزوجتني لذلك إذًا!..

لم أفهم ما تقصده، فتطلعت إليها في تساؤل أجابت عنه بعنف:

- تريد أن تغيظها وتقهرها أكثر.. صحيح؟

اشتعل الغضب بداخلي، اقتربت منها وانحنيت هامسًا في أذنها:

- نعم.. لهذا السبب تزوجتك، وهذا دورك معي ضحى.. ستكسرين قلبها وتحطمينه، ولا تقلقي.. فلكِ مني نصيب..

وابتعدت أنظر لها بوقاحة.. جابهتني بعينيها الغاضبتين، ثم وضعت كفها فوق موضع قلبي وسألتني بجفاء:





- وهل لي من هذا نصيب؟

ابتسامتي الساخرة كانت هي ردي..

هذا الذي تتحدث عنه مات منذ زمن، واندفن في قبر الغضب والانتقام..

اتجهت لباب منزلها بدون إجابة شافية وقلت بحزم:

- سأنتظرك في سيارتي، لا تتأخري..

بعد دقائق معدودة لحقت بي، تطلعت إليها في صمت وهي تتقدم من مدخل البناية حتى السيارة..

ثيابها، مشيتها، شعرها الذي يطيره الهواء بنعومة.. أي ورطة تلك التي أوقعت بنفسي في براثنها؟..

التقطت الحقيبة الصغيرة ووضعتها على الكرسي الخلفي لتجلس هي إلى جواري، انطلقت بسرعة عائدًا للمنزل حاملًا مفاجأتي الصغيرة لزوجتي العزيزة..

في الطريق حاولتْ الاقتراب مني، حاولتْ جذبي إليها، وأنا حاولتُ الاستجابة لإغوائها لكنني فشلت..



كلما اقتربت ارتسم وجهك البريء وعينيك الغاضبتين الحزينتين أمام بصري، وعندما لمست كفي تذكرت أصابعك الصغيرة عندما كنت أحتضنها بحب وأنا أوصلك لجامعتك..

فجأة انحدرت من عيني دمعة، كرهت نفسي، وفقدت تركيزي، كدت أصطدم بسيارة قادمة من الاتجاه المعاكس لولا صرخة "ضحى" وابتعاد سائق السيارة الأخرى بسرعة مع سبة ألقاها على مسامعي..

ماذا فعلتُ بك حبيبتي؟.. وماذا فعلتُ بنفسي؟..

أي مس من الجنون قد أصابني؟.. أي شيطان تملكني وأعماني؟..

أنا بالفعل أعمى، وسأظل أعمى، أرى النور وقلبي مليء بالظلام ويسبح في غياهب ليل طويل لا ينتهي..

توقفت أمام المنزل وترجلت من السيارة حاملًا الحقيبة و زوجتي الجديدة تتأبط ذراعي بنشوة ظافرة، عندما دخلت إليه كان الهدوء يغلف المكان بشكل مخيف، لا صوت..



حتى "غفران" لا تجري هنا أو هناك، هل نامت باكرًا تلك الساهرة الليلية؟.. الوقت لم يتجاوز الحادية عشر مساءً بعد، التفتُ لـ "ضحى" قائلًا:

- أمستعدة للقيام بدورك؟.. سنعلمها بأمرزواجنا الآن..

بدا عليها شيء من الغضب لكنها ابتسمت بعدها ساخرة وردت:

- كما تأمرسيدي..

عقدت حاجبي في حنق ولم أعلق، وقتها شعرت بانقباض غريب في قلبي، وجع اكتنفه فجأة بدون سبب واضح!..

ببطء صعدت الدرج وهي متعلقة بذراعي، أمام باب غرفتي توقفت، ترددت، شعرت بالخوف والقلق..

أيستحق شكي ما فعلته؟.. أهو مجرد شك؟.. أم أنني على حق؟..

بتوتر أخرجتُ المفتاح من جيبي وفتحت الباب بهدوء.. دخلت متطلعًا حولي وعروسي الجديدة تتبع خطواتي..

وقعت عيناي على الفراش الخالي لأجد بقعة واضحة من الدم فوقه!..



عقدت حاجبي في قلق وأنا أتلفتُ حولي باحثًا عنك..

ثم كانت الصدمة!..

أنت صغيرتي.. ملقاة على الأرض، تحيطك بركة صغيرة من الدماء.. ترتدين مئزرَ استحمامٍ وفاقدة للوعي!..

ألقيتُ حقيبتها من يدي وأسرعتُ نحوكِ وقلبي ينتفض بين ضلوعي فزعًا.. صرختُ باسمك وأنا أنحني لأجلس إلى جوارك وأرفع رأسك فوق ذراعي أضمك إليّ..

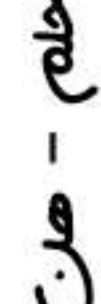
لم تجيبي!.. ظللتِ صامتة!..

وقلبي يكاد يتوقف، بل شعرتُ به وقد سكنت نبضاته بالفعل.. ناديت مربية "غفران" بأعلى صوت يمكن أن يخرجَ من حنجرتي.. وجدتُ "ضحى" تنظر إليك في جزعٍ وهي تهتف بي:

- يا إلهي.. ماذا فعلت بها وليد؟

رفعتُ عيناي إليها في ألم..

ماذا أقول؟.. وبماذا أجيب؟.. ظلتْ تتطلع إليّ في تساؤل فصرختُ فيها وأنا لا أعي ما أقول:



- أحضري عطرًا أو أي شيء واتصلي بالمشفى ليرسلوا لنا سيارة إسعاف.. ثم اذهبي للغرفة المجاورة وأحضري شيئا لها لترتديه.. أسرعي..

بسرعة بحثتْ عن أحد عطوري وعادت به، ناولتني إياه وأنا أحاول إفاقتك، ربتُّ على وجنتيك برفق وأنا أنادي باسمك..

رباه ماذا فعلت بك طفلتي؟.. ألهذه الدرجة تمكن شيطاني مني؟..

وما كل هذه الدماء؟..

أنت تحملين جنينًا بالفعل، إنه طفلي، لقد جننت حتمًا.. أستفقدينه؟..

آذيتك بشدة صغيرتي، آذاكِ مارد انتقامي بعد ما تملك من عقلي وأعماني، سمعتها تقول بسرعة:

- السيارة ستصل بعد قليل..

ناديتك بهمس..

ممزق أنا يا صغيرة وتائه، بين براءة أعلم أنكِ خُلقتِ منها، وبين وحش كاسر كشر عن أنيابه بداخلي وافترس براءتك ثم تركها بقايا فتات..



أضعتك وأضعت نفسي، فقدتها تاركًا العاشق الذي كنته يومًا يتلاشى ويختفي، وينمو محله بقايا إنسان ساديّ مات قلبه وعميت بصيرته..

وجدتك تفتحين عينيك ببطء.. تهمسين، اقتربت أكثر لأسمعك:

- جنيني وليد.. ابنك، لا تتركه يضيع..

اعتصرني الوجع بقبضة باردة قاسية، بعد كل ما فعلته بك، تريدين الاحتفاظ ببعض مني!..

تطلعت لبركة الدماء أسفلك وأغمضت عيناي في ألم، لن يمكنني قطع مثل هذا الوعد حبيبتي، لقد أفقدُتك إياه، وأفقدُتني إياك..

أصبحتُ قاتلا لا فارق بيني وبين أي مجرم آخر، بل أنا أشد قساوة وضراوة، لقد قتلت ابني بعنادي وكبريائي وشكي في طفلتي البريئة التي لم تغضبني يومًا..

عدتِ تتمتمين بكلمة أخرى لأجدها:

- غفران كانت مريضة..

ناديت مربيتها ثانية لتأتي مهرولة، تطلعتْ المرأة إليك في رعب فسألتها عن الصغيرة لتجيبني بتوتر شديد زلزل ما بقي مني:



- الصغيرة مريضة للغاية سيدي، محمومة وحرارتها مرتفعة بشدة، حاولت إخبارك لكنك لم تستمع إليّ، كل ما أمكنني فعله هو إعطاؤها دوائها القديم وعمل بعض الكمادات الباردة..

يا إلهي!..

لمَ تتوالى المصائب فوق رأسي تباعا بهذه القسوة؟..

الآن طفلتي مريضة بشدة أيضًا..

فجأة جال بعقلي خاطر ذبحني.. ماذا لو فقدتِ ابننا، وضاعت "غفراننا"، ما الذي سيربطك بي بعدها طفلتي؟..

سترحلين.. لن تبقيّ معي أبدًا..

ما الداعي لبقائك إن كنتُ قد أنهيتُ بما اقترفت يداي كل ما بيننا؟..

كدت أصرخ هلعًا.. أنا السبب، أنا من فعلتها وأضعت كل شيء، شعرت بجسدك ينتفض بين ذراعي لأجدك تبكين.. يا الله.. تبكين "شهد"!..

همستِ ثانية :

- غفران وليد.. لا تتركها، لا تضيع كل شيء..



ربتٌّ على كفك مطمئنا وأنا أضمك إليّ، أي اطمئنان أحاول بثه فيك وأنا أفتقد لذرة واحدة منه حتى؟.. فجأة سمعت سؤالك:

- ماذا تفعل هي هنا؟

نظرت إليك وإلى اتجاه عينيك..

إنها "ضحى"!..

ما الجواب الذي يمكنني أن أنطق به في هذه اللحظة؟..

شعرت بشلل يصيب لساني، هذه ستقصمك صغيرتي، هذه ستنهي كل شيء، أنا من جلبت ذلك على نفسي، لم أستطع النطق بحرف لكن أتاكِ الجواب منها:

- أنا زوجته الآن شهد.. مثلك تمامًا، وهذا منزلي أيضًا..

وآخر نظرة في عينيك لم أفهمها!..

عتاب، حزن، ألم، دهشة، صدمة، تعب، كراهية!..

أهذه كراهية أراها بين جفنيك صغيرتي؟.. بدوت متعبة للحظات أخرى ثم فقدتِ وعيك ثانية وأنا أصرخ باسمك في هلع:

- لا.. شهد، لا تنامي، ابقيّ معي.. لا تغلقي عينيك الآن..

ثم رفعت عيني إليها صارخًا:

- لمَ قلتِ لها ذلك؟

أجابتني بقسوة وكأنها تعلمني درسًا:

- أنت من طلبت سيد وليد.. أم أنك نسيت؟

خفضت عينيّ ثانية وشعور بالخزي يملأني..

نعم أنا من طلبت، من أمرت، من قسوت وآذيت، من تعاليت وذبحت، وفي النهاية قتلت.. وعليّ الآن تحمل نتيجة أخطائي..

وصلت سيارة الإسعاف ونُقلتِ إليها بعد أن ألبستك ملابسك وحجابك مع صغيرتنا المحمومة، تتبعتكما بسيارتي وإلى جواري مصيبتي التي جلبتها على رأسي، بعد وصولنا وجدتها تقول بحزم غريب:

- وليد.. أيًا كان ما فعلته بها فقد يعرضك للمساءلة القانونية، إن كنت تعرف طبيبًا اطلبه ليأتي إليك حالًا..

تطلعت إليها في عدم فهم.. أحقا؟..



هل أنا مجرم في نظر القانون الآن؟..

إذًا ماذا أنا في نظر نفسي!.. بل في نظرك أنت!.. أجبتها بخفوت منكسر:

- هذا المشفى تابع لمجموعتنا كما تعلمين ضحى، ومعظم الأطباء فيه من أصدقائي.. لا تقلقي، هي وحدها من ستدفع الثمن..

لم أفهم نظرتها لي في هذه اللحظة ولم أحاول الفهم، فقط تتبعتك للداخل وأمام غرفة العمليات انتظرت لبعض الوقت، ثم قلت لها:

- ضحى.. انتظري هنا، سأذهب لأطمئن على غفران..

رمتني بنظرة باردة أخرى ولم ترد، تركتها وبخطوات بطيئة منكسرة توجهت نحو ابنتي..

طمأنني الطبيب، قال أن حرارتها مرتفعة لكنهم سيقومون بما يلزم وستكون بخير، ستبقى هي أيضا للملاحظة عدة أيام..

ارتاح قلبي بعض الشيء وعدت إليك.. عدت وساقيّ لا تكادان تحملانني..

كل شيء حدث بسرعة، بارتباك، بدا للحظات وكأنه بلا معنى، كأنها لحظة جنون قضت على ما تبقى بيننا..



وقتها تذكرت ما قلتِه لي عن ذلك البركان الإندونيسي، وعلت شفتي ابتسامة وجع ساخرة، كم كان تشبيهك لي به مناسب للغاية في هذه اللحظات..

باردًا متعاليًا خادعًا كنت، وعندما اقتربت أحرقت، آذيت، أوجعت، ذبحت.. لوهلة بدوتُ مميزًا، كأنني أفعل ما هو صحيح، لكن حممي تخطت الصواب، وغرقت في جحيم الخطيئة والضحية التي احترقت في سعيري.. هي أنت!..

عندما عدت كانت "ضحى" جالسة بهدوء وجمود أمام غرفة العمليات وأنت بداخلها، جلست إلى جوارها في صمت وأرحت رأسي للخلف لأستند بها إلى الجدار.. تنهيدة حارة لم تشفِ غليل صدري ولهيبه، فجأة سمعتها تسخر مني:

- حسنًا.. لقد حققت انتقامك كليًا، كسرتها وقهرت قلبها.. فنان وليد، حقًا أنت فنان..

التفت إليها بجمود ونظرة باردة وجهتها نحوها كسهام قاتلة، أكملت بعدها:



- المسكينة لم تتحمل.. قل لي ماذا فعلت بها؟.. وما كل هذه الدماء في غرفتكم؟..

عدت أستند برأسي للجداروأغمضت عيناي في ألم، المشهد يتكرر أمامي، أي سؤال هذا؟..

كل ما فعلته معك كان شيئًا، والليلة شيء آخر..

وضعت كفها علي يدي وعانقت أصابعي، فلم أتحرك، شعرت أنني فقدت القدرة على الحركة، أو حتى الرغبة في القيام بأي شيء، لكنها قبضت على أصابعي بقسوة جعلتني أنظر إليها في دهشة وهي تسألني ثانية بعنف:

- ماذا فعلت بها؟.. أجبني؟.. إن كنت تعتقد أنني مثلها فأنت مخطئ سيد وليد، لست ضعيفة ولم أصل لتلك الدرجة من العشق التي تمكنك من إذلالي بهذا الشكل..

جاءت جملتها الأخيرة ساخرة، طعنتني وتركت قلبي ينزف..

عشق!..

عشق اغتلته ببطء وتلذذت بهدمه والخلاص منه في قسوة وتبلد..

سألتها أنا هذه المرة:

- ما الذي تريدينه الآن؟

لوت شفتيها في سخرية، وقالت باستخفاف:

- لا تنسى أنني زوجتك، حتى وإن كنت قاسيًا عنيفًا شرسًا، فأنا أريدك لنفسي، ولن أتركك أبدًا.. لم أكن أتخيل أن أقضي ليلة عرسي في مشفى أنتظر شفاء زوجتك القديمة..

رنت كلمتها في أذني بعنف.. قديمة!..

رباه ارحم قلبي فلم يعد يحتمل، الندم يأكلني حتى أوشك قلبي على السكون في ألم.. هذه تريدني!.. وأنا ضائع، ومضيع، فجأة وجدتني أقول بحزم:

- هذا الزواج لن يستمر ضحى.. لقد كان خطأً منذ البداية..

علت الدهشة وجهها للحظات ثم أطلقت بعدها ضحكة ساخرة عالية رجت المكان وأنا أنظر إليها باستنكار.. اقتربت مني بعدها وهمست بصوت كفحيح أفعى خبيثة:

- أتظن هذا بالأمر السهل؟.. من قال أنني سأتركك؟..

لم يكن بالي رائقًا لهذا الجدال فأدرت وجهي والتزمت الصمت، الوقت يمتد، الأمل يضعف والخوف يتملك مني أكثر فأكثر..

القلق يعتصرني حتى دقائق أخرى خرجت ممرضة مسرعة من الغرفة وتعلقت عيناي بها لأجدها تعود محملة بأكياس من سائل الحياة، وها هو الألم من جديد ينغرس في خلاياي بدلا من نواتها..

نصف ساعة أخرى وخرج الطبيب، تطلع إلينا في صمت، اتجهت إليه بسرعة كادت تسقطني على وجهي، ليبادرني هو:

- هل أنت زوجها؟

أومأت برأسي إيجابًا فاستطرد في أسف:

- للأسف لم نستطع الحفاظ على الجنين، والسيدة نزفت كثيرًا.. هل تعرضت زوجتك للاغتصاب سيد...

علت الصدمة وجهي من هول الكلمة التي نطق بها.. هل حقا ما فعلته معكِ يمكن أن يطلق عليه هذا اللفظ!..

أنا!.. معكِ أنت!..



كان الذهول واضحًا على ملامحي وأنا أجيبه في توتر شديد ممتزج ببحر من الخجل غرقت فيه:

- لا لا.. لم يحدث شيء من هذا، بالطبع لا.. واسمي هو وليد..

أكمل في نوع من الضيق وشيء من الغضب بدا جليًا على ملامحه:

- إذًا هي علاقة زوجية عنيفة سيد وليد، لم يكن ينبغي أن تكون بهذا العنف أبدًا.. زوجتك بنيتها ضعيفة حتى وإن كان الأمر ممتعًا بالنسبة لك فهذا ليس وقته.. إنها شهور حملها الأولى، كانت في بداية شهرها الرابع، خطأ كبير، لقد تسببت في إجهاضها وكذلك نزيف شديد كاد يودي بحياتها هي الأخرى.. دكتور عارف أخبرني أن المشفى تابع لمجموعتكم، كان ينبغي أن أبلغ الشرطة لكنه أوصاني بكما وقال أنك مثل ابنه وما حدث كان خطأً غير مقصود، في النهاية سأضطر آسفًا إلى انتظارها لتفيق وإن أرادت هي تقديم الشكوى ضدك فلن أتردد في ذلك أيا كنت وأيا كان مركزك سيد.. وليد..

أخفضت عيني أرضًا في خجل، حزن، غضب..

عقلي يكاد يجن، أما فعلته ينزل بي لتلك الدرجة؟.. أي حيوان كنت أنا؟..
حتى الحيوانات ووحوش البرية لا تنتقم من إناثها بهذه الطريقة..

تشتت ذهني لثوان.. إذًا أنت لم تكذبي!..

شهرك الرابع، منذ آخر مرة لنا معا قبيل سفري بأيام معدودة، هو بالفعل طفلي، تقطعت أنفاسي في وجع وأنا لا أجد ما أقوله له، الرجل على حق، ماذا بيدي لأفعله؟..

وأي كلام يمكن أن أنطقه لتخفيف الأمر!..

لا شيء، هي جريمة بالفعل، اقترفتها في حق طفلتي التي تربت على يدي، وفي حق نفسي وابنتي وابني الذي مات بسببي..

وعندما مر ذكره بخاطري ثانية انقبض قلبي في عنف، واعتصرني الندم ولكن بعد فوات الأوان..

تخيلته رضيعًا، تخيلته يحبو، ينطق بابا بحروف متقطعة ثقيلة..

تخيلتني أعتصر عنقه بكفي لأنهي حياته وأغمضت عيناي في ألم..

سمعته يتحدث ثانية فرفعت وجهي أنظر إليه وهو يقول:



- ستبقى في العناية المركزة للغد، ونأمل أن تصبح وقتها أفضل.. ثم سننقلها لغرفتها، بإذنك..

ثم تركني وانصرف، عدت لأجلس مكاني ومشاعري لا تجد مستقرًا لها، شريط ذكرى مؤلمة مر أمام عيني في لحظات وأنا على شفا الجنون أو الموت..

لمحت ابتسامة "ضحى" الساخرة، فأغمضتهما في ألم، انطلق بعدها بقليل آذان الفجر، ولأول مرة منذ سنوات يزلزلني النداء لهذه الدرجة.. كأنني أسمعه للمرة الأولى في حياتي، للحظات شعرت وكأنه موجه لي أنا فقط..

وقفت فجأة وأنا لا أشعر بما أفعل، وبدون وعي أو اهتمام بالجالسة إلى جواري توجهتُ للخارج، قادتني قدماي للمسجد الذي وصلني النداء منه..

لبيك ربي، لقد عدتُ تائبًا فاقبل أوبتي، واحفظ لي زوجتي وابنتي..

وقفت أمام بابه في رهبة.. متهيب القلب روحي ترتعش بين جوانحي.. هل سيقبلني؟..



هل يمكنني التكفير عن ذنوب تجاوزت قدرتي على العد؟.. قذارات وأوحال غصت فيها حد الغرق!.. للحد الذي لم أعد أتبين معه ملامحي من خلفها!.. هل سيتركني شيطاني وتحررني نفسي الأمارة بالسوء فأنطلق كطير حر نحو طلب الغفران؟..

أنزع عني رداء الوحوش الذي أُجبرت على ارتدائه حتى صار كجلدي لا يمكنني التملص منه!..

طالت لحظات ترددي حتى انقبض قلبي، أهذه علامة رفضك لي ربي؟.. ألن تقبلني وتأخذ بيدي؟..

تطلعت إلى الداخل، قلة من الناس بعضهم جالس والبعض يصلي في هدوء، سَمْتُ الاطمئنان هو عنوان المكان، سكينة ورحمة في جلسة تحفها ملائكة الرحمن بين ذاكر وقارئ لكتاب الله ومُصلٍ..

شعرت بانشراح في صدري وانفراجة أمل في جدار كرباتي، خلعت حذائي وبخطوات بطيئة حائرة دخلت لبيت الله، حضرت نفسي للصلاة ولأول مرة منذ سنين، غسلت قلبي قبل جسدي بماء الوضوء..



وفي سجودي خلف إمام صوته شجي بكيت بشدة، انتحبت، بللت دموعي الأرض أسفل رأسي ولوهلة تمنيت أن أبقى ساجدًا ما بقي من عمري..

لذة الإياب تغمر قلبي بهدوء وسكينة، والجبار الودود يعيدني إلى طريقه ويغسلني من ذنوبي..

نعم، شعرت بقلبي في حالة انعاش ربانية، نور يغشاه فيشعره بالطهر، يتسلل إليه صفاء غريب لم أجده منذ موت والدي..

تم دفع الثمن يا أبي، وبدماء ابني، فهل هدأت دماؤك في قبرك الآن؟..

عدت أنتحب من جديد وأنا أدعوه بمغفرة ورحمة، أرجو منه لخليلة روحي شفاءً تامًا وعافية لجسدها وروحها، أستجديه لينزل سكينته على قلبي ويحفظ لي من تبقى لي من الدنيا، أن يحفظ لي من أحب ولا يحرمني وجودهما بقربي أبدًا..

"شهد" و"غفران"..

كم أشتهي قطعة من اسمك يا صغيرتي تظلل ما بقي بيني أنا ووالدتك، وتعيدها إلي ولو دفعت عمري ثمنا لذلك!..



أنهيت صلاتي ولم أرد أن أنهيها، تعلقت بالهدوء الذي غلفني وأنا بين يدي خالقي، فجلست لدقائق أخرى ضيفًا في بيته علَّ الطمأنينة تحتويني بداخلها أكثر، أسندت رأسي للخلف وتطلعت من نافذته الضخمة لضوء قمر السماء المحتضر ومن شغاف قلبي همست "يا رب"..

فجأة شعرت بتربيتة يد حنون وأخرى تمتد إليّ بمصحف صغير وصوت هامس يردد في عطف:

- إن مع العسر يسرًا..

رفعت عيناي لأجد الإمام، على وجهه ابتسامة تشع نورًا، وكأنه سمع نحيبي وقرأ ما في قلبي..

أخذت منه كتاب الله في صمت، وفتحته ببطء، عدت أناجي ربي وأنا أعلم أنه يسمع نجواي، ويأخذ بقلبي نحوه..

نعم سيعيدني إليه ولو بعد حين..





(٢٧)

كأفعى رقطاء سامة كانت تلتصق بي، تطاردني بحماقة لا تمل، تثير في نفسي اشمئزازًا منها ومن كل محاولاتها السخيفة للحصول على ما لا يخصها مني..

لم تعلم أنني وجدت صك ملكيتي العتيق، ووضعته بكفك صغيرتي مرة أخرى، أطبقتُ بيدي فوق أصابعك عليه، وهمست في أذنك ألا تتركيه أبدًا، فالقلب عاد ينبض، والروح تهفو للمعة العسل الغاضبة..

والشوق بداخل العاشق القديم قد عاد..

في المساء اطمأننت عليكِ، غائبة في عالم اللاوعي، تهربين من واقع مرير رسمته بقلمي وسجنتك بداخله، وعندما عدت محاولًا محو رسوماتي؛ وجدتها بحبر جاف، لا يمحى، لكن فقط يستبدل!..

وانتويت الاستبدال وبأقصى طاقة أملكها..



قبلة حانية طبعتها على جبينك الدافئ، ضمة رفيقة من أصابعي لكفك المستكين، شاحبة هادئة ملائكية وسط فراش مرض أبيض، رقيقة ناعمة، كنت أتطلع إليك وبهاء هالة الحزن يحيط بك..

تَوجُع رَسَمَ تقطيبة حادة بين حاجبيك، دلكتها بأصابعي لتنفرج في هدوء، وملامحك تسترخي في سكينة..

صغيرتنا "غفران" أصبحت أفضل، لكنها دومًا نائمة..

أخشى نظرة عينيها عندما تراني..

أسيكون هناك فزع؟.. هل ستخافني، تهرب مني، تخشاني، ترفض عناقي؟..

لمحة البراءة المتبقية والتي كانت تسكن عينيها وجسدها الصغير ذبحتُها يوم ذبحتُك "شهد"..

لمسة أصابعها اللعوب على كتفي في رفق أنثوي أخرجتني من شرودي، من عالمي الصغير الذي كنت أخوض فيه معك، التفتُ إليها في صمت، ابتسامة تحمل لمحة إغواء، صوت ناعم هادئ يوحي بالكثير..

كسَرَتْ حاجز الصمت لتهمس بدلال:



- وليد أنا متعبة.. متى سنذهب للمنزل؟

لهجتي كانت باردة جامدة وأنا أجيبها:

- سأذهب فقط لتغيير ملابسي فسترتي مخضبة بالدماء، وسأعود لأبقى إلى جوارها..

صمت اكتنفها لدقيقة أو ربما يزيد، بعدها قالت بلهجة لا تحمل مشاعرًا معينة:

- حسنًا.. متى سنذهب؟.. أنا بالفعل مرهقة للغاية..

وبنفس اللهجة الجامدة أجبت وأنا أقف:

- سنذهب الآن.. سأعيدك لمنزلك أولًا ثم أذهب لمنزلي و أعود بعدها إليها..

بدا الغضب على ملامحها، هتفت متسائلة وهي تعرف الجواب:

- ماذا تعني بمنزلي؟.. لقد جررتني خلفك بعد عقد قراننا لتأخذني معك والآن تقول منزلي أنا؟

انحنيت أطبع قبلة على جبينك، ثم التفت إليها لثانية توجهت بعدها للخارج قائلًا في صرامة:



- تعاليّ.. لن يصلح الحديث هنا..

تبعتني والشراسة تبدو على وجهها، لم أهتم فقط خرجت من المكان ودلفت إلى سيارتي وهي خلفي.. تحركت بالسيارة بينما تسألني:

- سأذهب معك لمنزلك وليد.. أنا زوجتك إن كنت قد نسيت..

لم ألتفت إليها، ارتسمت ابتسامة حزينة ساخرة على شفتيّ وأنا أجيب:

- وكيف أنسى؟

أعلم أنها فهمت ما عنيت بالضبط، لكنها تجاهلته واقتربت مني أكثر لينفذ عطرها لأنفي.. مدت يدها تمسك بكفي على المقود وهمست:

- حسنًا.. جيد أن تعرف أنه لا يمكنك نسيان ذلك، وصدقني، معي لن تنسى أبدًا ولن تفكر في غيري..

أزحت يدها وأنا أستغرب طريقتها الفجة، ألا تشعر بأي خجل؟..

عدت بذاكرتي لفترة عقد قراننا، عندما كنت أمازحك بقليل من الجرأة ويتخضب وجهك بحمرة الخجل، تهربين من أمامي، تنظرين إليّ في فزع، تبتسمين في حياء يذيب قلبي..



فارق شاسع كالفارق بين السماء والأرض، بينك أنت ملاكي الصغير وبين تلك الجريئة إلى جانبي..

وليلة زفافنا، وعلى الرغم من عماي وأنه مهما حدث ومهما فعلت فلن أراكِ لكنك كنت ترتجفين خجلًا، حتى غيرتُ سبب رجفتك إلى الخوف والذعر، زفرة حارة غاضبة خرجت من صدرها فنظرت إليها بجانب عيني لتقول بحزم:

- سآتي معك للمنزل.. لن أعود لمنزلي، أنا زوجتك وسأبقى حيث تبقى أنت.. بالإضافة إلى أن حقيبتي هناك..

بصرامة ودون أن أنظر إليها قررت:

- لا ضحى.. ستعودين لمنزلك، هذا منزل شهد وليس منزلي أنا حتى، سأحضر لك حقيبتك وأنا عائد إليها.. وزواجنا اعتبريه منتهيًا..

وجدتها تصرخ فجأة:

- وليد أنا لست لعبة، حققت بها انتقامًا صغيرًا وانتهى الغرض منها فترميها.. أخبرتك أنني لست مثلها ولن أكون أبدًا، وأيضًا لن أتنازل عنك بهذه السهولة..



ألقيت عليها نظرة ساخرة ثم قلت في حزم قاطع:

- لعبة!.. أنت أبعد ما يمكن عن أن تكوني لعبة، لقد اخترت بنفسك ووافقتِ، وأنا أعترف بخطأي، لذا فقد انتهى الأمر..

عقدت حاجبيها وصمتت، أقلقني صمتها لأنها بدت وكأنها تخطط لأمر ما، وتخطيط الأفاعي دومًا قاتل!.. لكنني حافظت على الهدوء والصمت حولنا حتى وجدتها تقول:

" كما ترى وليد.. سآتي معك فقط لآخذ حقيبتي وأعود لمنزلي ولن أطلب منك توصيلي حتى..

لم أجبها فقط أردت أن أتخلص منها بأي شكل وأنهي الأمر، اتجهت للمنزل وعندما ترجلت من السيارة وجدتها تتبعني، نظرتي لها كانت صارمة محذرة أن اِبقيّ مكانك لكنها رفعت أحد حاجبيها ساخرة وقالت:

- ماذا؟.. هل سأنتظرك في الشارع؟.. لا تقلق لن أعضك..

أدرت وجهي في حنق متجهًا إلى الداخل وهي تتبعني كظلي، لم أجد أحدًا في طريقي وحمدت الله على ذلك، فدماؤكِ على ملابسي لم تكن بالشيء السار أبدًا..



صعدت للطابق العلوي، هي خلفي وأنا أكاد أنفجر غضبًا، في الغرفة اتجهت نحو حقيبتها وانحنيت أحملها لأجدها تغلق بابها خلفنا، التفتُ إليها في دهشة، ثم عقدت حاجبي في استياء وهتفت:

- ماذا تفعلين؟

ألقت حقيبة يدها أرضًا واتجهت نحوي وهي تخلع سترتها الأنيقة ليبدو أسفلها قميصها الحريري الضيق عاري الكتفين..

كانت فاتنة وتعلم جيدًا كيف تستغل ذلك!..

بدا القميص القرمزي متناقضًا بشدة مع بشرتها العاجية، وقفت متجمدًا في مكاني لتقترب هي مني وتحيط عنقي بذراعيها قائلة بنعومة:

- ماذا تظن أنني أفعل؟.. أنا أريد زوجي، وأنت زوجي..

لم أنطق.. فقط أبعدت ذراعيها عن عنقي وقلت لها بجمود:

- لا لست زوجك ضحى، أنا زوج شهد.. وأحبها هي فقط ولن أكون لغيرها..

عقدتْ حاجبيها في استياء، لكنها لم تفقد الأمل، عادت تقترب مني وأنا أتراجع للخلف في دهشة.. أي جرأة تملك تلك المرأة، بل أي وقاحة؟..



لقد رفضتها بصراحة ووضوح وهي مازالت تحاول إغوائي، أوقفتها فجأة بصرامة وأنا أمد يدي أمامي:

- ضحى.. لا فائدة مما تقومين به، الأمر منتهٍ..

ثم أشرت لقلبي و أكملت بلهجة قاطعة:

- لا يوجد ولن يوجد غيرها هنا..

توقفت ثم عقدت حاجبيها في غضب وهتفت حانقة:

- أحقًا؟.. ومادامت هي هنا هل من الطبيعي أن يقوم العاشق باغتصـ...

لم أدعها تكمل كلمتها، قاطعتها بصرامة قائلًا بلهجة مخيفة:

- إياكِ أن تنطقيها.. أنا لم أفعل ذلك ولا يمكنني إيذاؤها بهذا الشكل أبدًا، الأمر كله كان خطأً غير مقصود..

لأجد ضحكتها الساخرة، ألم يكفِ طعنتها الماحقة من قبل لكنها الآن تسخر مني وهي تعلم جيدًا أنني آذيتك وبشدة لكنني مازلت أمتلك القدرة على التبجح والعناد وعدم الاعتراف بفعلتي!..

نظرتْ إليّ باستخفاف وعادت تقول بصراحة:



- حقًا؟.. وهل عدم نطقي لتلك الكلمة سينفي أنها حدثت بالفعل؟.. وهل عدم اعترافك بها سيريح ضميرك ويهيل عليه التراب!.. أي نوع من الحب تتحدث عنه؟.. وأي قلب هذا الذي تملكه وتسكنه هي؟.. أنت بلا قلب وليد، ولذلك فأنت تناسبني بشدة.. هي لا تناسبك، عصفورة رقيقة صغيرة لا تناسب صقرًا جارحًا يا زوجي العزيز..

لم أجد ردًا لكلامها، لقد كانت على حق، الأفعى مثلها تناسب الصقر الأعمى الذي هو أنا..

وجدتها تستطرد بسخرية أكبر ضاغطة على جرح لم يندمل بعد:

- العشق الذي تتحدث عنه لا يجعلك تقتل طفلك يا صقري الصغير..

رفعت عيناي إليها غير مصدق أنها قالت ذلك، قبضة باردة اعتصرت قلبي بعنف حتى جعلته فتاتًا مبعثرًا، كانت صريحة لدرجة الإيلام، صراحتها وقحة موجعة..

خفضت عيني ثانية في حزن، فمهما قلت وبررت ورفضت وأنكرت: هذا ما حدث بالفعل، ابتعدت عني هي فنظرت إليها، التفتت إليّ ثانية قائلة ببرود:



- ما حدث قد حدث، وأنا لا أخشاك وليد.. فأنا لست عصفورة، أعطِ نفسك مهلة وفكر، أنا زوجتك وأحبك وأنت تعلم ذلك، لا أريد الابتعاد عنك، فلا تترك الشعور بالذنب ووجع بقايا الضمير يمزقك.. ما حدث انتهى فلتنظر للأمام أفضل..

بقايا ضمير؟..

رنت كلمتها في أذني تاركة صداها يعصف بي، أهذا ما أصبحتُ عليه؟.. بقايا!.. ناديتها بحزم قائلًا:

- ضحى.. أنا أعلم أنني تماديت وكثيرًا، لا ذنب لك في الأمر، تزوجتك لأقهرها، ربما كنت غاضبًا غيورًا حانقًا.. ربما لم يكن هذا هو الحل الأمثل، لكنه حدث، وأنا أعلم جيدًا أنني في يوم لم ولن أحب غيرها.. مهما قسوت أو تجبرت، قبل أن تكون زوجتي فهي طفلتي الصغيرة التي تربت على يديّ، وسأعمل جاهدًا باذلًا كل ما في وسعي لتعود إليّ وإن قضيت ما تبقى من عمري كله في المحاولة..

بدا الغضب واضحًا بشدة على ملامحها فتحولت لشيطان فاتن، وعادت تهفت:



- أتظنها ستعود إليك بعد ما فعلت؟.. أنت واهم وليد، لقد قصمت ظهرها ولن تقوم لها قائمة وما بينكما لن يكون إلا الطفلة الصغيرة، لا تحلم كثيرًا أو تعيش في عالم أمنيات لن تتحقق..

عقدت حاجبيّ مفكرًا.. ربما هي على حق، لكنني على استعداد لقضاء ما بقي من عمري وإن طال محاولًا استرضاؤك و السكن في قلبك مجددًا..

لذا أنهيت النقاش بيننا بحزم:

- اتركي هذا الأمر لي ضحى، أنا كفيل به.. أما أنا وأنت فلن يكون بيننا شيء، ستحصلين على الطلاق وعلى صداقك كاملًا على الرغم من أنه ليس لك كله، وسأجد لك عملا في شركة مرموقة لأحد شركائي، وبمرتب أفضل.. أما أنا فأمامي عمل شاق لأصل لقلبها من جديد، وعليّ البدء بعد أن تفتح عينيها مباشرة، آسف ضحى هذا هو قراري النهائي ولا كلام بعده..

علا الغضب محياها فبدت ملامحها الجميلة شيطانية، صاحت في:

- سأعتبر نفسي لم أسمع ما قلته.. أنا لا أريد الطلاق ولن أترك الشركة إلا لأكون في منزلك، وغير ذلك ستكون عواقبه وخيمة وليد، لا تضطرني إلى ذلك..



اشتعل غضبي أنا الآخر وهتفت فيها بصرامة:

- هل جننتِ؟.. أتهددينني؟

بوقاحة أجابت:

- نعم وليد.. وليس مجرد تهديد أجوف، سأنفذ وعيدي لو طلقتني..

وثلاث كلمات خرجت من بين شفتي بحزم شديد:

- أنتِ طالق ضحى..

اتسعت عيناها ذعرًا، لم تتوقع نطقي لهذه الجملة بسرعة هكذا، ثم اشتعلت بلهيب الغضب وهي تلتقط حقيبتها هاتفة:

- ستندم وليد، صدقني ستندم..

بعدها خرجت من الغرفة وأنا أغمض عيني في ارتياح، لم يهمني تهديدها مهما فعلت، فكل ما كان يشغل بالي في هذه اللحظات هو أنت..

قاطع تفكيري رنين هاتفي لأتلقى ضربة قاصمة أنا الآخر، وكأن ما حدث لم يكن كافيًا، ولابد في النهاية أن أتحطم تمامًا..



تطلعت للهاتف بدهشة، رقم لا أعرفه، أجبت بتردد لأجد صوتًا مألوفًا من ماضٍ لا أريد تذكره..

الضابط المحقق في قضية والدي!..

يريد مقابلتي، من ستشكك فيه هذه المرة؟..

بسببك ضيعت خمس سنوات من عمري وعمر حبيبتي وفي النهاية أفقدتها ابني..

شدد على حضوري قائلًا أنه أمر هام للغاية متعلق بقضية أبي، انتابني القلق وأنا أؤكد له أنني سأقابله، عدت للمشفى لأمر على صغيرتنا أولًا، نائمة كما هي لكنها بحال أفضل، طبعت قبلة على جبينها وتوجهت إليك..

ونفس الحال، نائمة، ضعيفة، شاحبة، وعلى ملامحك حزن غريب لا يليق بامرأة في غيبوبة..

كلما نظرت إليك عادت ذكرى الليلة الماضية تمر أمام عيني، حماقتي وتسرعي وغبائي، قسوتي وتوحشي وغضبي العارم.. دماؤك على الفراش وعلى الأرض، همسك الضعيف تطلبين مني الحفاظ على جنينك، على طفلتنا..



ونظرات عينيك بمشاعرها المختلطة.. لمسة الكراهية فيها!..

و"ضحى"!..

أنا بالفعل جننت.. دمعة سقطت من عيني على وجنتك، مسحتها بطرف إصبعي وأنا أهمس لك:

- أحبكِ شهد.. هل آسف تكفي، هل هناك كلمات تجدي؟.. أعلم أنني آذيتك بشدة.. كثيرًا كثيرًا، وطأت بقدمي كل ما كان يربط بيننا، يومًا بعد يوم كنت أذبح قلبك وأقتل حبك لي.. موتًا بطيئًا كنت تعيشينه معي لحظة بلحظة، كم مرة اغتلت براءتك!.. أهنتك، ضايقتك، أحزنتك، أبكيتك!.. وكم مرة دعوتِ لي، سامحتني، تجاهلت رعونتي، تغاضيت عن أخطائي!.. قلبي متعب صغيرتي، كيف أعوضك؟.. وهل هناك تعويض يكفي؟.. فقط افتحي عينيك واكرهيني بعدها، لكن أرجوكِ لا تتركيني.. سأموت دونك، احتفظي بي إلى جوارك، لن تشعري بوجودي، سأبقى صامتًا فقط أملأ عيني منك، ومن طفلتنا، وأشعر بكما حولي.. لا تتركيني شهد، سأكفر عن كل أخطائي ولو ظللت أفعل ما بقي لي من عمر، حتى أنال رضاكِ ثانية وأحصل على غفرانك.. هل ستغفرين صغيرتي؟.. يومًا ما!..



كلماتي كانت جوفاء باهتة لا فائدة ترجى منها..

أنت لا تسمعينني وكلي ثقة أنك لو سمعتِ فلن يشكل فارقًا بالنسبة إليك، لقد انتهى الأمروبيدي..

أنا أستحق، لقد تماديت حتى وصلت للمنتهى، وعلى عاتقي تقع مسئولية أخطائي..

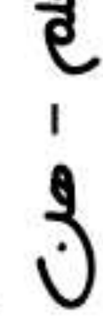
جلست على مقعد إلى جوارك ليلتها وكفك بين أصابعي، ورغمًا عني رحت في نوم مرهق لاحقتني فيه عينيك العاتبتين وهمستك بأكرهك حتى استيقظت فزعًا ملتاعًا أنظر إليك بلهفة وأتأكد من يدك في حضن يدي..

***

صباح محمل بغيوم الحزن والألم..

مطر جديد يغشي المسافة بين السماء والأرض، أغرقني معه في كآبة شتوية تسببتُ فيها لقلبي..

طوال الليل استكان كفك الصغير بين دفء أصابعي، بين حين وآخر كنت أهمس لك باعتذاراتي، بأسفي، باعترافاتي، مدى حمقي وغبائي وتصديقي لشيطان الغضب الأعمى..



في النهاية حضر طبيبك لينظر إليّ شذرًا فأخفضت عيني أرضًا في خجل، اطمأن عليك وطمأنني ببرود واقتضاب ثم رحل..

ظللت معك لبعض الوقت بعدها اتجهت لموعدي المنتظر مع الضابط، رحب بي الرجل على الرغم من الارتباك الذي كان يكسو ملامحه، جلس أمامي بحميمية غريبة مخالفًا عادات وتقاليد من هم على شاكلته.. توقعت مصيبة وكنت على حق، في حسم أخيرًا نطق:

- لدينا أخبار جديدة بخصوص حادثة والدك سيد وليد، أولًا مبارك عودة بصرك..

ابتسامة باهتة اصطنعتها بصعوبة وأنا أتمتم بخفوت:

- بارك الله فيك..

قلبي ينبض بعنف، أخبار جديدة.. لا تقل لي!..

لا أريد أن أسمع!..

سيتوقف قلبي في الحال إن نطقت بها وصرحت أن القاتل ليس عمي، سأموت كمدًا، حسرة ستغزو ضلوعي وقلبي بينها بعدما حدث طوال خمس سنوات مضت.. لا تقلها أرجوك!.. لكنه في النهاية نطقها وبوضوح:

- لقد عرفنا من الجاني.. وبمحض مصادفة حدثت لرجل يعرفك جيدًا ويعرف الجاني أيضًا..

نعم.. لقد قالها..

شعرت بدوار شديد كأنني سأفقد وعيي بعد لحظات، ليس عمي، لم يكن والدك..

أعمى.. أنا أعمى.. وسأظل أعمى، نور العين لا يشكل فارقًا عند من فقد نور بصيرته.. من فقد عقله وقدرته على التفكير السليم والحكم الجيد على الأمور..

نظراتي كانت زائغة أمامه، تطلع إليّ بشيء من القلق وسألني:

- هل أنت بخير؟

ازدردت لعابي كنبتة صبار تخترق بأشواكها الحادة حلقي، أومأت برأسي في ضعف، أكمل بعدها هو:

- حادثة والدك كانت عملية انتقامية سيد وليد.. رجل أعمال كبير وقتها تسبب والدك في خسارة كبيرة له بعد أن فض الشراكة بينكم وبينه ودفع على إثرها شرط جزائي ضخم تسبب في إشرافه على الإفلاس.. قتل والدك

لم يعد عليه بفائدة سوى الانتقام، وإرعاب السوق، أن هذا جزاء من يتجرأ على الوقوف في وجهه وحدث له ذلك بالفعل.. الكل تقريبًا كان متيقنًا أنه هو وراء الحادثة لكنه ينكر ويكذب نفسه ويسير بجوار الحائط خوفًا من أمر مماثل قد يحدث له..

استمعت إليه وأنا في عالم آخر، ما هذا الذي جنيته عليكِ وعلى نفسي وعلى حياتنا معا؟..

أي ظلم ظلمته لكِ؟..

ظلمات عشتِ فيها يوما بعد يوم، في صمت واستكانة واستسلام صابر، في عشق كنت أذبحه بيدي كل دقيقة في بطء متلذذًا بآلامك ووجعك وأناتك الخافتة المستترة..

في انتقام أسود من قلب أعمى وعقل غاضب، مارد مريض بحمى البكاء على أطلال الماضي ويا ليته استعاد بعضًا منه أو داوى حتى جرحًا حدث فيه..

كنت أزيد ندوب قلبك في كل لحظة، أحملك فوق طاقتك، أذيقك عذابات لم أتخيل أن أتحملها تحدث لك ولو من بعيد فما بالك أن أتسبب فيها بنفسي؟..

أفقت على هزة يده وصوته القلق المتسائل:

- سيد وليد!.. هل تسمعني؟

سؤال واحد تردد على لساني وأنا أرفع بصري الزائغ نحوه:

- من هو؟

ازداد ارتباكه، جفف عرقا وهميًا بمنديل لم تطاله نقطة بلل واحدة، غمغم في توتر:

- حامد عيسى..

انعقد حاجباي في غضب شديد، صدمة هزتني من الأعماق..

أليس هذا من تقدم لوالدك خاطبًا إياك لابنه؟..

كنت ستصبحين من عائلته!.. استكمل الضابط حديثه في توتر أكبر:

- أنت تعرف أن الرجل لديه حصانة الآن.. ولا يمكن إثبات الأمر عليه بعد كل هذه السنوات، أنا فقط رغبت أن تعرف علَّ بالك يهدأ..

أصابني جنون مؤقت وأنا أقف لأمسك به من قميصه الرسمي في عنف صارخًا:

- يهدأ!.. أنت لا تدري معنى هذه الكلمة حتى، لقد أثرت شكوكي تجاه عمي وتجاه زوجتي.. سنوات من العذاب عشتها وعاشتها المسكينة معي وأنا أتعامل معها على أنها ابنة قاتل والدي.. ماتت أمي مقهورة، وهي الآن ترقد بين حياة وموت على فراش مرض وضعتها بنفسي فوقه.. أضعت ابني وكدت أضيع ابنتي، أفقدتني ثقتي في كل من حولي، والآن.. فقط الآن تأتي لتخبرني بالجاني وأنك لا تملك شيئًا لتفعله وتطالبني بالهدوء؟!..

كان الرجل صامتًا وكأنه يقدر حالتي خاصة عندما أشار للمجند الواقف خلفي والذي حاول مهاجمتي حينما أمسكت به..

نفضت يدي منه بعنف وأنا أصرخ من جديد:

- لقد حطمت كل شيء في حياتي لست سنوات مضت، وهي كانت تعاني معي لخمس منها.. لذنب لا دخل لها به، والآن لا أستطيع معاقبة المخطئ،



هي فقط من نالت عقابًا على جريمة لم تعلم بها حتى ألقيت فجأة في وجهها بكل عذاباتي للسنوات الماضية، انهارت هي لتقصم أنت ظهري بخبرك الرائع!.. ماذا تنتظر مني الآن!.. عن ماذا أكفر!.. وما الذي سأطلب عفوها وصفحها عنه بالضبط!.. هل أستحق غفرانها!.. هل...

قاطعني الرجل وكأنه شعر أنني جننت، ربت على كتفي برفق وهو يقول:

- يمكنك الانتقام لوالدك من الجاني الحقيقي، انظر أنا أعلم أنه لا دليل عليه، لكن أنت لا تحتاج إلى دليل فلا قانون يردعك من تحطيمه في سوق العمل وبطريقة نزيهة وشريفة.. أقدر معاناتك جيدًا فقد فقدت عمي في حادث مشابه، أنت في مثل سني وليد، زوجتك ستنال صفحها إن أثبت لها ندمك، لكن والدك بحاجة لقصاص، ولن يقوم به غيرك..

نظرت إليه ذاهلًا.. أي قصاص!..

ضابط شرطة يحدثني عن قصاص من رجل يعلم أن يديه لن تطاله مهما حاول!..

ألهذا يدفعني أنا للقيام بمهمة القانون!.. ياله من أمر يستحق السخرية، لم أجد ردًا يليق بما قاله، فقط سألته:



- كيف عرفت أنه هو؟

أجابني بعدما فكر لهنيهة:

- صديق ابنه هو قريبي علم بالأمر بمحض مصادفة وحتى عندما أخبرني كانت في البداية زلة لسان ثم أجبرته على أن يقص علي ما عرفه بالضبط.. كان يسهر معه والفتى بعد ليلة تمتلئ بالخمر والنساء والمخدرات تخلى عنه عقله وخرجت منه بعض الحكايات عن والده شبح سوق المال الغامض وانتقامه ممن يقف في طريقه.. أتعلم أنهم لم يقصدوا قتلك لكن صدف وجودك فقط!.. كان يمكن أن تموت بالفعل لكنه قدرك أن تبقى، من المؤكد أن هناك ما يستحق أن تحيا لأجله..

ابتسمت ساخرًا.. هي لا تستحق أن أبقى لأجلها، لأجل عناء سنوات تجرعته معي علقمًا لليال وأيام حتى شاخ قلبها الصغير وتحطمت كريستالتي النقية لفتات دهسته بكل قسوة ودون أن أبالي..

نظرت إليه نظرة مطولة جمعت كل الوجع بداخلي صاحبتها كفه تربت على كتفي ثانية ثم خرجت من عنده.. مهلهلًا، ضائعًا، مكسورًا، خائفًا..

أنا من فعلت ذلك وأنا من سأصحح أخطائي..





(٢٨)

على غير هدى، تائه في دروب دهماء لا ضوء فيها..

أقود سيارتي وأدور في حلقات مفرغة، دائرة مغلقة لا منفذ منها ولا مهرب، لانهاية ولا بداية، تدور حول نفسك لتعود لنقطة الصفر في كل مرة وتجد أنك لم تقدم شيئا سوى الألم والعذاب والوجع، لقلب كنت مالكه ومليكه..

قسوت عليه وتجبرت، طاغية أصبحت وجلادًا ظالمًا أمسيت..

ذبحت بعد حكم ظالم ولم تلتفت لاستئناف أو قرائن صغيرة تناثرت من بين يديك، وضحيتك جذبتك معها لعالم حبستها فيه لتجد نفسك مكانها، طالبًا الصفح والغفران.. ضائعًا مشتتًا، خائفًا مرتعبًا..

على أمل وخشية أمل.. ربما لن يوجد أبدًا وستظل تبكيه أبد الدهر..



لما يقرب من ثلاث ساعات ظللت أدور في شوارع قاتمة مترِبة لم تنل عيناي منها سوى ذكريات ومشاهد متتابعة تجذبني بعنف نحو كل وجع تسببت فيه لك، كل قبضة ألم اعتصرت قلبك البريء أنا صاحبها..

وفي كل مرة أحاول العودة إليك كان الخوف يحبسني بعيدًا رهين قلق ووخز ضمير استيقظ فجأة بعد غفوة طويلة أدخَلتْه قبرًا مؤقتًا حتى كان ألمك هو نباش القبور الذي أخرجه منه، وبعد فوات الأوان..

لم يعد لسفينتي من مرفأ سوى بالقرب منك، فلن أظل مبحرًا للأبد خائفًا من مواجهة..

عليّ تحمل نتيجة ذنوب اقترفتها مهما كانت..

عدت للمشفى مترددًا وجلًا، مررت بغرفة صغيرتي أولًا.. كانت مستيقظة!..

نبض قلبي بشدة وفرحة تندفع إليه بسرعة، فرحة توقفت في منتصف الطريق عندما نظرتْ إليّ ابنتي بخوف وصل لحد الرعب وهي تنكمش في فراشها خلف ممرضة صغيرة الحجم كأنها ستحميها مني..

تطلعت إليّ الممرضة بريبة وتساءلت:



- مرحبًا سيدي، هل من خدمة أقدمها لك؟

رفعت عيني إليها بألم لم أستطع محوه، سألتها بصوت مرتجف:

- كيف حالها؟.. لقد استيقظت..

بنفس الريبة أجابتني:

- نعم.. هي أفضل والحمد لله، هل هي قريبتك؟

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أهمس محاولًا الوصول إليها بعيني خلف الممرضة:

- نعم.. أنا والدها..

لانت أسارير المرأة قليلًا وهي تتساءل مندهشة:

- والدها!.. لكن لمَ تبدو خائفة منك هكذا؟

بألم بعدما فقدت كل رغبة في الاحتفاظ بأي شيء إلا أنت وهي أجبتها:

- حدثت مشكلة بيني وبين والدتها وكنت عصبيًا، خافت من صوتي العالي..

هزت رأسها متفهمة وابتسمت بحنو وهي تربت على رأسها:



- حسنًا، لا داعي للقلق.. طمئنها فقط وستعود كما كانت، هي ترفض الحديث معي مطلقًا لكن ربما تتحدث معك..

ازداد قلقي وحاولت الاقتراب منها لأجدها تهمهم بصوت باك ودموعها تسيل من عينيها منكمشة في فراشها أكثر.. توترت الممرضة ثم غمغمت في إحراج:

- عفوًا سيدي ربما لو انتظرت لبعض الوقت حتى تتحسن صحتها أكثر وتنسى الأمر..

غمرني الألم حتى فاض، لكنني استسلمت في صمت وأنا ألقي عليها نظرة أخيرة متوجهًا نحوك.. بخطوات بطيئة منكسرة تقدمت نحو غرفتك، وعندما فتحتها وجدته هناك!..

لم يكن وحده لكن عيناي لم تريا غيره!..

اندفع نحوي بعنف قابضًا على سترتي وهو يصيح بغضب في وجهي:

- ماذا فعلت بها؟.. سأنهي حياتك بيدي يا ابن السيوفي..

بدا للحظات وكأنه يثبت التهمة.. عليكما.. على جنين كنت تحملينه، أهو ابنه؟.. ألهذا يبدو غاضبًا ثائرًا بشدة؟..



وجدت امرأتان تمسكان به محاولتان تهدئته وأنا أتطلع إليه في غضب بارد عجيب، هتفت زوجته في لوعة:

- توقف كريم.. أنت لا تعلم ما حدث لها بالضبط، ربما هو لم يفعل شيئًا!..

التفتَ لها وعيناه المحمرتان تكادان تقتلانها، ألهذه الدرجة يحبك!.. ويتبجح بحبك أمام زوجته، وهي ماذا تفعل؟.. تطيب خاطره وتراضيه؟.. أي جنون هذا؟.. صرخ في وجهي ثانية وهو يخاطبها:

- لا هو.. من غيره يمكن أن يؤذيها؟.. فقدت جنينها وهو لا يهتم، بل يتركها ويرحل أيضًا، لقد أوصلناها أمام المنزل وكانت في خير حال والآن هي وغفران مريضتان وأجهضت طفلها، من غيره يمكن أن يفعل شيئًا كهذا؟..

من كل حديثه التقطت كلمة واحدة علقت بأذني..

"أوصلناها"!..

ألم تكوني معه وحدك!..

تجمدت في مكاني فلم أجد ما أقوله، في صمت انتظرت رد خالتك أو زوجته لأفهم أي شيء حتى نطقت الزوجة هاتفة في قلق:

- كريم هي أخبرتنا أنه كان مسافرًا.. تعقل قليلًا، عندما توقفنا أمام منزلها لم يكن من أحد هناك.. هي قالت ذلك، ترفق بالرجل لقد فقد ابنه وزوجته بين الحياة والموت..

لم يكن معك وحده، كانت زوجته ترافقكما!..

ظالم أنا، باغٍ، جائرٍ، لم أحاول التفهم أو الإنصات أو حتى تدقيق النظر، وحتى اللحظة الأخيرة الآن.. أشكك فيك مجددًا وفي طفلك.. طفلي الذي أفقدتك إياه، هتفت فيهم صارمًا:

- ماذا تعني بأوصلتموها؟.. أين كانت؟.. ومن أوصلها؟.. أنتم آخر من رآها إذًا!..

نظروا إليّ جميعا في شك.. هل كذبي واضح إلى هذه الدرجة؟..

لكن لابد أن أفهم، ولن أخبرهم خاصة عاشقك الصغير عما فعلته بك، سينقض على تلك الفرصة ليختطفكِ مني ومن الواضح أن زوجته لا تبالي..



هتف هوبي في ارتياب:

- أتعني أنك لا تعلم ما حدث لها؟

كاذبًا أجبت:

- لا.. لقد عدت قبل موعدي من سفري ووجدتها غارقة في دمائها فاقدة للوعي، ماذا تقصد أنت بكلامك؟

تنهدت والدته في نوع من الارتياح أما هو فظل الارتياب رفيقه وهو يقول:

- لقد كانت في زيارة لوالدتي وأنا مع زوجتي هناك، اصطحبتها هبة في زيارتها الدورية لطبيبتها وتركت غفران مع ولدي إياد في رعايتي أنا ووالدتي ثم عادتا، بعدها أوصلناها في طريق عودتنا لمنزلنا لأنها لم تحضر مع السائق يومها..

قبضة باردة تجول بداخلي عاصرة كل ما تقابله في طريقها..

لا أجد وصفًا أصف به نفسي، وصلت معك للمنتهى، ظلمتك كل أنواع الظلم، حتى أتت النهاية وشككت في أخلاقك وإخلاصك لي..

اتهمتكِ بالخيانة وفي الطريق قتلت طفلي..



كان جليًا على وجهي ملامح الصدمة والإحساس بالحزن والانكسار، اكتسى وجهه بالغضب من جديد وهو يصيح:

- لمَ تبدو هكذا؟.. لقد آذيتها، اعترف..

لم أستطع قول شيء أما هو فقد اندفع نحوي ثانية وهو يمسك بتلابيبي رافعًا قبضته في وجهي، تلقيت لكمته في كفي وأنا أدفعه بعيدًا عني بعنف صارخًا:

- هل جننت؟.. اخرج من هنا، بل اخرجوا جميعا.. لا أريد رؤية أحد..

عاد يهاجمني والمرأتان تولولان..

انتهى الأمر إلى عراك بالأيدي بيني وبينه، تبادلنا فيه اللكمات والركلات، كان يضربني غاضبًا جريح القلب محزونًا على عاشقة لم يستطع نيلها، فقط ليخطفها منه من لم يحافظ عليها لدرجة أن يجعلها طريحة فراش المرض فاقدة لوعيها..

وأنا أضربه مدافعًا عن قلب أعلم أنني كنت أسكنه، وأخاف أن أطرد منه، سأحافظ على ملكيته مهما بذلت من جهد، أضربه غيرة وحسرة

على لحظات كان هو إلى جوارك فيها يساندك وأنا أقهرك وأهينك وأخيفك، لدرجة أن تخفي حملك عني..

لم يعد هناك من يحميك مني، أمي ليست هنا هذه المرة لتمنعني من التخلص من طفلي الجديد..

كرهت نفسي بشدة وأنا أكيل له اللكمات بعنف وزوجته وأمه تصرخان حتى أتى على الصوت بعض الأطباء والممرضات لتتشارك النسوة في الصراخ وأنهار أنا وهو على الأرض مخضبين بالدماء منهكي القوة منكسرين..

لم أكن لأتركك لحظة، لم تطف الفكرة بخيالي ولو لثانية، أما هو فهتف وهو يحاول النهوض بمساعدة طبيب ما:

- لن تبقى في عصمتك يا ابن السيوفي.. سأحررها منك ولو كان آخر ما أفعله بعمري بعد ما فعلته بها..

لم آبه له، بل نهضت أنا أيضًا موجها عيني نحو زوجته الخائفة الباكية على صدر والدته وقلت مخاطبًا إياها:

- هل سمعتِ زوجك؟.. سيطلق امرأة من زوجها لينالها هو وأنت واقفة تشاهدين بل وتؤازرينه، أي زوجة أنت؟

اتسعت عيناهما في ارتياع، هي التفتت إليه بسرعة ودموعها كسيل على وجنتيها أما هو فحدق في كمجنون يقف أمامه:

- ماذا؟.. أجننت يا هذا؟.. ما هذا الذي تقوله؟..

ثم فكر للحظات صامتًا عاد بعدها يهتف وهو ينقض عليّ مجددًا:

- ألهذا آذيتها؟.. شككت فيها وفي؟.. ماذا فعلت بها أيها الغبي؟

أوقف المحيطون بنا اندفاعه المسعور نحوي وهو يصرخ من جديد:

- أنت مجنون بالفعل وسأكون أكثر جنونًا لو تركتها معك للحظة أخرى..

فجأة ارتفع صوت والدته حازمًا عصبيًا:

- كريم توقف.. وأنت يا وليد، اصمتا تمامًا.. تتصرفان كالأطفال في غرفة ابنتي المريضة، ماذا تظنان أنكما فاعلان؟..

كان وجهها غاضبًا بشدة أسكتنا نحن الاثنين، ولأول مرة منذ زمن طويل أصمت مرغمًا لكلمة امرأة في سن والدتي.. هتفت هي بالأطباء المحيطين بنا:

- هيا أيها السادة، اهتموا بمريضتكم وسنخرج نحن من هنا لنكمل حديثنا في مكان مناسب..

أشارت إحدى الممرضات إلي أنا و"كريم" وهي تقول:

- سيدتي جروحهما بحاجة لعناية..

نظرنا أنا وهو لبعضنا البعض في غل، وسلمنا نفسينا لاثنتين منهما تطهرانها في صمت، بعدها اقتربت منك لينظر هو إليّ في غضب بادلته إياه متحديًا وأنا أنحني لأطبع قبلة على جبينك هامسًا "أحبك" في أذنك..

توجهتُ بعدها معهم لحديقة المشفى وجلسنا، بدأت والدته الحديث بحزم صارم:

- حسنًا وليد.. أنت تعلم جيدًا مكانة شهد عندي وعند أولادي، هي بمثابة ابنتي منذ رحيل والدتها ولولا والدها لكانت أقامت عندي وأنت بالذات تعلم ذلك جيدًا إن كنت تذكر تهديدك السابق لي.. لو كنت أعلم أنها



ستقاسي وتعاني معك بهذا الشكل لما استمعت لوالدها وتركتها معه لتصبح زوجتك في يوم...

قاطعتها غاضبًا:

- إذًا كانت لتصبح زوجة من؟.. ابنك أنت...

إشارة حازمة من يدها أوقفت الكلام في حلقي، وهو ينظر إلي كأنه سيفترسني بعد لحظات.. ربتت هي على كفه بتفهم وعادت تخاطبني بنفس اللهجة:

- وليد.. لولا أنني أتفهم وأقدر ما تشعر به لكان حديثي معك مختلفًا، ابني يعشق زوجته وهما متحابان منذ أن كانا زميلين في الجامعة.. خطبها بعد تخرجه مباشرة وتزوجا قبل زواجك أنت وشهد ولديهما طفل بالدنيا كلها.. لقد حضرتْ عقد قرانكما لكن أعتقد أنك لا تذكر، منذ البداية ونحن جميعا نعلم أن شهد لن تكون لغيرك، هي تحبك وكنا نظن أنك تحبها.. لكن بعد ما حدث، فقدانها لطفلكما وتهديدك لابني وشكك في أن يكون بينهما شيء لا أعتقد أنك تحبها أو حتى مؤتمن عليها.. لا تظن أن بموت والدها لم يعد لها غيرك، لا.. أنا مازلت على قيد الحياة وأنا أمها،



ولديها أخوان سيعتنيان بها وتتربى طفلتها معنا في أسرة سوية طبيعية..
لكن معك ستضيع ابنتي وأنا أبدًا لن أتركها تضيع..

كل كلمة وكل حرف نطقت به كان يمزقني أكثر، بداخلي لم أجد وصفًا مناسبًا لي..

الفتى يحب منذ زمن، كل ما كان يمر بعقلي كان مجرد خيال مريض وشكوك لا محل لها، ومنذ زمن بعيد..

تقول كانت تظنني أحبك، كنت أظن نفسي أفعل!..

لكن بعد كل ذلك انتابني الشك، أي مخلوق أنا؟.. أي حب هذا الذي يجعلني أتعامل معك بهذا الشكل؟..

أنا ميت "شهد"، ميت ومقبور أيضًا.. أعمى بشدة، غاضب، حزين، قلبي مفطور، منهك وضائع..

أحتاج لضمة منك تعيد لي أماني واطمئناني، أحتاج لدعواتك لي في صلاتك، أحتاج أصابعك الصغيرة لتمسح دموع قلبي، أحتاج أن أتوسل عند قدميك باكيًا طالبًا الصفح منك..

ستأخذك مني، لا أمتلك قدرة على جدال أو حتى وجهًا أجادل به..



ماذا سأقول لهم؟.. ماذا لو علموا ما فعلته بك؟..

هل أخيك الكبير هذا سيتركني على قيد الحياة؟..

هل أنا أستحق الحياة؟..

أفقت من شرودي وأمواج أفكاري المتصارعة على صوته الذي طالما كرهته فرفعت عيني إليه:

- عندما سألتها في آخر زيارة إن كانت قد أخبرتك أنها تزورنا ترددت، شككت في الأمر، أنك تمنعها عنا.. لكنها أنكرت، قالت أنك لم تمنعها أبدًا لكنها هي من لا تريد أن تتركك وحيدًا، وهي تأتي إلينا أثناء سفرك.. أنت لم تكن تعلم، صحيح؟.. كنت تمنعها بالفعل، لم تشكُ منك مرة واحدة، لا لأمي ولا لأختي، ذابلة وعيناها كسيرتين حزينتين دومًا وعلى الرغم من ذلك لم تشتكي، والآن هي هنا تكاد تضيع وأنت ماذا تفعل؟.. تشكك في أخلاقها وعرضها، ومع من؟.. معي أنا أخيها الكبير.. المتزوج، أي خزي هذا يا رجل؟

لم أجد ردًا، نعم هو خزي تملكني وغشاني بثوبه، أكملت والدته على ما تبقى مني بحزمها المعتاد:

- ستطلقها وليد..



رفعت عيني إليها في صدمة، كان الكل يتطلع إليها ما بين مندهش لكن موافق وبين مؤيد ومصدوم واحد هو أنا..

كدت أفقد وعيي وهي تنطق جملتها القصيرة، هتفت متشبثًا بيدها كطفل تائه:

- لا.. لا.. هذا مستحيل، لن يأخذها مني أحد إلا الموت وحتى هناك سأتبعها..

بنظرات قاسية تطلع إلي "كريم" وكنت أستحقها، أما خالتك فاختلط بنظراتها الغاضبة بعض الإشفاق وهي ترد:

- وليد يا بني، أنت غير مؤتمن عليها، لقد آذيتها بشدة لم أرها لسنوات بسببك وهي لم تشتكي فقط لأكتشف تقصيري أنا في النهاية.. أنا غير متأكدة أنك آذيتها بالفعل، لكن يكفي الأذى النفسي الذي كان يظهر في عينيها وهي تحبسه في المرات الثلاث التي رأيتها فيها خلال الأشهر الماضية.. عندما علمت بحملها كادت تطير فرحًا كنت أنت مسافرًا لإجراء جراحتك أيامها لكن عند عودتك لم نرها كالمعتاد وعندما سألتها عن رد فعلك عندما علمت بالحمل، لفت ودارت وغيرت الموضوع كأنها تتهرب من الإجابة.. استنتجت أنا أنها لم تخبرك ويبدو أنها لم تفعل لتفقده في

النهاية، ربما كنتَ أنت السبب أو لم تكن لكن لن أتركها بين يديك لتضيعها أكثر، إن كان بداخلك بقايا حب تجاهها حررها يا ولدي.. هي لا تستحق منك ذلك، اتركها لحالها، اتركها تحيا بأمان..

شعرت بتوقف قلبي بالفعل، نعم أنت لا تستحقين مني كل ما حدث لك، أنا لا أستحق حبك أو قربك أو حتى ملاكنا الصغير بيننا، لكنني سأودع روحي قبل أن أودعك..

بانكسار قلت:

- خالتي أنت تذبحينني، أنا لم أحب في حياتي سواها، منذ كنت طفلًا وهي رضيعة في مهدها، أنا من رباها، أطعمها، حملها، لاعبها وأضحكها، أنا من دافع عنها وحماها من كل ما قد يؤذيها.. نعم أخطأت كثيرًا، أنا معترف ومقر بخطيئتي لكن أن أتركها فسيكون هذا آخر ما أفعله في حياتي لأنني سأموت بعدها..

كان قاسيًا وهو يقول بسرعة قبل أن ترد هي:

- فلتمت إذًا.. قد تكفر بموتك عن ذنوبك..



أخرسته هي بنظرة صارمة قابلها بغضب، أما أنا فتطلعت إليه في صمت، الأفكار تتصارع بعقلي كآتون لاهب تحرقني وتدمر ما تبقى مني..

في أمل أخير وقشة أتعلق بها أجبته ببقايا تحدٍ بداخلي:

- لمَ لا نتركها هي تتخذ القرار؟

بعد نطقي لهذه الجملة علمت مدى حماقتي، أي قرار أنتظره منك بعد ما فعلته؟..

حُسِم الأمر وأنا أستحق ما يحدث لي، بانكسار أكبر أكملت وهم يتطلعون إلي في دهشة:

- أنا أخشى قرارها، لكن أيًا كان؛ فهي الوحيدة التي من حقها إقصائي بعيدًا وهي الوحيدة التي سأتقبل منها قرار إعدامي..

نهضت بعدها واقفًا مستطردًا:

- خالتي لا تكوني قاسية.. اتركي لها حرية اتخاذ القرار وأنا طوع أمركم بعدها..

ثم غادرتهم عائدًا إليك وقلبي بين جوانحي يتمزق لأشلاء مبعثرة، أنا أعرف قرارك بالفعل صغيرتي وأستحقه..

بصمت يقطع صراخي بعشقك دلفت لغرفتك.. خائفًا، مترددًا، مغرمًا.. أكان ينبغي أن يحدث كل ذلك حتى أعود ذلك العاشق القديم؟.. حتى ينبض ذلك الخافق في صدري بحرية وبدون قيود..؟

أي شخص سيء أنا؟.. بل أي جثة تسير على قدمين؟..

كلما اقتربت منك خطوة نبض قلبي بقوة أكبر، ازدادت سرعة خفقاته، أنا أكاد أكون مرتعبًا.. متوترًا وقلقًا بشدة!..

إن عيناك مفتوحتان صغيرتي..

ومع اقترابي ووصول صوت خطواتي البطيئة الوجلة لأذنيك التفتِ إليّ، تجمدت على بعد خطوتين من فراش مرضك وعيناي تتوسل نظرة رضىً منك لكن ما قابلني هو الخوف.. الحيرة والتوجس!..

التقت أعيننا فعدت أنثر عبرها قصائدي لعلها تصل لقلبك وما فهمته أنها تتساقط مني قبل أن تصل إليك.. غلفنا الصمت طويلًا وأنت تتطلعين إليّ بارتباك شديد ولمحة أمل!..

اقتربت أكثر وهمست:

- حمدًا لله على سلامتك صغيرتي..



ظلت الحيرة هي عنوان ملامحك، هززتِ رأسك بصمت كأنك تحاولين التحدث لكن لا تستطيعين.. انعقد حاجباي في قلق، انقبض قلبي أكثر وأنا أسألك:

- ألا يمكنك النطق؟

نافية حركت رأسك ليصيبني ذهول شديد..

ضاع مني الكلام أنا أيضًا.. هذا ما جنيته أنا، إلى أين أوصلتك؟..

ومع الحيرة المرتسمة على وجهك وأنت تنظرين إليّ خمنت أن الأمر أكبر من مجرد فقدانك القدرة على النطق..

تلفت حولي حتى وقعت عيناي على كتيب صغير معلق به قلم، ناولتك إياه حاثًا إياك لتكتبي أي شيء..

حروف قليلة كتبتِها بخط مهزوز لتناوليني الكتيب، وصدمة أخرى فوق رأسي تقتلع بقايا نبض ينسحب ببطء من داخلي.. عندما وجدت سؤالك الذي أشعرني بالضياع:

"من أنت؟"..

(٢٩)

كإعصار عاتٍ اندفعت مقتحمًا مكتبه، انتفض في مكانه ثم هب واقفًا محدقًا فيّ بدهشة وغضب.. لم أهتم بشيء، فقدت القدرة على التمييز بين ما هو من حقي أو ما هو صائب..

زلزلني سؤالك وأحال ما تبقى مني لأنقاض مهدمة فوق قلبي المنهك، إلى أين أوصلتك؟..

لقد أضعت كل شيء وها أنا تائه معك بعد أن رسمت جدران المتاهة بنفسي ثم نسيت أين المخرج!.. هتف في وجهي غاضبًا بشدة:

- ما هذا!.. أين تظن نفسك يا رجل؟

لم أسمع ما قاله أو أهتم بإجابته، فقط وقفت أمامه لاهثًا قلبي يخفق بجنون وأنا أتمتم ببلاهة:

- لا تعرف من أنا!

عقد حاجبيه في عدم فهم لثوان، فكر قليلًا ثم استنار فجأة هاتفًا:

- زوجتك؟

أومأت برأسي مجيبًا بنعم صامتة، فالحروف تبعثرت مني لا ضابط لها ولا رابط..

تحرك بسرعة من خلف مكتبه متجهًا نحو الباب الذي وقفت أمامه، تخطاني متجهًا نحوك.. تبعته كالمسحور، وأمام بابك توقف ثم طرقه بهدوء، فتحه ببطء وأطل منه مبتسمًا..

اقترب منك وأنا خلفه عيناي معلقتان بك، ولدهشتي أخفضتِ عينيك خجلًا من نظراتي، اتسعت ابتسامته لك ثم قال بهدوء:

- كيف حالك؟

نظرتِ إليه بقلق ثم أومأت برأسك في صمت، حافظ على ابتسامته وإن تخللها بعض القلق.. سألك بنفس الهدوء:

- لا تستطيعين النطق؟

نفيت بهزة أخرى، عاد يسأل:

- لا تعرفين من هو؟



وأشار إليّ، ونافية أجبتِه ثانية..

انقبض قلبي وكدت أبكي، هل نسيتني طفلتي!..

نعم أنا أستحق أن أسقط من ذاكرتك، بكل ما فعلته وما جعلتك تمرين به، أستحق ما هو أكثر..

لكن.. لا تنطقين!..

ضاع صوتك.. هذا حرمان كبير لا أتحمله، فحصك الطبيب بسرعة وعاد يلقي عليك عدة أسئلة متتابعة أجبتِها كلها بالنفي:

- ألا تذكرين اسمك؟.. كم عمرك؟.. أين أنت؟.. كيف أتيت إلى هنا؟.. ماذا حدث لك؟..

وأنت تهزين رأسك في خوف وتوجس.. ضممت قبضتاي بشدة وأنا أغمض عيني ألمًا، فتحتهما فجأة لأجدك تنظرين إليّ بأمل!..

وعندما تلاقت العيون استحيتِ وابتعدتِ بنظراتك..

آه صغيرتي، أنا أُذبَح معك في كل لحظة، قلبي ينزف ودموعي تأبي السكون، تغافلني محاولة قهري.. أفقت من خواطري السوداء على صوت الطبيب:





- حسنًا.. أنتِ اسمكِ شهد وهذا هو...

وأشار إلي متطلعًا نحوي بتفكيرلثانية أكمل بعدها بحزم:

- هذا هو وليد.. خاطبك..

صدمني ما قاله، ما الذي يهدف إليه؟.. لم قال أنني خاطبك فقط؟..

لم أعلق على كلماته فقد انشغلت بتلك الابتسامة الخجول التي ارتسمت على شفتيك وأنت تخطفين بضع نظرات نحوي ثم تعودين لبئر حيرتك من جديد..

انتهى هو من فحصك وطمأنك أنك ستكونين بخير وسيعاونك لتعودي كما كنت ثم أشار إلي لأتبعه..

كنت أود طمأنتك وطبع قبلة على جبينك، لكنني كخاطبك لم أستطع، أمريستحق السخرية بالفعل!..

اكتفيت بابتسامة وضعت فيها كل ما أمكنني من حنان واطمئنان ثم هززت رأسي مودعًا وتبعته..

***



الأفكار تتصارع في عقلي، والجنون يشتد..

في لحظة شعرت أنني سأنقض على عنقه ولا أتركها إلا محطمة، كيف جرؤ؟.. وما الذي يبتغيه من وراء هذا الادعاء؟..

في مكتبه جلس أمامي صامتا مفكرًا لدقائق وأنا الغضب يسري بداخلي لاهبًا حارقًا، لم أستطع الصمت أكثر فاستخدمت أكثر نبرة هادئة أمكنني التحدث بها وسألته:

- لم قلت لها أنني خاطبها فقط؟.. وبأي حق؟

ببرود نظر إليّ، الرجل لا يطيقني كما هو واضح، أجاب ببطء منتقيًا كلماته بعناية:

- هناك سببان سيد وليد..

لم أنطق.. اكتفيت بالتطلع الصامت المتسائل نحوه ليجيب بلا توقف:

- أولهما عقابك..

عقدت حاجبي غاضبًا، من يظن نفسه!.. هممت بالصياح في وجهه لكنه أوقفني بإشارة حازمة من يده مستطردًا بهدوء:



- أنت تستحق ذلك.. هل أنت سعيد الآن بالحالة التي أوصلتها لها؟.. فقدان القدرة على النطق وفقدان ذاكرة لا نعلم مداه حتى الآن!.. هل تعتقد أنه من حقك في هذه اللحظة أن تستعيدها وتعودا لمنزلكما زوجا وزوجة وكأنك لم تفعل شيئًا؟.. ماذا لو عادت لها ذاكرتها فجأة وهي معك؟.. هل تتخيل رد فعلها؟

انقبض قلبي لسؤاله، سيكون أسوأ مما يمكنني تخيله بالفعل!.. أكمل هو:

- ستكرهك بشدة.. أكثر وأكثر، لقد آذيتها وعندما وجدت صفحة ذاكرتها بيضاء تلاعبت بها وتجاهلتَ ما فعلتَ كأن شيئا لم يكن.. هل هذا هو ما تريده؟

ولأول مرة منذ جلسنا أتاح لي فرصة الرد على كلامه، كان على حق، لذلك أجبته:

- بالطبع لا.. أريد أن نعود كما كنا، حبيبين..

ابتسامة خافتة طفت على شفتيه ثم اختفت في ثانية، قال بعدها:



- حسنًا.. إذًا نحن متفقان، وهذا يقودنا للسبب الثاني.. تريدها حبيبة كما كانت!.. أغدق عليها حبك، واستبدل بذاكرتها الضائعة ذاكرة جديدة تشفع لك عندها عندما تعود لماضيها، اثبت لها أنك الزوج والحبيب القديم الذي يمكنها الاطمئنان إليه..

ترددت..

هذا هو ما أردته، سمعته يقول بتردد أشعرني أنا بالخجل:

- في الواقع سيد وليد، ما حدث هو هدية الله إليك، فرصة ثانية قلما يحظى بها أحد.. فلا تضيعها واستغلها جيدًا لتصلح ما أفسدته من قبل..

هو على حق، وأنا لن أضيعها أبدًا.. سألته باهتمام:

- حسن.. ما الحل الآن؟.. كيف ستستعيد ذاكرتها؟.. وماذا عن طفلتنا؟

تنهد مفكرًا، رد في حزم:

- هذه الأمور تحتاج لاستشاري نفسي، للأسف لن أفيدك فيها.. يمكنني أن أسأل لك زوجتي وأعرض عليها التقارير الخاصة بزوجتك ونرى رأيها..

تشبثت بما قال في لهفة:



- حقًا!.. زوجتك طبيبة نفسية؟.. هذا ممتاز، أن تتعامل مع سيدة فهذا أفضل..

ابتسم وكأنه شعر أنني غيور فقط، وفي الواقع كنت كذلك بالفعل، أجابني برحابة صدر:

- سأعرض عليها الأمر وأحدد لكما موعدًا لزيارتها بعد أن تسترد زوجتك عافيتها..

فجأة قفز سؤال في ذهني، ألقيته عليه مترددًا:

- كيف ستعود معي للمنزل!.. وهي تعتقد أننا خطيبين فقط!..

مط شفتيه في تفكير، ثم سألني:

- لا أقارب لها مطلقا؟

قفز لعقلي خالتك، تبعها ابنها، فألغيت الفكرة تمامًا.. أجبته:

- لها خالة لكنني لن أتركها هناك، هل يمكن أن نخبرها أننا زوجان، أعني معقود قراننا فقط؟

هز رأسه نفيًا وأجاب:



- بالطبع لا.. وحتى إن كان كذلك فهذا لا يعطيكما الحق في الإقامة في منزل واحد..

لم أعرف كيف أتصرف، ظهرت الحيرة على ملامحي لأجده يقول في تردد:

- أود أن أنبهك أنها يمكن أن تحتجز في مشفى زوجتي حتى تمام شفائها، حسب ما ترى طبيبتها، وحسب احتياجها.. لا تفكر في الأمر الآن واترك القرار للطب في حينه..

انقبض قلبي ثانية..

مشفى!.. احتجاز!..

شعرت بالتيه مجددًا ولا مستقرَلي، حتى أنت صغيرتي ضعتِ مني وبشدة فلم أعد أستطيع السكن إليك أو الرسو باطمئنان وهدوء على مرفأك..

طمأنني الرجل أكثر، سيسرع في الإجراءات بحيث تراك الطبيبة النفسية في أقرب وقت وتعد تقرير عن حالتك لنبدأ رحلة البحث عن طريقة العلاج المناسبة، كانت هذه خطته العلاجية..

أما خطتي أنا فكانت رسم لوحة ذاكرتك بألوان جديدة من عشقي فقط..



القصة أنا بدأتها وأنا أنهيتها.. خطوط البداية عشق، وخطوط النهاية وجع..

لتضيع زوجتي، وتخافني صغيرتي..

أتحمل ذنوبي وحدي كيوم البعث، وعليّ أنا فقط يقع وزري..

لوحتي الجديدة ستكتب بقصائدي القديمة المحفوظة في قلبي منذ ميلادك، بدم قلبي أنثره ليروي زهرة الهوى بين يديك، راض آمن مطمئن، حبه مستباح لك أنت فقط ومهما كان الثمن..

***

بعدها بأقل من أسبوع قابلت الطبيبة..

طيلة تلك الأيام كنت ملازمًا لك تقريبا، زارتك خالتك مجددًا ومنعتْ ابنها من الحضور، جيد أن فعلتْ..

لا تعلمين صغيرتي كم كنت أخشاه!..

أخاف أن يأخذك مني حتى لو لم يكن لنفسه..



بعدما علمتْ والدته بما حدث لك ازداد شكها في وعنفتني ثانيةً، لفقتُ قصة عن مشادة بيننا وصراخي وغضبي ثم خروجي حانقًا من المنزل لأعود وأجدك هكذا مضرجة في دمائك فاقدة لوعيك..

لم تصدقني وارتسم الارتياب واضحًا على وجهها فقد قلت من قبل أنني عدت من سفري لأجدك هكذا، تكرار الكذب مدعاة لعدم تصديقي، لكنها صمتت وانتظرت معي نتيجة التقارير التي أرسلها طبيبك لزوجته..

أخبرتني أنها لن تتركك وحدك مرة أخرى، أعلمتها مجبرًا أن الطبيب أخبرك أنني خاطبك فقط، ومع دهشتها ازداد الشك بداخلها نحوي وأقسم أنها كادت تسألني مباشرة إن كنت قد آذيتك جسديًا لكنها شعرت بالخجل..

طبيبتك كانت سيدة بشوش ذات ملامح هادئة ودية وابتسامة أم حنون..

عندما جلست أمامها كنت أشعر بحرج شديد فلابد أنها تعرف ما حدث لك وستطلب مني إخبارها بالمزيد وهذا أثار خجلي بشدة.. مما حدث ومن نفسي وفعلتي البشعة..

قلبت الأوراق أمامها لثوان ثم رفعت عينيها إليّ وخلعت منظارها الطبي راسمة ابتسامة حنون متفهمة على وجهها، سألتني بهدوء:



- كيف حالك سيد وليد؟.. أخبرني زوجي عن مشكلة زوجتك وطالعت التقارير الخاصة بها، بالطبع نحتاج لمزيد من الاختبارات لمعرفة المدى الذي وصل إليه فقدان الذاكرة لديها وإن كانت تذكر أي شيء من ماضيها أم لا، الآن أريد منك أن تقص عليّ كل شيء بالتفصيل منذ البداية وكيف وصل بها الحال إلى فقدان ذاكرتها وقدرتها على الحديث!..

تطلعت إليها وجلًا خائفًا.. الأمر سيء للغاية وأنا السبب، لكنني أريدك أن تعودي كما كنت، أرغب في شفاءك ولو كرهتني بعدها..

سأخبرها، وبكل تفاصيل حياتنا معا منذ حملتك لأول مرة في لفافتك من بين ذراعي والدتي حتى اغتلتك بشكي وغضبي ووحشيتي وأفقدتك طفلنا..

أخذتُ نفسًا عميقًا وانطلقتُ أسرد عليها كل شيء، طيلة ساعتين لم تقاطعني فيهما سوى لسؤال عابر مستفهم أو موافقة على نقطة ما، أو طلب توضيح..

تفاعلت معي بصوتها وعينيها وكلماتها، كان يظهر عليها بعض الاستياء أحيانًا مرغمة لكنها تحبسه ببراعة مشيرة إليّ باستكمال الحديث..



عندما انتهيت وجدتها تخبرني أنك لست وحدك المريضة، وقبل أن أسخر منها كانت توقفني بلهجة حازمة:

- سيد وليد.. انظر لحالك واستمع جيدًا لما سردته عليّ طيلة الساعتين الماضيتين، أنت لا تتحكم بغضبك جيدًا.. انفعالي عصبي لأقصى حد ولدرجة الإيذاء.. لديك شك كبير في كل من يحيط بك وتتصرف على أساسه.. نوع من الوسواس لو أردت رأيي.. أنت تحتاج لعلاج مكثف قبل أن نحاول علاج زوجتك لأن علاجها سيتوقف في جزء كبير منه عليك، أن تكون سويًا بما يكفي سيساهم في علاجها، رفضك العلاج أو عدم الاقتناع بحاجتك إليه سيؤثر سلبًا على حالتها، فما هو رأيك؟..

تسألني عن رأيي في شيء هو جيد لك!.. بالطبع حازت على موافقتي، عادت تقرأ الأوراق أمامها ثانية ثم تكلمت بعدها بطريقة عملية مهنية:

- مبدئيًا فقدان الذاكرة لدى زوجتك غالبًا هو من النوع الذي نطلق عليه فقدان مفاجئ للذاكرة، نتج عن صدمة شديدة تعرضت لها وبالتالي يعتبر العرض نفسيًا أكثر منه عضويًا فكان الحل أمام المخ هو النسيان، علاج هذا النوع من فقدان الذاكرة متنوع ما بين نفسي ووظيفي ويمكن إعطائها بعض العقاقير المقوية للذاكرة لكنها ليست ذات فائدة عالية.. في

البداية سنحاول إنعاش ذاكرتها ببطء عن طريق سرد بعض القصص القديمة ويفضل السعيدة منها، يمكن التحدث معها عن والدها، عن طفولتها ووجودك إلى جوارها، أن نريها بعض صورها القديمة، كتابات بخط يدها وهكذا.. ونظرًا لأن زوجي قد أخبرها أنك فقط خاطبها فهذا يعني للأسف أنها لن ترى طفلتها بشكل مؤقت حتى تتحسن وتبدأ في التذكر.. غالبًا ستعود لها ذاكرتها بالتدريج مع الوقت، أما قدرتها على الحديث فهي مرتبطة بشكل كبير بنفس الصدمة التي تعرضت لها، وستعود لها مع عودة الذاكرة تدريجيًا.. ستكون بخير بإذن الله سيد وليد لا تقلق..

كنت أتطلع إليها وهي تتحدث في أمل، قلبي ينبض بفرحة على الرغم من ارتعابي من مجرد التفكير أن تتذكريني ويمثل أمامك ثانية ما فعلته بك!..

سألتها باهتمام قلق:

- هل ستقيم هنا في المشفى؟

أومأت برأسها مجيبة:

- نعم.. هذا أفضل لها، وأنت ستتابع معنا جلسات محددة بشكل دوري كما اتفقنا..

ترددت للحظة ولمحت هي ترددي فحثتني بعينيها على الكلام، أجبت سؤالها الصامت:

- ابنتنا غفران.. منذ ذلك اليوم وهي خائفة مني بشدة، ترفض اقترابي منها وتبكي، كما أنها ترفض الحديث مع أي أحد على الرغم من أنها تكلم دميتها عندما تظن أنها وحيدة..

عقدت حاجبيها في قلق وسألتني باهتمام:

- هل رأت أو سمعت شيئًا يومها؟.. أنت لم تخبرني..

أومأت برأسي في حزن صامت، فزمت شفتيها فيما يشبه الغيظ، لكنها عادت تقول بلهجة عملية:

- حسنًا.. لمَ لا تأتيني بها؟.. سنحاول جمعكما سويًا واستعادة ثقتها بك مجددًا..

ابتسمت فرحًا ووافقتها في الحال..



اهتممت بك وبها، وفي غضون أيام تالية أصبحتِ أحد المقيمات في مشفاها ودومًا تلك النظرة القلقة المحتارة في عينيك عندما تتطلعين إلي..

كنت أحاول أن أبادلك نظرتك بلمحات اطمئنان من عيني لكنها قهرًا ما تخرج مني قلقة متوترة لتخيفك أكثر..

بعد أسبوعين فقط بدأت صغيرتي تستجيب إلي، لا ترفض محاولاتي للاقتراب منها وفي الأسبوع الثالث أمسكت بيدي، بعد انتهاء الشهر كنت أضمها بين ذراعي..

كدت أموت فرحًا يومها..

لكن أتتني الأخبار التي نسيتها في خضم انشغالي بك وبها!..

إنها "ضحى"..

لم ترضَ بالرحيل الصامت فافتعلت دويًا يصم الآذان، أشاعت في الشركة قصة زواجي بها وأنني آذيت زوجتي.. أنني متوحش قاس لا يرحم، أساءت سمعتي عند العاملين لدي، وفي النهاية سرقت ثلاث ملفات لمناقصات هامة وكبيرة في السوق وخسرتهم شركتي بجدارة لأفقد الكثير حينها..



لكنني رغم ذلك لم أهتم، جُل همي وقتها كان أنت وصغيرتنا.. بعد اطمئناني عليك وعلى الرغم من أسئلة "غفران" المتكررة عنك لألهيها في كل مرة بحجة مختلفة فقد تركتها عند خالتك..

نعم هناك هو أنسب مكان لها..

سأزورها كثيرا وأهتم بها، لكن مع خالتك وابنها ستكون أفضل لأتفرغ لك..

ولانتقامي!..

نعم لا تفزعي..

أحدهم لم أنسه ولم يحظَ بنصيبه مني بعد، في خلال سنة أفقدته نصف أمواله دون أن يعرف من أنا!.. صرت شبحًا قويًا مخيفًا مثله في السوق، وبدون دماء أو ذبح..

في النهاية وبعد خسارة قاتلة أصابته نوبة قلبية ليلحق بأبي خاسرًا مهزومًا ويتقلد ابنه التافه الحكم مكانه..

لكنه لم يكن أبدًا ندًا لي، في خلال أشهر أخرى كانت شركته تنضم لشركاتي بعد أن خسر كل ما يملك، ودون أن يعرف لمن!..

كنت أتمنى ذبحه.. أمام عيني ابنه كما فعل مع والدي..

لكن قلبه الضعيف أنقذه قبلها وتلك الجلسات التي كنت أداوم عليها للتحكم في غضبي..

لو تركت نفسي لقتلته بيدي العاريتين..

لم أكن أنتقم لوالدي فقط، بل لك أيضًا.. لنفسي.. لسنوات عذاب وقهر وظلم عشتِها راضية في صمت لأنني فقط أمتلك قلبك..

ويا ليتني حافظت عليه..

لكنني تغابيت وجننت وذبحتك أنت في النهاية..

بعد عام وبضعة أشهر أنهيتُ كل شيء.. صغيرتي بخير، أنت بخير، وانتقامي انتهى.. خالتك وأبناؤها يزورونكِ بانتظام، والأخبار جيدة حتى الآن..

فقط ينقصني سماع صوتك، ونظرة نحوي لا تحمل تلك الحيرة المعتادة وكأنك دومًا وعلى الرغم من معرفتك أنني خاطبك؛ تسألينني:

"من أنت؟"..



(٣٠)

الأخير

على كابوس مزعج استيقظت!..

العرق يغمرني، قلبي ينبض بسرعة وقوة مفاجئة، دوار ألم بي للانتفاضة المفاجئة في فراشي، ومضات كانت تأتي أحيانًا من بعيد تصيبني بصداع يكاد يشج رأسي لكنها هذه المرة اقتحمت عقلي اقتحامًا صادمًا..

كأنني كنت في غيبوبة وأفقت دفعة واحدة!..

الظلام يحيط بي، الهدوء شديد، أسمع أنفاسي بوضوح..

مددت كفًا مرتجفة أتحسس بطني وأنا أنظر إليها محاولة اختراق حُجُب الظلام، ثم انهرت في بكاء وصراخ شديدين حتى أضيئ مصباح الغرفة فجأة وأتى بعضهم متلهفًا ليرى ما بي!..



أصوات عالية متعاقبة، نداءات ثم محقن ينغرس في ذراعي لأغيب عن الوعي عائدة لعالم الكوابيس الذي خرجت منه للتو..

مرت عدة أيام بعدها قبل أن أستوعب ما حدث!.. أين أنا وكيف مضى علي ما يقرب من عام في هذا المكان ناسية ومنسية!..

وأنت!..

تزورني كل يوم.. بلا ملل أو كلل، تغمرني بدفئك وحبك ورفقك، تقول أنك خاطبي.. لا لم تقل: طبيبي أجبرك.. لا تلمسني فقط تجلس أمامي وابتسامة حنون تعلو شفتيك وتتأملني في صمت..

عندما تتحدث تخبرني عن ذكريات طفولتنا، تضحك بشقاوة، تمنحني نظراتك الدافئة بلا حساب..

أين طفلتي؟.. هل تأذت يومها أيضًا؟..

الآن أعلم أنني فقدت جنيني، لكن ماذا عن "غفران"!..

بعد تلك الأيام قابلتها لأول مرة وأنا أعلم جيدًا من أنا.. طبيبتي!..





قصت عليّ كل شيء، محاولاتك المستميتة لعلاجي، لأعود كما كنت حتى لو كرهتك وتركتك، خضوعك أنت نفسك للعلاج فقط لتساعدني وتحسن من ردود فعلك الغاضبة على الدوام..

أتذكر لمحات من جلوسك أمامي يوميًا لساعة تبثني فيها بصمت حبك، طيلة عام كنت إلى جواري..

لكن بعد ماذا "وليد"؟..

بعد أن أضعت كل شيء!..

أخيرًا أفقت من غيبوبتك، لكن بعد فوات الأوان..

سألتها عن طفلتي لأعلم تضحيتك الجديدة، أنت تتركها مع خالتي وتزورها فقط، لأنك تعلم أنها ستكون أفضل هناك..

أخبرتني عن زوجتك الثانية أو فلنقل مطلقتك وما فعلته بك، عن الفضيحة التي تسببت فيها لك، عن الخسائر المادية التي كبدتها لشركتك، عن عدم اهتمامك ولامبالاتك بما حدث لتبقى إلى جواري تساندني وتساعدني..



أخبرتني أنني بحاجة للمزيد من العلاج لأتخطى صدمتي النفسية بسبب ما فعلته معي نظرًا لأنني أتذكركل شيء الآن..

أقنعتني أنك تغيرت..

تحدثت معي عن ظروفك، منذ حادثة والدك، ذبحه أمام عينيك، ألم قاس لا يتحمله بشر، فقدانك لبصرك، ثم صدمة أخرى بزواج والدينا..

شك أثاره ضابط شرطة بداخلك نحو عمك، تجمعت لديك أطراف خيوط وهمية لم تتأكد منها وعلى أساسها تصرفت..

حالتك لم تكن تسمح بالتقصي والتروي، رأيتني الطرف الأضعف في المعادلة، أنني أصلح لأكون أداة لانتقامك من أبي!..

أخبرتني أيضًا أنك علمت من الجاني الحقيقي وأخذت حقك وحق والدك وحقي منه..

حدثتني عن لحظات الضعف التي كانت تنتابك نحوي طوال سنوات زواجنا، قلبك الذي كان يعاندك دومًا لأنه يعشقني، عن صمتي واستسلامي الذي جعلني لقمة سائغة بين يديك!..



عن غيرتك الطاغية وحبك الأعمى وغضبك الشديد عندما ظننت أن "كريم" أوصلني يومها وحدنا.. أنني كنت معه!..

عن خطأي أنني لم أخبرك بحملي مبكرًا.. عن طلاقك من "ضحى" في اليوم التالي لزواجك منها..

ظروف وملابسات عديدة تحتاج مني لإعادة نظر في أمرنا، زاوية جديدة أطل منها على الموضوع.. قلبي الغبي حثني على مجاراتها، أنت وبعد كل ما فعلته..

ظن خاطئ في والدي، تعذيبك لي واستخدامي كأداة انتقام أعمى، خوفي منك، حصولك على حقك الزوجي مني عنوة دون إرادتي، لتفقدني طفلي وذاكرتي وصوتي؛ بعد كل هذا لايزال الأحمق الصغير يهفو لأمل في لمحات العشق القديمة معك..

كأنها تجربة لم أخضها بشكل صحيح ويود إعادتها هذه المرة كما ينبغي!..

جاريتها بالفعل، لمدة عام آخر تخليت فيه عن رؤية طفلتي إلا في صور على أنها طفلة تعرفها وهي قريبتنا..



لقد كبرت وأصبحت تشبهك أكثر مني، على الرغم من لون شعرها الذي يماثلني.. عام كنت أجلس فيه أمامك بعد أن حثتك طبيبتي على التقرب مني أكثر.. على لمسي..

لأول مرة خفت وأبعدت كفي..

أصابك التوتر لكنك حاولت مجددًا، شعرت بها باردة كالثلج بين أصابعك، كنت أخافك "وليد"..

أخشى غضبك..

ماذا ستفعل بي هذه المرة؟.. كيف ستؤذيني؟..

عام كامل أمثل وأدعي فيه المرض فقط لتكون أنت كما أنت، حبيب عاشق مهتم..

كنت أخشى عودة ذلك الوحش بداخلك للحياة، نبضات قلبي تناديك، أحاول إخراسها لكنها فقط تعلو بصوتها أكثر..

عندما فاض في النهاية الشوق بي لطفلتي، عندما شعرت أنك تغيرت بالفعل حتى عن "وليد" الصغير الذي تربيت معه، لقد أصبحت أكثر

هدوءً وحزمًا وقوة، أكثر حنانًا مما كنت أتوقع: تحدثت مع طبيبتي في الأمر..

الآن أريد أن أخبرك.. أريدك أن تعلم، الآن حان الوقت لترى نفسك بين ذكرياتي من جديد، سألتني طبيبتي وقتها:

- هل سيمكنك المواجهة؟

سؤالها البسيط والمباشر أصابني بالتوتر الشديد، صمت مفكرة ولم أعلم ما أقول، أجبتها في حيرة:

- لا أعلم.. لن يمكنني التخمين قط إلا بالتجربة..

ابتسمت تلك الابتسامة التي تشعرني أنها كأمي، ردت ببساطة:

- وهل ستتحملين التجربة؟.. هل قررت الصفح والمحاولة من جديد؟.. منحه فرصة أخيرة؟.. أم...

تركت بقية سؤالها معلقًا بدون أن تكمله، فركت كفي بعصبية هاتفة:

- أشتاق لطفلتي.. يكفي هذا، عام وأنا أعرف أنها في الخارج هناك ولا أستطيع رؤيتها، وليد لا يستحق هذه التضحية الكبيرة لأجله..



عادت تبتسم في تفهم، لكنها قالت بحزم:

- أنت لا تفعلين ذلك من أجله فقط، بل من أجلك.. من أجل حبك له، حبه لك الذي على مدار عامين رأيته يحاول إثباته أمامك في كل لحظة.. من أجل طفلتكما التي تستحق أبوين ومنزلًا سويًا تحيا فيه بأمان..

أحزنني ما قالته..

أنا منحتك فرصة لتثبت حبك، اهتمامك، أن أشعر بالأمان معك من جديد، وأنت أثبت بجدارة أنك تستحقها..

كنت مريضًا وعلى الرغم من عدم اعترافك بالمرض وبالتالي رفضك العلاج لكنك فعلتها لأجلي..

لم تحاول لمسي على الرغم من أنني زوجتك إلا بعد أن حثتك طبيبتي على ذلك..

تقربت مني بكل الوسائل الممكنة، تركت طفلتك الوحيدة عند من تغار منه لأنه الأفضل لها..

تأتيني يوميًا لتبقى بالقرب مني تبثني حبك واهتمامك..



فهل بعد كل هذا أنا قادرة على المسامحة والبدء من جديد؟.. على المواجهة؟.. على الحديث في الأمروسماع اعتذاراتك وتقبلها؟..

لا أعلم!..

حقيقة لم أكن أعلم..

رفعت عيني إليها بعدما احترمت صمتي الطويل كأنها تمنحني الفرصة لتصفية ذهني والتفكير بشكل عقلاني في هدوء.. قابلتني بابتسامتها المعتادة، همست في تردد:

- لا أعلم إن كنت أستطيع مواجهته!.. ما أعلمه جيدًا أنه طوال عامين منهما واحدًا كانت ذاكرتي قد عادت فيه بكل لحظات حبه وقسوته وتجبره الماضية لم يتخلف عن موعد معي، لم يقتصد في بثي حبه، أوحتى التغزل في، في حنانه ورقته وعطفه.. لقد تغير كثيرًا حتى عن وليد اليافع الذي رباني على يديه، هل سأتحمل مواجهته؟.. حقيقة لا أعلم لكنني أشتاق لطفلتي بجنون..

سألتني باهتمام:



- عندما تواجهين؛ ستجدين رصيدًا قديمًا جدًا من الحب، ورصيد آخر من القسوة والألم والذكريات المريرة.. وآخر من العشق رأيته بنفسي طوال عامين.. أيهما ستكون له اليد العليا وقتها في قلبك وعقلك؟.. عندما تعلمين إجابة سؤالك، ستعرفين مدى قدرتك على المواجهة من عدمها..

عدت لصمتي من جديد، قهرًا لايزال قلبي ينبض لك ويهفو لحنان اعتاده مؤخرًا منك، لكن هل لو عدتُ ستبقى أنت بحنانك وحبك ورقتك الحالية؟.. أم ستعود معي لبحر القسوة الذي أغرقتني فيه؟..

أنت مسافر هذه الأيام، لن أراك حاليًا وأمامي وقت لاتخاذ القرار، عندما ستعود سأعلم ماذا سأفعل.. سمعتها تحادثني معلنة أمرًا لم أضعه في حسباني:

- عندما يعلم أنك أصبحت بخير، وأنك ستعودين معه كزوجة، ستكون حياتكما عادية، لا تنسي هذا.. ستكونين زوجته بشكل طبيعي كما تفهمين، وعلاقتكما من المفترض أن تكون طبيعية.. فهل ستقدرين على تقبل أمر كهذا!.. الآن؟

انتفض قلبي فجأة بعد سؤالها..



بالفعل لم أفكر في هذا الأمر، في البداية كنت أخشى لمستك، لكنني وبعد فترة استكنت لها، ودفء أصابعك عاد يشعرني بحبك، لكن أن أعود زوجتك!..

حتى لو تغيرت أنت؟.. أهذا ممكن؟..

عندما لمحت القلق على وجهي ابتسمت وعادت تقول:

- هو لن يجبرك على شيء، ثقي بهذا لأنني أثق به كطبيبتك وطبيبته، ما حدث بينكما سابقًا لم يكن بالأمر الهين أو البسيط، لذلك يعتبر بالنسبة له حاجزًا عاليًا قاسيًا لن يتخطاه أبدًا إلا بموافقتك ومساعدتك.. وعندما يحين الوقت المناسب لك..

طمأنني حديثها ثانية، كم أحبها تلك المرأة، كأنها أمي على الرغم من أنها تكبرني بأقل من خمسة عشر عامًا، سألتها كأنني أتأكد:

- أحقا سيفعل؟

أجابتني بثقة:

- بالتأكيد..

عدت أبتسم، ثم أبلغتها قراري:



- أريده أن يعلم، في سفره.. ليستعد نفسيًا لمواجهتي هو الآخر..

أشارت موافقة وبدأت التنفيذ على الفور..

لقد سافرت بالأمس وأمامك خمسة أيام أخرى لتعود، حضر نفسك لأننا سنتقابل وجهًا لوجه من جديد..

بذكرياتنا القديمة وعبق الماضي المؤلم، وكم أخشى هذا اللقاء وأنتظره في نفس الوقت..

***

نبض قلبي بشدة لدى اتصالها..

إنها تتذكر، هي بخير لا تقلق، لكن لابد أن تراها..

طيلة عامين مضيا كنت أخشى هذه اللحظة، لحظة عودتك من عالمك إلى عالمنا، الذي يحمل ذكريات ماض موجع بشدة، أشعر بالرعب..

كيف ستنظرين إليّ؟.. هل ستتحدثين معي؟.. أم ستهربين من أمامي؟.. ستتركينني؟.. أم تمنحينني فرصة أخيرة أثبت لك فيها أنني تغيرت؟..



أنني حتى لم أعد "وليد" الصغير المتيم، لقد نضجت كثيرًا، أصبحت رجلًا عاشقًا بنكهة مختلفة..

نكهة حملت وجعًا وحزنًا لا حد لهما، قصمت قلبي فتملكته..

ليومين ظللت أفكر وأفكر حتى كاد عقلي يجن ويتوقف عن العمل، ثم اتخذت القرار..

ما أفعله مجرد تأجيل لا طائل من ورائه، سأقابلك في النهاية شئت أم أبيت، في اليوم الثالث كنت في الوطن، أجلس أمام طبيبتك، سألتها متوجسًا ملهوفًا:

- أهي بخير؟.. ماذا تفعل؟.. وكيف تصرفت عندما عادت لها ذاكرتها وعلمت ما حدث؟

بابتسامتها الودود أجابتني:

- هي بخير سيد وليد لا تقلق.. بالطبع كانت حزينة غاضبة، لكنها تعلم ما فعلته لأجلها طيلة الفترة الماضية وعلى استعداد للقائك، ستترك الصغيرة هنا وتقابلها أولًا.. تحتاجان للحديث بدون مؤثرات نفسية أو ضغوط..



ربت على رأس صغيرتي برفق وتركتها معها، طلبت مني مقابلتك في غرفتك لنحظى ببعض الخصوصية..

ربما لألا يسمع صراخك كل من في المكان، بالتأكيد ستصرخين في وجهي!..

بخطوات مترددة توجهت إليك، أمام الباب توقفت.. حائرًا، خائفًا، قلقًا، داعيًا الله أن يرمي في قلبك ذرة واحدة تتقبلني وتسمح لي: لا ليس بالصفح، بل بالتواجد حولك..

ولو من بعيد..

***

شاردة أمام نافذة غرفتها التي تطل على حديقة المشفى بزهورها اليانعة، قلبها يحاورها، عقلها يجادلها، روحها تعاندها، حتى جسدها تعرَّق بشدة على الرغم من تلك الرجفة التي تسري فيه بعدما علمت بعودته قبل موعده..

بكَّر موعد المواجهة، وخلق بداخلها قلقًا لا حد له، أخبرتها ممرضتها أنه هنا، سيأتي بعد قليل، وكلما طال الوقت واقترب حضوره، انتفض قلبها



أكثر، توترت وخافت، سالت دموعها على وجنتيها غير قادرة على إخضاعها لإرادتها..

كيف ستقابله؟.. تواجهه بما فعله؟.. تستمع لتبريراته؟.. بل كيف ستنظر إليه ويقتحم أذنيها صوته!..

انتزعها من شرودها طرقة خافتة مرتبكة على بابها..

إنه هو..

لم تستطع فتح فمها حتى لتسمح له بالدخول، انسابت دموعها أكثر في صمت وازدادت رجفتها، فتح الباب بهدوء خلفها، لم يمكنها النظر!..

سمعت خطواته البطيئة المتوترة، صوت إغلاق الباب، إنه يقترب، صوته يتسلل بخفوت إلى أذنيها:

- شهد!..

هتفت بسرعة بنبراتها الدامعة:

- لا تتكلم..



واستمع إليها، صمت وطال صمته، هي لاتزال تبكي ولا تنظر إليه، تحرك خطوة أخرى نحوها لاحظتها فصاحت في خوف:

- لا تقترب..

سمعت تراجعه.. توتره.. همسه الحزين:

- لا تخافي مني.. لن أؤذيك أبدًا..

همست بغضب:

- لقد آذيتني كثيرًا بالفعل.. فما الذي تبقى؟

صوته آتاها دامعًا:

- نعم فعلت.. وندمت، كرهت نفسي وحماقتي وغبائي، غضبي وعماي، حتى عشقي المجنون وغيرتي التي تسببت في ذبحك على يديّ.. والآن أنا هنا، بين يديك، أطلب... فقط أطلب أن أكون بالقرب منك، أعلم أن النسيان صعب...

قاطعته ساخرة:

- بل مستحيل..



عض شفتيه أسفًا، أكمل ببطء:

- نعم هو مستحيل.. تسببت لك في جروح كثيرة لن تبرأ..

ردت بوجع:

- ندوب يا زوجي.. مهما فعلت ومهما طال الزمن فسيبقى أثرها باقيا ليذكرني كيف حدثت وتركت ذلك الأثر في روحي..

أغمض عينيه، ضاعت منه الكلمات فهي غير مجدية على أي حال، حاول قول شيء فتحشرج صوته ولم يخرج منه حرف، لكنها هي من تحدثت في حزن:

- كيف أمكنك؟

تركت السؤال معلقًا لثوان، هزت رأسها بشدة كأنها تطرد صورًا مؤلمة من ذاكرتها، أكلمت:

- كيف استطعت أن تقتل طفلك؟.. لا تصدق في وجوده، تتنكر له، تتهمني أنه إن وجد فهو من آخر!.. هل صدقت بالفعل أنني يمكنني أن أترك آخر يضع عليّ إصبعه حتى!.. ذبحتني مرارًا وتكرارًا، استعذبت آلامي، تغاضيت



عن وجعي، زدت فيه بقسوة وتجبر، وفي النهاية تزوجت من أخرى؛ فقط لتهينني أكثر..

التفتت إليه فجأة بعينيها الدامعتين، تأملته للحظات، ضغطت أسنانها بشدة وهي تهتف فيه:

- كيف أمكنك؟.. أجبني..

تطلع للدموع في مقلتيها، على وجنتيها، الحزن المرسوم على ملامحها.. تمنى لو يضمها، يمسح آلامها بلمسة، تنهد بصعوبة وقلبه نبض بعنف.. أجابها بحروف متقطعة:

- لا أعلم شهد.. كنت أعمى، أعمى القلب، كأنني جثة تسير بلا هدف سوى الانتقام.. يحركها الغضب، تعميها الغيرة، يقتلها عشق لا يمكنها التعبير عنه، شيطاني تمكن مني حتى أنهى هو كل شيء وأضاع مني.. أنت..

هزت رأسها بعنف رافض، صاحت غاضبة:

- أنت من فعل.. لا تتهم الشيطان، فقد جلس هو في مقاعد المتفرجين محييًا إياك ومصفقًا بشدة وانبهار لما كنت تقوم به معي..

ازدرد ريقه بصعوبة، عاد يهمس وهو متجمد في مكانه:





- حاولت إصلاح أخطائي طيلة عامين مضيا، ألا أستحق فرصة أخيرة؟

تفحصته بعينيها من خلف غشاوة الدموع، تنهدت بصوت متقطع، أجابت بعدها بحسم:

- منحتك مئات الفرص وليد، أضعتها كلها، لا تأتِ بعد فوات الأوان لتبحث عن فرصة أخيرة، فقد حظيت بها بالفعل، لكنك دهستها بقدميك.. أنا أخشاك وليد، هل تتصور أنه يمكنني أن أعود إليك!.. أن أمحو الماضي من ذاكرتي!.. خمس سنوات ختمتها بليلة دامية!.. هل نسيت طفلك الذي تسببت في موته!.. وغفران، كانت ستضيع هي الأخرى، أنا نفسي كدت أموت!.. لا وليد، لا مزيد من الفرص، لقد استنفذتها كلها وحان وقت الفراق.. اترك لدي ذكرى حسنة وحررني منك..

بدا توَجُع شديد على وجهه، فجأة دموعه أصبحت كالسيل تنافس دموعها، تأوه بخفوت، هزرأسه رافضًا السماع، ورمي بجسده على مقعد خلفه كأنه يُسلِمُ الروح، رفع عينيه إليها ثانية متضرعًا:

- لا تفعليها شهد.. سأموت لو تركتني..

انهمرت دموعها بسرعة أكبروهي تقول بألم:





- وإن بقيت معك سأموت أنا..

نبض قلبه بعنف، أكملت هي بحزم من بين خطوط الدموع على وجنتيها:

- أيهما تختار الآن!.. موتي أم موتك أنت؟

خفض عينيه في ألم مستسلم، لقد استحق ذلك، ومهما حاول وبذل من جهد فهو لا يستحقها، لا يستأهل قربها أو قرب طفلتهما..

هي نفسها لا تستحق منه أن يحاول، فهو لم يعد يصلح لها، كفاها منه ما رأت، ستكون أفضل بدونه حتى وإن أُزهِقتْ روحه من دونها..

نهض متهدل الأكتاف مطأطأً رأسه في استكانة واستسلام، همس بصوت خفيض لا يكاد يسمع:

- سآتيك بغفران، وسأنتظر في الخارج حتى تنتهي من حزم حقائبك لتعودي للمنزل..

رفعت عينيها إليه تتأمل ملامح الانكسار على وجهه، دموعه التي لم تجف بعد، أوجعها قلبها لكنها أخرسته بعنف.. أجابته بحزم:

- سأنتظرها..



وكان لقاءً مشحونا مع طفلتها..

دموع، قبلات، ضمة تكاد تختلف فيها الضلوع..

في النهاية وجدت نفسها متوجهة معه لمنزلها الذي فارقته آخر مرة في سيارة إسعاف، هناك أوصلها وحمل حقائبها للداخل..

وقف أمامها صامتًا لثوان، همس بأمل:

- ألن تفكري ثانية في فرصتي؟

ظلت تتطلع إليه منكس الرأس، شعرت بالقوة تسري في عروقها، إنه يشعر بالذنب وبشدة.. لكن هل هذا يستحق فرصة!..

وإن كان!.. فهل بإمكانها منحه إياها!.. وصلها همسه مجددًا:

- طوال العامين الماضيين حاولت أن أكفر عن بعض من الألم الذي سببته لك، من مات هو طفلي أيضًا، هل يمكنك أن تتخيلي أن تقتلي طفلك بنفسك!.. أن تخشاك طفلتك!.. أن تنساك حبيبتك!.. أن تكتشف عماك من جديد على الرغم من إبصارك للنور!.. أعلم أنني آذيتك لكنني آذيت نفسي معك، مقابل كل وجع تسببت فيه لك كنت أفقد قطعة مني، من روحي.. روح وليد العاشق الصغير الذي ذاب في حبك منذ ميلادك..

عامين شهد، ألا يشفعان لي ولو قليلًا؟.. لن أطالبك بشيء أبدًا، فقط أريد أن أبقى حولك أنت وابنتنا.. بالقرب منكما..

طال صمتها وهي تتطلع إليه ثم جاءه جوابها:

- وخمسة أعوام هي حصيلة ظلمك لي وقهرك لقلبي وساديتك مع وجعي وآلامي، هل يمكنك أن تكمل الخمس في محاولة نيل صفحي وغفراني؟

رفع رأسه إليها مجيبًا بسرعة وحزم:

- لا شهد..

تطلعت إليه بدهشة واستنكارلكنه أكمل بنفس اللهجة الصادقة:

- بل ما بقي لي من عمر.. كل يوم، كل ساعة وكل لحظة، سأحاول وأحاول حتى أناله..

كللهما الصمت، لم تعلم ماذا تفعل!..

عقلها يمنعها لكن قلبها يحثها على منحه الفرصة الأخيرة، طال صمتها فظنه رفضًا، أغمض عينيه في ألم وهو يخفض رأسه هامسًا:



- سأكون في منزل والديّ، أرسلي لي أشيائي هناك من فضلك، لو احتجتما لأي شيء سأكون بالقرب.. فلا تترددي رجاءً..

ثم استدار ببطء وبخطوات منكسرة توجه نحو باب البيت، قبله بمسافة قصيرة وصله صوتها متسائلًا بشيء من أمل:

- ما بقي لك من عمر وليد؟

عاد يلتفت إليها وابتسامة تتسلل لعينيه مجيبًا بحزم شديد:

- حتى أدفن في قبري شهد..

عادت تسأل:

- أهذا وعد؟

أجابها بسرعة وحسم:

- وعد وقسم..

سألته بقلق:

- وإن أخلفت وعدك؟

أجاب بنفس الحسم وعينيه تحيطانها بضمة دافئة:



- لن أفعل..

سؤالها المهزوز القلق أتاه تاليًا:

- وإن فعلت؟

بخطوات واسعة اقترب منها، وقف أمامها، بكل الحزم والصدق بداخله أجاب بصوت قوي واثق ليدل على قصده:

- لن أفعل..

رفعت عينيها إليه، تأملته للحظات ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة، تخللها أمل وبعض حياء..

نبض قلبه بقوة وهو يتطلع إليها متلهفًا، فخفضت عينيها وأومأت برأسها هامسة برفق:

- سأثق بوعدك لمرة أخيرة.. قيد التجربة فقط..

انتقلت ابتسامتها الرقيقة إلى شفتيه صاحبتها تنهيدة ارتياح من عمق صدره وهو يهمس بدوره:

- لن تندمي أبدًا على ثقتك هذه..



رفعت عينيها إليه مرة ثانية في سكون..

حافظت على ابتسامتها وهي ترى في عينيه عشقًا لم تره من قبل..

وَجْداً يسكن روحه يحيطها بالدفء ويشعرها بالأمان فاستكانت له في صمت..

وعلى أمل..

تمت بحمد الله

صابرين الديب

٢٠١٥/١/٢

حلم-هن

